

مكتبة بغداد

twitter@baghdad_library



الفاروق العادك

مقالات في النقد الأدبي

تأليف: فرحينيا دولف • ترجمة: الدكتورة عقيلة رمضان • مراجعة: الدكتورة سهر الفطاري

القارئ العادي

تأليف: فرچينيا وولف
ترجمة: الدكتورة عقيلة رمضان
مراجعة: الدكتورة سميرة القلماوي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

مقدمة المترجمة

أوضحت فرجينيا وولف - وهي تقدم لكتابها هذا «القارئ العادي» - الأهداف التي كانت تسعى إلى تحقيقها من وراء نشر هذا الكتاب وهو إبراز صورة شخصية من الشخصيات أو القاء الضوء على الحياة الاجتماعية في عصر من العصور بكل ما فيه من تقاليد، ومثل، وبكل ما يسيطر على أهله من آراء ومعتقدات، أو شرح تفصيلي لنظرية في فن الكتابة كما تراها هي عندما تعرض لبعض مشاهير الكتاب عبر العصور المختلفة التي مر بها الأدب الإنجليزي . وهي في سبيل ذلك تقدم لنا في عرض رائع، وحكم منصف محايد الآراء التي تصدر عن القارئ العادي مهما كانت قيمة تلك الآراء

وهذا الكتاب إذا، يعرض سلسلة من الصور التي انعكست على الآداب، أو انعكست الآداب عليها على مر العصور والأحقاب . وهو بذلك يتناول بالنقد، الأدب في القرون المختلفة، كان تختار المؤلفة موضوعاً ترى أنه يستحق الدراسة أو التعليق أو ترى فيه مدى تأثير الأدب بالعصر أو مدى تأثير الأدب فيه أو كان تتناول صورة لحياة إنجلترا الاجتماعية وكيف صورت تلك الحياة في الكتب الأدبية من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين وكيف تعرضت هذه الكتب للحياة الاجتماعية والأدبية . ولكي تعطي المؤلفة صورة صادقة نراها تتعرض لحديث العجائز وثرثرتهن وهن حول مورد المياه في القرية، ثم تنتقل إلى ما يدور في بلاط الملك حتى تنتهي إلى حديث الصالونات وهي في ذلك كله تقدم لنا ما يؤمن به العامة من شؤم وتطير

وغنى عن البيان أن فرجينيا وولف عندما تكتب فهي انما تستعمل أسلوبها المعروف فى الكتابة أسلوب « تسلسل الأفكار العفوى » (Stream of consciousness) وهو أسلوب « الشئ بالشئ يذكر » فعندما يرد ذكر سقراط مثلا فان العقل يفكر فى هذا الفيلسوف وفى بحثه عن الحقيقة وفى ماهية الحقيقة كما يراها وعلى ذلك تسجل فرجينيا وولف تلك الخواطر وتلك الرحلات الفكرية التى يشطح فيها الفكر ثم يثوب

ومثال آخر لتلك الشطحات أنها عندما تعرضت فى حديثها عن الحقيقة التى يمكن أن تدركها « الروح الطيبة المنبت » تنطلق متسائلة من تكون اذا الأرواح الطيبة ، التى يجب علينا أن نقلدها ؟

أو فى موضع آخر عندما تذكر أن مونتيني «Montaigne» انتهى الى القول بأنه ربما يكون من الافضل أن نتجه الى الدين ليرشدنا ، نرى فرجينيا وولف تترك هذا الحديث وتسلسله الطبيعى لتقول « ربما » هذه هى احدى تعبيرات مونتيني المفضلة « ربما » ، « أظن » وكل هذه الكلمات التى تصور الادعاءات المتهورة ومثل هذه الكلمات تعين الانسان على اخفاء آرائه التى يكون من غير الحكمة الافصاح عنها وهكذا حتى تنتهى من هذا الاسترسال ثم تعود الى الموضوع الأساسى

وقد اضطرت أثناء الترجمة الى ادخال بعض التعديل والتحوير بل أحيانا كنت أرانى مضطرة الى التغيير فى اللفظ أو فى التركيب اللغوى حتى تؤدى الترجمة المعنى الذى كانت تقصده المؤلفة ، وذلك فى المواضع التى يكون فيها التقيد بالنص واللفظ الحرفى غير معبر أو غير واضح ، أو فى المواضع التى قد تؤدى الترجمة الحرفية فيها الى معنى مخالف أو غير دقيق وهذا هو أخطر ما فى الموضوع . ولعل مرد ذلك كله الى الاسلوب الذى نكتب به المؤلفة وهو أسلوب ملؤه المجاز والاستعارة . وقد تكون الصورة المجازية مفهومة لها جمالها الرفيع ومعناها الدقيق فاذا ما ترجمت حرفيا ضاع الجمال واختفى السمو بل تؤدى الترجمة الحرفية الى صورة مضحكة تخل بالمعنى أو تضل القارئ وتعيد به عن الطريق

وهذا الأسلوب المجازى فى الكتاب أو النمط الاستعارى فى الكلام
أو فى التعبير جعل مهمتى عسيرة غير يسيرة ، فبقدر ما كنت حريصة على
المعنى كنت حريصة كذلك وفى نفس الوقت على أمانة الترجمة وأصولها
وانى اذ أتقدم بهذه الترجمة أرجو أن أكون قد وفقت الى اضافة
هذا الكتاب الى المكتبة العربية فأسهم بذلك فى نماء هذه المكتبة وراثتها

والله أسأل أن يسدد خطانا
والله ولى التوفيق ،

دكتورة

عقيلة رمضان

يونيو سنة ١٩٧١

القارئ العادى

عبارة فى كتاب دكتور جونسون عن حياة جراى (Gray) يجب أن تعلق فى اطار فى تلك الغرف التى نبالغ كثيرا فنسميها مكتبات، على الرغم من أنها مكلسة بالكتب التى يتابع قراءتها قوم معينون . والعبارة هى « انه ليسعدنى أن أتفق فى رأى مع القارئ العادى ، فادراك القارئ الفطرى (الذى لم يفسده التحيز الأدبى المكتسب بالمهارات الرفيعة ، والتعصب العلمى) يجب أن يكون هو القول الفصل الذى يقرر أسس التفوق فى الشعر »

ان هذه العبارة تحدد مميزات هؤلاء القراء ، وتسمو بأهدافهم وتسبغ عليهم نفحة من تأييد هذا الكاتب العظيم فى عملية بحث تستنفد وقتا طويلا ولكنها لا تترك وراءها شيئا يمكن الاعتداد به

والقارئ العادى - كما يشير الدكتور جونسون - يختلف عن الناقد والعالم فهو أقل ثقافة منهما ، كما أن الطبيعة لم تغدق عليه فى سخاء من مواهبها . ان القراءة بالنسبة اليه متعة قبل أن تكون سبيلا الى المعرفة أو مجالا لتصحيح آراء الآخرين وهو فوق كل هذا قادر - بطريقتة فطرية - على أن يخلق من جميع المفارقات التى يلتقى بها نوعا من الكل - بخلق صورة رجل أو مخطط عصر أو نظرية فى فن الكتابة . وهو كثيرا ما يصادف أثناء القراءة بعضا من المعلومات الضعيفة البعيدة عن المنطق التى تحقق له الرضا الوقتى اذ تبدو كالأشياء الحقيقية وتتيح له الحب أو المزاح أو المناقشة وفى تسرع وسطحية تعوزهما الدقة نراه يختطف مرة هذه القصيدة وينتزع مرة أخرى قطعة من أثاث قديم دون أن يبالى فى أى مكان

يجدها أو ماهية طبيعتها طالما هي تقدم غرضه وتكمل البناء الذي ينشده ،
وان أخطاءه كناقده أوضح من أن نعددها ولكنه - كما يؤمن الدكتور
جونسون - اذا كان له قول الفصل في تقسيم المجد على الشعراء ، فان
هذا يجعلنا نرى ما يبرر تسجيل بعض آراء وأفكار مهما قلت أهميتها
في ذاتها فانها تسهم في تحقيق هذه النتائج العظيمة .

آل باستون وشوسر^(١)

لا يزال برج قلعة كابستر شامخافي الهواء بارتفاع ٩٠ قدما كما أن عقد البناء ما زال قائما في المكان الذي أقلعت منه صنادل سيرجون فاستولف^(٢) لجلب الأحجار لبناء القلعة العظيمة ، وما زالت الغربان تتخذ من البرج أوكارها ، أما القلعة التي كانت تشغل ستة من الأفدنة فلم يبق منها الا الخرائب والجدران المتهالكة المحتفظة بكواتها ومراصدها التي قهرت الغزاة بحصونها ولكنها لا تضم الآن رماة بداخلها ولا مدافع بخارجها واما « رجال الدين السبعة » وكذا « الفقراء السبعة » الذين كان يجب أن يكونوا مقيمين للصلاة - في هذه اللحظة بالذات على أرواح سيرجون ووالديه - فانه لا يسمع لصلاتهم صوت ولا تظهر أية علامة تنبئ عن وجودهم فقد أصبح المكان أطلالا ، وآثارا ضاربة ومتباينة

وعلى مسافة ليست ببعيدة تمتد خرائب أخرى تلك خرائب برومهولم بريورى^(٣) حيث دفن جون باستون ، الذي كان منزله يقع على مسافة ميل أو ما يقرب من ذلك على أرض منخفضة تمتد مع البحر لمسافة عشرين ميلا شمالي نورويش ان الشاطئ وعمر أما الارض فلا يمكن الوصول اليها حتى في وقتنا هذا ومع ذلك فان الغابة الصغيرة فى برومهولم ، وبقايا الصليب ، كانا يجلبان الحجاج الى بريورى بصفة مستمرة ليرتدوا مشدوهى الابصار ، ومشدودى الاطراف لقد رأى بعضهم مشهدا صدمهم اذ كان قبرجون باستون فى برومهولم بريورى بدون شاهد وسرعان ما انتشر الخبر فى الريف بزوال دولة آل باستون

(١) كتب هذا المقال بمناسبة نشر خطابات باستون التى أعدها ونقحها الدكتور جيمس جيردتر (١٩٠٤) وفيه تتعرض الكاتبة لصورة من صور الحياة فى الريف الانجليزى فى القرن الخامس عشر (الترجمة)

(٢) Sir John Fastolf.

(٣) Bromholm Proiry.

فهؤلاء الذين كانوا فى يوم من الايام ذوى بأس شديد ليس فى مقدورهم الآن أن يضعوا شاهدا على جثمان جون باستون ، كما أن أرملة مارجرى لا تملك أن تدفع ديونها ، والابن الأكبر - سيرجون - بدد أملاكه على النساء وعلى المراهنات بينما كان الابن الأصغر يتلهى بصيد الصقور أكثر مما يفكر فى الحصاد

كان هؤلاء الحجاج بطبيعة الحال كاذبين مثلهم كمثل الذين رأوا جزءا من الصليب الحقيقى فاختلقوا القصص والروايات ول هؤلاء الحجاج العذر فى أن يكونوا كاذبين ورغم ذلك فقد صادفت تلك القصص والشائعات هوى ومنها أن آل باستون برزوا فى الوجود ، ويروى الناس فيما يروون عنهم أنهم كانوا أسرى الى عهد قريب وعلى كل حال فما زال هناك من الأحياء من يذكر كليمنت جد جون وهو يعزق أرضه كآى فلاح كادح ، كما أصبح ويليام ابن كليمنت قاضيا يقتنى الأراضى ، وتزوج جون - ابن ويليام - زواجا طيبا واشترى الضياع كما ورث أخيرا جدا القلعة المترامية الأطراف فى كايستر وكل أراضى سيرجون فى نورفوك وسافوك ويقول الناس أيضا انه زور وصية الفارس القديمة . فما الذى يدعو الى الدهشة اذا ان كان فى حاجة الى شاهد للقبر !! ولكننا اذا تمعنا فى شخصية سيرجون باستون وابنه الأكبر والطريقة التى نشئ عليها وما كان يحيط به ، والعلاقة بينه وبين أبيه - كما كشفت عنها خطابات العائلة - فاننا سوف نرى الى أى حد كان من الصعب أو من المحتمل اهمال وضع شاهد على قبر أبيه

ولنتخيل منزلا شيد حديثا فى أكثر بقاع انجلترا عزلة دون تليفون أو حمام أو مجارى للصرف أو مقاعد وثيرة ودون جرائد وبه رف واحد عليه كتب لم يحسن حفظها وليس من السهل - نظرا لارتفاع ثمنها - أن يجدها المرء فى كل مكان وتطل نوافذ هذا المنزل على بضعة من الحقول المنزرعة وبضع زرائب ومن ورائها يمتد البحر على أحد الجانبين وعلى الجانب الآخر يقع مستنقع شاسع يخترقه طريق واحد به حفرة شاسعة لدرجة انها تبتلع عربة على حد قول أحد الفلاحين وقد أضاف هذا الرجل المسمى توم توبكروفت أن ذلك البناء المجنون انطلق يجوب القرية وهو عار يهدد كل من يقترب منه بالقتل هذا هو حديث العائلة حول مائدة العشاء بالمنزل المنعزل بينما يتصاعد الدخان من المدخنة كثيفا وفى نفس الوقت يداعب تيار الهواء أطراف السجاد الذى يغطى الأرض ولقد أعطيت الأوامر بغلق جميع أبواب القصر مع غروب الشمس .

وعندما يمضى الغروب برعبه وأخطاره يركع رجال القصر - المنقطعون عن العالم الخارجى - ونساؤه خاشعين فى صلاة عميقة

وفى القرن الخامس عشر تغير المنظر العام فجأة وانكسرت وحشة المكان ، فقد أقيم مبنى حجرى ضخيم كأنه أكوام صخر فوق الكثبان الرملية بين ساحل نورفوك والمروج أشبه ما يكون بفندق حديث على الساحل ولكن لم يكن هناك قادمون ولا بيوت ينزلون فيها ولم يكن هناك رصيف فى ميناء « يارموث » فى ذلك الوقت كما لم يكن ذلك المبنى الضخم على مدخل المدينة سوى منزل يضم انسانا بلا ولد هو سيرجون فاستولف الذى حارب فى آجينكورت وحقق ثراء عريضا انه سيرجون الذى حارب فى آجينكورت ولم ينل ما يستحق من مكافآت ولم يتقبل أحد نصائحه وكان القوم يتناولونه بالسوء من وراء ظهره وكان يعلم ذلك وعلى الرغم من هذا العلم لم يغير من مزاجه بل ظل حاد المزاج قوى الشكيمة يعانى من مرارة الشعور بالحزن كان يفكر باستمرار فى كايستر كما كان يحلم باقامة قصر خاص به على أرض أبيه عندما تسمح له واجباته بالاعتزال

وبينما كانت اقامة قصر كايستر الضخم تتقدم على مسافة بضعة أميال ، كان أبناء باستون لم يتجاوزوا سن الطفولة . وكان جون باستون الأب يقوم ببعض الاعمال ، أما أطفاله فقد كانوا يستمعون وهم لا يكادون يفقهون شيئا عن البناء والأحجار وعن المركب التى أقنعت الى لندن ولم تعد بعد ، وعن الست والعشرين غرفة الخاصة ، وعن الكنيسة الصغيرة والصالة والأساسات والأبعاد وعن خبائث العمال وأخيرا عندما انتهت الأعمال عام ١٤٥٤ وعندما وصل سيرجون ليمضى آخر أعوامه فى كايستر رأوا بأنفسهم الكنوز الضخمة التى كانت مخزونة فى القصر مناخذ زاخرة بصفائح من الذهب والفضة وخزائن ممتلئة بالملابس من القטיפىة والحريير وأقمشة مذهبة وقبعات الفراء وستر جلدية مبطنة بالقطفية وحتى كسوة الوسائد كانت من الحرير الأخضر والأرجوانى والسجاد فى كل مكان ، حتى الأسرة وجدران غرف النوم كانت مغطاة بالقماش المشغول (الكنفاه) الذى يمثل مناظر الصيد والمطاردة وصيد السمك ورمى الأقواس ونساء يعزفن على القيثارة أو يداعبن البط أو عملاق يحمل رجل الدب فى يده هذه هى ثمرات حياة نافعة اقتناء للضياع واقامة للقصور ثم ملؤها بصحائف من الذهب والفضة (وان كانت المقتنيات الخاصة مودعة فى غرفة النوم)

وأنفق باستون وزوجته الجزء الأكبر من طاقتهما فى نفس العمل
المضى فمئذ أصبحت رغبته فى التملك غريزة ، بات الفرد لا يطمئن
الى ما ملكت يمينه طويلا فقد تتعرض الأجزاء المتطرفة لأملك أى انسان
للأخطار المستمرة فمثلا يطمع دوق نورفوك فى قطعة أرض ودوق
سافوك فى قطعة أخرى وقد أعلن البعض الأعداء التى تبرر فعلتهم
هذه بقولهم لما كان آل باستون أسرى فمن ثم يصبح لهم حق مصادرة
المنزل وهدم المساكن فى غياب صاحبها وكقولهم كيف يتسنى لصاحب
باستون وموتبى ودراتيون وجريشام أن يتواجد فى خمسة أماكن أو ستة
فى وقت واحد خاصة وان قلعة كايستر قد أصبحت ملكا له الآن بينما
هو موجود فى لندن يجاهد فى الحصول على اقرار الملك بضمان حقوقه
والتصديق عليها وقد قيل ان الملك كان مجنونا هو الآخر حتى أنه لم
يعرف ابنه وفى رواية أخرى قيل ان الملك فر هاربا أو انه كانت هناك
حروب أهلية وقد كانت نورفوك دائما أكثر الاقطاعيات نكبة ون سادتها
كانوا أكثر مشاغبة وشجارا ولو كان لزوجا باستون أن تختار لروت
لأبنائها كيف أن ألفا من الرجال بالنبال والسهام ومقاليع النار هجموا
على جريشام - وقت ان كانت هى نى شبابها - وحطموا الأبواب ودكوا
جدران الغرفة التى كانت تجلس فيها بمفردها ثم حدث ما هو أفظع
من ذلك للنساء ولكنها لم تنتحب أو تعتقد فى نفسها انها بطلة
فالخطابات المطولة التى كانت تحرص على كتابتها بخط يدها وترسلها الى
زوجها الغائب كالعادة لم تشر فيها الى نفسها بشئ بل كانت تكتب له
عن الأغنام التى أتلفت الدريس وعن خروج رجال هيدين وتادينهام وعن
سرقة ثور ، أو تكتب عن حاجتهم الملحة الى العسل ، أو انه يلزمها شئ من
الملابس وهكذا لم تتحدث السيدة باستون عن نفسها بشئ

وكان الصغار يرقبون والدتهم وهى تكتب الرسائل الطوال صفحة
بعد صفحة وساعة تلو أخرى ولم يكن ليجرؤ أحد على أن يقطع على الأم
كتاباتها فى مثل هذه الموضوعات الهامة والا عد آثما ولم تقطع ثرثرة
الأطفال ولا دروسهم فى الفصل أو فى حجراتهم تلك الاتصالات المطولة
اذ كانت أغلب خطاباتها خطابات تابع أمين لسيدة فهى اما مفسرة واما
طالبة للمشورة واما راوية للأخبار واما عارضة لكشوف الحسابات . فمن
اخبار بحادث سرقة أو قتل الى شرح صعوبة تحصيل الايجار الى
أن ريتشارد كال لم يجمع من النقود الا قليلا ولم يكن لدى مارجريت
لسبب أو لآخر من الوقت ما يسمح لها بأن تضع قائمة بالبضائع التى

يريدها زوجها كما كان ينبغي لها أن تفعل ويمكن أن تكون
آجنس العجوز قد أشارت وهي تراقب شئون ابنها من بعد وبشيء من
العبوس الى أن عليه أن يفهم انه « قد لا تكون مطالبا الا بعمل قليل فى
الدنيا » وقد قال أبوك « فى الأعمال التافهة تكثر الراحة فالدنيا
ليست الا عرضا زائلا مملوءة بالمنغصات وعندما نرحل عنها فليس لنا
الا أن نحمل معنا أعمالنا الصالحات وآثامنا التى اقترفناها »

وهكذا صدمتهم فكرة الموت التى حلت بهم فقد رأى فاستوف
العجوز فى نومه أنه غارق فى ثرائه وممتلكاته فى قاع جهنم فصرخ فى منفذ
وصيته بأن يوزعوا الصدقات وأن يعملوا على أن تقام الصلوات بانتظام
حتى تنجو روحه من عذابات التطهر واضطر القاضى ويليام باستون
أيضا الى ابقاء رهبان نورويتش للصلاة على روحه « الى الأبد » فليست
الروح نسمة فى الهواء بل هى جسم مادى يحل به العذاب والنار
التي تفتيه نار حامية كأي نار تستعر على المواعد ويجب أن يبقى الى
الأبد رهبان قرية نورويتش كما يجب أن تبقى كنيسة العذراء فى مدينة
نورويتش فهناك شيء واقعى وايجابى ومحتمل فى تصورهما لكل من
الحياة والموت

وهكذا بمقتضى فكرة البقاء التى تميزت بالعنف كان الأطفال
يؤدبون ويلقن الصبية والبنات حدود سلوكهم ومراكز علاقاتهم حقيقة
لا بد أن يحصلوا على الأرض ولكن تجب عليهم طاعة والديهم فالأم تغسل
رأس ابنتها ثلاث مرات فى الأسبوع ثم تقسو عليها اذا هى لم تحترم
آداب السلوك فكانت جنس باستون - وهى سيدة بالمولد والنشأة -
تضرب ابنتها اليزابيث وطردت مارجريت باستون - وهى امرأة ذات
قلب رقيق - ابنتها من المنزل لانها أحبت ريتشارد كال التابع الأمين
اذ لا يجب أن يعانى الأخوة من زواج اخواتهم بمن هم دونهم وبمن يبيعون
الشموع (والمخللات) فى فراملنجهام ويتشاجر الآباء مع الأبناء أما
الأمهات - وهن يفضلن البنين على البنات - فكن يتقيدن بالعرف والعادة
فى اطاعة أزواجهن - وقد توزعت نفوسهن وهن يجاهدن فى قيام الوثام
بين الآباء والأبناء وقد فشلت مارجريت - رغما عن آلامها - فى منع
تهور ابنها الأكبر جون أو فى منع الكلمات المريرة التى وصفه بها أبوه
عندما انفجر الأب قائلا له « انك عالة كالدبور فى خلية النحل التى
تسعى لجمع الرحيق من الحقول وهو لا عمل له سوى أن يحصل على نصيبه

من العسل » لقد كان الابن يعامل أبويه بوقاحة ومع ذلك كان لا يصلح لتحمل المسئولية بعيدا عنهما وعن بيته عندما يسافر الى الخارج

وانتهت المشاحنات بعد وقت قصير بوفاة جون باستون الأب في ٢٢ من مايو سنة ١٤٦٦ في لندن ونقل الجثمان الى بروم هولم حيث دفن ورافق الجثة اثنا عشر فقيرا على الجانبين يحملون المشاعل ووزعت الصدقات وأقيمت القداسات وألقيت المراثي ودقت الأجراس وأقيمت ولائم للمعزين قدم فيها كميات هائلة من الدجاج والحراف والخنازير والبيض والخبز والبن واحتسيت الحمول والبيرة وأشعلت الشموع وانتزع لوحان من شباك الكنيسة لكي يتسرب منهما دخان المشاعل كما وزعت الأقمشة السوداء وأضيئت المقبرة بمجموعة من المشاعل ومع كل هذا تراخي جون باستون الوريث في اقامة شاهد لمقبرة أبيه

كان جون باستون الوريث شابا صغيرا يبلغ من العمر حوالي أربعة وعشرين عاما سئم الحياة الريفية في الريف الكادح وعندما فر من البيت كان ذلك لكي يلتحق - وهذا واضح - ببلاط الملك ومهما أثار أعداء آل باستون من شبهات حول أصلهم فان سير جون كان - دون أن خطأ - نبيلاً لقد ورث الأراضى وأصبح الشهد الذي كد في جمعه النحل ملكا له وكانت غرائز المتعة عنده أكثر من غريزة الاقتناء وجمع بين بخل أمه وطموح أبيه ومع ذلك فقد جمع كذلك بين الحمول وأبهة المزاج من كليهما وكان جذابا في أعين النساء ، يحب المجتمع والمبارزة وحياة القصور والمراهنات بل قراءة الكتب أحيانا وبدأت الحياة تعتمد من جديد - وقد انتهى من دفن جون باستون - على أساس مختلف حقيقة لم يحدث تغيير كبير في الشكل الخارجى اذ ما زالت مارجريت تحكم البيت وتتحكم في حياة الصغار كما كانت تتحكم في حياة الكبار . ولازال الأولاد في حاجة الى التأديب للحصول على العلم على يد معلمهم ولازال البنات تقع في غرام الرجال الذين لا يصلحون لهن ولا بد أن يتزوجن ممن هم لاثقون بهن ولا بد من جمع الايجار واستمرت الدعوى القضائية التى لا نهاية لها ضد أملاك فاستولف والمعارك تخاض . وذبلت زهور يورك ولانكستر ثم انتعشت من جديد ولازال نورفوك ممتلئة بالفقراء الذين يسعون الى التخفيف من بؤسهم وعملت مارجريت مع ابنها كما كانت تعمل مع زوجها من قبل مع فارق له مغزى الآن فهى بعد أن كانت تثق في زوجها وتستشيريه أصبحت الآن تطلب المشورة من القسيس

ولكن كان هناك تغيير في نفسية سيرجون اذ يلوح أن القشرة الخارجية قد استنفذت أغراضها وأن شيئاً مرهفاً فيه استحسان واستمتاع بالحب بدأ يولد في قرارة نفسه وعلى أية حال فقد يشرد سيرجون أحياناً عن العمل الذي بين يديه وهو يكتب لأخيه جون الذي يقيم بالبيت ليروى له «نكتة» يطلق بها شائعة أو ليلقن أخاه - عن قصد منه وبدهاء - فناً من فنون الحب « اخفض جناحك اذا ما أصغيت لأمك ، ولكن لا تتواضع كثيراً أمام الخادمة ، ولا تفرح كثيراً بالنجاح السريع ولا تياس من الفشل . وسوف أكون دائماً المبشر بمقدمك والمحتمى بك هنا عندما تحضر أو في البيت عندما أعود اليه وأرجو أن يكون ذلك قريباً خلال أحد عشر يوماً على الأكثر » وبعد ذلك يرى وجوب شراء صقر وقبعة أو يرسل قطعة جديدة من الدانتيل الحرير الى جون في نورفوك ، ثم يتابع قضيته ، ويطلق صقوره لتطير ثم يثوب بلهفة خالية من أى احساس رقيق بالاخلاق الى ضيعة باستون

مضى وقت طويل انطفأت فيه النار التي أشعلت على قبر جون باستون الأب ومع ذلك فلا زال سيرجون الابن يسوف ولم يضع الشاهد على القبر بعد . ولديه أعذاره فهو مشغول بالقضية المدنية وبأعبائها في المحكمة ومشغول كذلك بالاضطراب الذي أعقب اندلاع الحروب الأهلية كان وقته مشغولاً وأموانه مبددة ولكن قد يكون هناك شيء غريب وقع لسيرجون نفسه ولم يحدث هذا الشيء لسيرجون الذي يتباطأ وحده في لندن فحسب - بل وقع لأخته مارجرى كذلك فقد وقعت في غرام محضر المحكمة وشمل التغيير كذلك والتر Walter الذي ينظم قصائد من الشعر اللاتيني بمدرسة ايتون وجون الذي يمارس الصيد باطلاق صقوره . وبقيت الحياة رتيبة ليس فيها من وسائل التسلية الا القليل ولم يكونوا واثقين - ثقة الجيل القديم - من حقوق الانسان وفروض الدين ورهبة الموت وأهمية شاهد القبر ولقد شعرت مرجريت المسكينة بهذا التغيير فبدأت تتحسس في قلق قلمها ثم أخذت تسطر - والقلم لا يطاوعها - عدداً من الصفحات لتكشف عن مشاكلها الأساسية فلم تكن القضية هي التي تحزنها اذ كانت على استعداد لأن تحمي كايستر بيديها اذا استدعى الأمر « على الرغم من اننى لا أقدر على القيادة ولا التحكم في الجند » وانما هناك خطأ ما قد وقع للعائلة منذ وفاة زوجها وسيدها . فقد يكون ابنها قد أغضب الاله ؛ اذ كان متباهياً أكثر من اللازم وقد يكون مسرفاً في نفقاته أو قد يكون قد قصر في الرحمة اللازمة نحو الفقراء ومهما

يكن أمر هذا الخطأ فانها تعلم علم اليقين ان ابنها قد أنفق من المال فيما لا يجدى ولا ينفع ضعف ما أنفق أبوه حتى أصبحوا غير قادرين على سداد ديونهم دون بيع جزء من الأرض أو الغابة أو بعضاً من محتويات المنزل (فكانت تقول انه الموت بالنسبة لى كلما فكرت فى شىء من هذا) ، وهكذا يتناولهم الناس فى القرية بسوء فى حديث كل يوم لانهم تركوا جون باستون يرقد فى مثواه وقبره دون شاهد والأموال التى كان من الممكن شراء شاهد للقبر بها أو المزيد من الأرض أو الأوانى الفضية أو الطنافس أنفقها سيرجون فى شراء ساعات وحلى أو دفعها أجورا لكاتب نظير نقل المقالات التى كتبت عن الفروسية وما شابهها من الموضوعات وهذه هى أحد عشر مجلدا رصت فى باستون - صفا واحدا الى جانب أشعار ليدجيت(١) وتشوسر وتشيع تلك المقالات جوا غريبا فى منزل متواضع فقد كل مقومات الراحة مقالات تشجع على التراخي والكسل والغرور وتجذب أفكار الرجال بعيدا عن العمل ولا تؤدى بهم الا الى اهمال مصالحهم والتفكير باستخفاف فى الحقوق المقدسة للموتى

وبدلا من أن يمتطى سيرجون صهوة جواده ليتفقد أحوال المحاصيل أو ليتفاوض مع المستأجرين ، كان يقضى نهاره جالسا يقرأ . وهناك، وعلى المقعد الأصم سى الحجره التى لا توفر أية راحة وبينما الهواء يرفع أطراف السجاد ويؤذى الدخان عينيه ، يجلس سيرجون ليقراً تشوسر مبددا لوقته حالما . ترى ما هى تلك المنشوة الغربية التى كان يحصل عليها من الكتب؟ والحياة قاسية لا مرح فيها بل هى مليئة بخيبة الأمل اذ تمر السنة الكاملة يوما وراء يوم فى صورة كثيبة لا طائل من ورائها، وتساقط قطرات المطر المنهمر على ألواح زجاج النوافذ لم يكن يعنيه كما كان يعنى والده من قبل ولم يكن لديه أى دفع يحتم عليه تكوين أسرة ، أو يدفعه لأن يهيبء مركزا هاما لأولاده الذين لم يولدوا بعد وحتى اذا ما ولدوا فليس لهم الحق فى حمل اسم أبيهم . ولكن اشعار ليدجيت وتشوسر كالمرآة تمر فيها صور الشخصيات بوضوح وصمت وباحكام انها تريحه السماوات والمزارع والناس الذين يعرفهم فى تكامل واحكام وبدلا من أن يتسقط الأخبار من لندن بفتور أو يشكل من اشاعة سمعها من أمه مأساة ريفية عن الحب والغيرة ، فقد كان يجد بغيته هنا ؛ وعلى صفحات قلائل من هذه الأشعار كان يجد قصته كاملة بين يديه وهو اذا ما ركب أو جلس الى المائدة فانه سوف يتذكر وصفا أو قولا ينصب على الوقت الحاضر فيدونه

أو يذكر عقدا منظوما من الكلمات يبعث في نفسه السرور فيطرح جانبا هموم تلك اللحظة ثم يسرع قافلا الى منزله ليجلس على مقعده ويجد في القراءة حتى يعرف نهاية القصة

ليعرف نهاية القصة !! فما زال تشوسر قادرا على أن يجعلنا نتوق شوقا الى معرفة نهاية القصة ان له موهبة فياضة في رواية القصة التي يكتبها ، تلك الموهبة التي أصبحت أندر المواهب وجودا بين كتاب القصة في العصر الحديث فلم يقع لنا من الأحداث ما سبق أن وقع لاسلافنا ، والحوادث قلما تكون لها أهمية اذا ما أردنا أن نعددها بل اننا أصبحنا لا نؤمن بها كحقيقة قد يكون لدينا ما هو أكثر أهمية لنرويها ولهذه الأسباب أصبح رواية القصة الطبيعيون - أمثال السيد جارنيت (١) - الذي يجب أن نميزه عن غيره من رواية القصة المتكلمين مثل السيد ماسفيلد (٢) - أصبح هؤلاء الرواة الطبيعيون نادرين وراوى القصة - الى جانب الاهتمام الذي يفوق الوصف بالوقائع - يجب عليه أن يروى قصته بمهارة ودون انفعال أو تأكيد - بلا مبرر - والا فاننا سوف نزردها دفعة واحدة ثم تختلط أجزاءها معا . وعليه أن يقف معنا ، ويعطينا الوقت لكي نفكر ونتأمل في نفوسنا ومع ذلك فهو يحثنا دائما على المضي في قراءة القصة وقد ساعدت تشوسر في هذا - الى حد ما طبيعة العصر الذي ولد فيه الى جانب ما حظى به من ميزة أخرى لا تتوافر للمحدثين ولن تتكرر بالنسبة لأى شاعر انجليزي آخر لقد كانت انجلترا في ذلك الوقت ريفا لم يفسده شيء بعد وتفتحت عيناه على أرض بكر وأعشاب وأحراش لم تطأها قدم ولم يكن هناك الا مدن صغيرة وأحيانا ترى قلعة قائمة بين المباني ولم تكن سقوف الأكواخ تظهر من أعالي الأشجار في كنت Kent الجميلة فتمسخ جمالها ، ولم يكن ثمة دخان يتصاعد من مداخن مصنع قائم عند سفح التل وكانت حالة الدولة أمرا بالغ الأهمية - اذا أخذنا في الاعتبار كيف اتجه الشعراء الى الطبيعة وكيف استعاروا منها في تشبيهاتهم وأضدادها حتى عندما لا يصفونها مباشرة ثم يتساءلون هل تزرع الأرض وتمتد لها يد الانسان أم تترك على حالها، وكانت حالة الدولة تؤثر في الشاعر تأثيرا أكثر عمقا منه في كاتب النثر . أما بالنسبة للشاعر الحديث وسط برمنجهام وما نشسستر ولندن ، على سعة

Mr. Garnett. (١)

Mr. Masfield. (٢)

كل منها فان الريف لا يعدو أن يكون محراباً للأخلاق الكريمة اذا ما قورن بالمدينة مهبط الرذيلة فالريف هو المعزل والمأوى للتواضع والفضيلة حيث يهرع اليه الناس للاحتماء به ولكي ينهلوا من الأخلاق . وهناك شيء معتل - كما لو كان قد انبثق من التقاء البشر - وهو عبادة الطبيعة عند وردز ورث (١) ، وأكثر منه علة ذلك التفانى فى التفاصيل الدقيقة التى أسرف تينسون (٢) فى الالتجاء اليه عند وصفه أوراق الورد وبراعم شجر الليمون وكان هؤلاء شعراء فطاحل ولم يكن الريف بين أيديهم الا معرض مجوهرات أو متحفا يضم أشياء غريبة يصفونها بكلمات قد تكون أكثر منها غرابة أما بالنسبة لشعراء أقل منهم موهبة فقد فسد المنظر منذ أن حلت الحديقة أو المرج محل البرارى القاحلة وانحسر سفح الجبل الشديد الانحدار عن أرض منبسطة ضيقة ومنذ أن انتقلوا من أعشاش الطيور الى كيزان الصنوبر فبدت الحياة وكأنها قد علتها تجاعيد الشيوخوخة وافتقدنا الأرض المنبسطة المترامية الأطراف

أما بالنسبة لتشوسر فلقد كان الريف كبيراً جداً وبرياً خالصاً بحيث لا يكون مقبولاً فى مجموعته وكأنما الطبيعة طبيعة غيره من الشعراء قد فرضت عليه تجربة أليمة فتحول بغريزته من العواصف والصخور الى أيام الربيع المشرقة ذات المنظر المرح خفيف الظل تحول من القسوة والغموض الى المرح والوضوح ودون أن يكون لديه عشر الكلمات المعبرة التى هى ميراث العصر الحديث أمكنه أن يصف فى كلمات قلائل معنى الهواء النطق (وحتى عندما ندرس النص نجد أنه دون كلمة واحدة من الوصف المباشر) يقول مثلاً

« وأنظر كيف تتفتح الزهور اليانعة »

ويكتفى بهذا

ولم تكن الطبيعة غير المنمقة أو الثائرة فى فوضى مرآة للوجوه الباشة أو متنفساً للأرواح المعذبة بل كانت الطبيعة موجودة لذاتها أحياناً غير راضية وأحياناً أخرى سهلة وانما هى دائماً على صفحات تشوسر قسوة ونضرة تصور الحاضر الفعلى وسرعان ما نلاحظ شيئاً ذا أهمية عظمى أكثر من المرح ومن زوعة المظهر لعالم العصور الوسطى نلاحظ

Wordsworth. (١)

Tennyson. (٢)

الصلابة التي تبرز الطبيعة والاقتناع الذي يضيف على الشخصيات حيويتها فهناك منوعات ضخمة في « حكايات (١) كانتربري » ومع ذلك ففيها الاصرار على نمط واحد فلتشوسر عالم وله فتياه وفتياته • فاذا ما قابل المرء تلك الشخصيات وهي تعيش في عالم شيكسبير فانه سيدرك انهم من عالم تشوسر وليسوا من عالم شيكسبير

أراد تشوسر أن يصف فتاة فهكذا بدت

عصابة رأسها مزركشة بدقة ،

عيونها رمادية تتلألأ كالبللور ،

فمها صغير رقيق فان ،

ولا شك أن جبهتها دقيقة عالية

وهي مع ذلك لا تكاد تكون ضئيلة الحجم

ثم يستمر يطورها فتغدو شابة عذراء باردة في عذريتها

وأنا - كما تعلم - في صحبتك

فتاة تحب الصيد وركوب الخيل ،

وتحب التوغل في الغابات البرية

ولا أحب أن أكون زوجة وأما لأولاد

ثم يفكر تشوسر في الحبيب وكيف يكون

وهي دائما حصيفة في ردودها

وهي كالشاعر بالاس Pallas في ذكائها •

لا زيف في عباراتها

تبدو ذكية وانما على طريققتها

فهي اذا تحدثت كان لكلماتها

رنين الفضيلة والرقة

كل واحدة من هذه المقتطفات - فى الواقع - مقتبسة من حكاية مختلفة ولكنها عبارة عن أجزاء - كما يحس المرء - لنفس الشخصية التى يتخيلها فى عقله وقد لا يشعر بذلك وهو يفكر فى شابة صغيرة ولهذا السبب كلما ظهرت فى قصة من حكايات كانتربرى - تحمل أسماء مختلفة - فانها فى الواقع لا وجود لها الا فى رأس الشاعر وهو يفكر فى امرأة صغيرة بطبيعة الحال وكذا عندما يفكر فى العالم الذى تعيش فيه شخصياته فهو انما يفكر فى نهايته وفى طبيعته بنفس المهارة وبنفس الفن لذلك أصبح عقله طلقا يعمل طاقاته فى أغراضه ولم يخطر على باله أن جريزيلدا (١) ربما تتطور أو تتغير ولا شىء يشينها ، ولا تردد، وهى لا تعنى شيئاً راضية بأن تكون على ماهى عليه وعلى ذلك يمكن أن يستكين لها العقل بارتياح لا ارادى فيسمح له أن يضىف عليها - بتلميحات وافتراضات - من الصفات أكثر مما هى عليه فى الواقع وهكذا تكون قوة الاقناع - وهى هبة نادرة - هبة يشاركه فيها - فى وقتنا الحاضر - جوزيف (٢) كنراد فى باكورة قصصه ، هبة ذات أهمية بالغة اذ عليها يعتمد كل ثقل البناء وبمجرد الايمان بشباب وشابات تشوسر نصبح فى غير حاجة الى الوعظ أو الاعتراض ونحن نعلم ماذا يراه طيباً وماذا يراه رديئاً ، وعنده خير الكلام ما قل ودل . فلندعه يتقدم بقصته يرسم الفرسان والسادة نساء طبيبات ونساء خبيثات ، طهارة وبحارة وقساوسة وسوف نمدهم بالمناظر ونمنح مجتمعه معتقداته وموقعه بالنسبة للحياة والموت وهم يقومون بالرحلة الى كانتربرى فهى بمثابة حجة روحية .

ان هذا الاخلاص البسيط لكل ما يدركه من مدركات كان أسهل فى ذلك الوقت منه الآن من ناحية واحدة على الأقل وهى أن تشوسر يستطيع أن يعبر بصراحة عما نعبر عنه نحن بمكر أو دهاء أو عما لانستطيع أن نعبر عنه أصلاً ، ونراه قادراً على أن يعطى لكل معنى فى اللغة تعبيراً وبذلك لا يبقى عدد كبير من أجمل تعبيراتنا أخرس نتيجة لعدم الاستعمال . فاذا أراد كاتب جرىء أن يستعمل بعضاً من تلك العبارات بدت غير مألوفة، بل انا نستغيث من مثل هذا التعبير متسائلين كيف بقى هكذا مع التعبيرات الأخرى وكثير من أعمال تشوسر أو ربما بضعة سطور من

Griselda. (١)

Joseph Conrad. (٢)

كل قصة من القصص غير سليمة اذ انها تعطينا ونحن نقرأها احساسا غريبا بالعرى فى الهواء بعد أن كنا نستتر فى أسمال بالية وكما أن بعضا من الدعايات تعتمد على القدرة على الكلام - بغير تحفظ أو رقيب - عن أجزاء ووظائف الجسم فقد فقد الأدب المحتشم طرفا من أطرافه كما فقد قدرته على خلق زوجة باث (١) ومربية جوليت (٢) وأحزابها مثل شخصية مول فزندوز (٣) المعروفة رغم أن التشابه بينهما باهت وقد اضطر ستيرن (٤) الى كتابة الأدب الفاضح خوفا من أن يوصف بالخشونة والغلظة - ولا بد انه كان لبقا وان كان غير مرح وكان عليه أن يلجأ الى التلميح بدلا من الافصاح وهل نستطيع بعد أن تركنا كتاب عولص (٥) لمؤلفه جويس وراءنا أن نصدق - أن ضحك الأيام الحالية يمكن أن تستعيده آذاننا مرة أخرى ؟

يا يسوع ، يا رب متى تذكرنى ،
أقسمت بيمينى وأقسمت بروحى
انها محفورة فى قلبى ها هنا
وحتى يومى هذا ، ما زالت تجعل قلبى يدق
فكأننى قد ملكت العالم فى زمانى
ان صوت تلك المرأة العجوز قد سكت الآن

ولكن هناك سببا آخر أكثر أهمية للبريق العجيب والسرور المؤثر الذى ما زلنا نجده فى حكايات كانتربرى فقد كان تشوسر شاعرا لم يهرب من الحياة التى كان يحيهاها الناس فى ذلك الوقت أمام ناظره فهو يرى مثلا مزرعة بما فيها من قش وجلة وديوك وفراخ لا تحصى (تماما كما تعودنا أن نراها) فيجد فى ذلك موضوعا شعريا على عكس ما نعتقد ويبدو أن الشعراء حاليا اما أن يكونوا قد استبعدوا المزرعة كلية من

Wife of Bath. (١)

Juliets Nurse. (٢)

Moll Flanders. (٣)

Sterne. (٤)

Joyce's Ulysses. (٥)

شعرهم أو انهم يصرون على أن تكون المزرعة من مزارع الاغريق في
تسلاى (١) وفيها خنازيرها الأسطورية ولكن تشوسر يقول مباشرة

وكانت تمتلك ثلاثة خنازير لا أكثر من ذلك

وثلاث بقرات وخروفا يدعى مالى

أو يقول مرة أخرى

كانت تمتلك فناء يحيط بها من كل جانب

وعلى مقربة منه بئر جافة والبوص قائم

انه لا يخجل من شيء ولا يخشى شيئا - فهو دائما دائما يتناول موضوعه
عن كئيب - يقول ليصف لحية رجل مسن

ذو لحية كثة يعلوها شعر خشن

أشبهه بقشر السمك حاد كالشوك

أو يصف رقبة الشيخ

ان الجلد المتهدل حول رقبتة يهتز

كلما صاح بالغناء ،

وانه ليخبرك بما تلبسه شخصياته وأوصافهم وأشكالهم وما يأكلون
وما يشربون كما لو كان الشعر قادرا على أن يتناول الأحداث العادية
في هذه اللحظة بالذات من يوم الثلاثاء السادس عشر من ابريل عام
١٣٨٧ دون أن ينتقص من جماله أو رونقه أما اذا رجع الى عهد الاغريق
أو الرومان فانما يكون ذلك لمجرد أن قصته قادت الى هناك فلم تكن
لديه الرغبة فى أن يطوى نفسه فى الحفريات وبذلك يتوارى خلف العصور
القديمة أو أن يهز روابط اللغة الانجليزية التى تربط عامة الناس بعضهم
الى بعض

وعلى ذلك عندما نقول اننا نعرف نهاية الرحلة فان من العسير
أن نقتبس أو نشير الى سطور بالذات على انها هى التى استخلصنا منها
معلوماتنا ان تشوسر يثبت نظريه على الطريق التى أمامه وليس على

Thessaly. (١)

العالم الذى يحيط بهذه الطريق فقدرته فى التأمل المطلق كانت محدودة
وكان لا يقبل - فى حدة غريبة - أية مناقشة مع العلماء أو رجال الدين

ان الجواب على ذلك لرجال الدين أتركه ،
ولكنى أدرك أن الآلام فى هذا العالم ستزداد ،
ما خطب هذا العالم وماذا يطلب الانسان فيه ؟
انه يعيش لفترة فى حب وبعد ذلك فى برد القبور
وحيدا بغير أنيس أو أليف
ما أقسى هذه الحياة التى تحكمها يا رب !
هذا العالم ارتبط منك بكلمة الخلود
نقشت على منضدة من الماس
تشبيهاك والأرض الأبدية
وماذا يعنى البشر أكثر من أنهم فى قبضتك
كالماشية تجثو وتطلب رحمتك

وكانت الأسئلة التى يطرحها تشوسر تلح عليه ولكن نزعة الشعر
عنده كانت من القوة فى هدفها بحيث لا يقف ليجيب على تلك الأسئلة
بل كان يتركها بلا جواب حتى لا يصبح هذا الجواب المؤقت حجر عثرة
فى طريقه وبذلك يظل متجددا بالنسبة للأجيال التى تعقبه . وفى حياته
كان من المستحيل أن يعتبر تشوسر منتميا لهذا الحزب أو ذاك أهو
ديمقراطى أهو أرسقراطى وهو وان كان رجلا غاية فى التدين فانه كان
يضحك من القساوسة . وكان خادما قديرا للشعب وجليسا للأمرء أما
وجهة نظره نحو الأمور الجنسية فقد كانت غاية فى التساهل وكان يشفق
من الفقر ومع ذلك لم يفعل شيئا ليحسن من حال غالبية الفقراء . ويمكن
القول بغير حرج انه لم يصدر قانون واحد ولم يقم ببناء واحد نتيجة لأى
شء قاله تشوسر أو كتب عنه وعلى الرغم من ذلك فعندما نقرأ لتشوسر
فاننا نزدرد الفضيلة من كل فتحة من فتحات مسامنا وذلك لأن الكتاب
ينقسمون الى نوعين فهناك الكهنة الذين يمسون بيديك ويقودونك مباشرة
الى الغموض وهناك الرجل العادى الذى يخفى عقائده فى الماديات فى
الجسد والدم ويقيم نموذجا متكاملا من العالم دون استبعاد للرذائل أو

التأكيد على الفضائل ومن بين الكهنة ووردز وورث (١) وكولريديج (٢) وشيللي (٣) ، فهم يقدمون لنا النص تلو النص ليعلق على الجدران والحكمة تلو الأخرى لتجتو على القلب كما يوضع الحجاب الواقي من المهالك

تبا للقلب الذى يعيش منعزلا

ان الذى يصلى فى خشوع هو من يحب فى صدق

يحب كل شىء العظيم والحقير على السواء

مثل هذه الكلمات من النصائح والأوامر ترد على الحاطر فى الحال ولكن تشوسر يدعنا نسير فى طريقنا ونؤدى الأعمال العادية مع الناس العاديين ونتمثل حكمه فى معاملات الرجال والنساء كل مع الآخر فنراهم وهم يأكلون ويشربون وهم يضحكون ويتحابون ونحس بمعنوياتهم دون أن تذكر كلمة واحدة وهكذا نراهم يندمجون ويصطبغون مع خلقهم ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أقوى من ذلك موعظة حيث كل التصرفات والانفعالات معروضة عرضاً عملياً وبدلاً من أن تقدم لنا النصيحة فى أسلوب مهيب يتركنا نشرد ونحلق ونستخلص لأنفسنا المعانى انها فضيلة المخالطة العادية ، فضيلة الروايات والقصص التى يحكم عليها بحق ، الآباء ورجال المكتبات (٤) (بأنها أقوى اقناعاً من الفضيلة التى يصدرها فى الشعر)

وهكذا نشعر عندما نطرح تشوسر جانباً انه ودون أن يذكر كلمة واحدة يقدم لنا النقد الكامل ، ويشتمل تعليقه كل ما كنا نقول أو نفكر فيه أو نقرأ أو نفعل وأنا عندما ندع تشوسر جانباً ، يمتلكنا احساس قوى جداً بأننا كنا فى صحبة طيبة ، وأننا قد ألفنا أساليب المجتمع الجيد ذلك لأننا بينما نحن نمشى الهوينى فى الواقع فى الريف الطبيعى الذى لم تمتد اليه بعد يد الانسان بالتجميل نمشى أولاً مع رفيق هو خير من يطلق النكتة أو يعنى أغنية تلو أخرى ندرك أنه على الرغم من ان ذلك العالم – وان كان يشبه عالمنا فانه ليس فى الواقع عالمنا

Wordsworth. (1)

Coleridge. (2)

Shelley. (3)

(٤) تقصد المؤلفة فرجينيا وولف بهم الطبقة المثقفة من الادباء لانهم هم الذين

كانوا يقومون على أمر المكتبات (الترجمة)

اليومى بل انه دنيا الشعر فكل شىء فيه يقع سريعا وأكثر تركيزا وفى نظام أكثر احكاما من الحياة أو مما يصدر فى النثر فمن المتفق عليه فى الشعر استبعاد الكآبة وذلك جزء من رقى الشعر وهناك أبيات من الشعر تعبر مقدما عن كل ما كنا على وشك النطق به كما لو كنا نقرأ أفكارنا قبل أن نتعثر فى الكلمات وهناك أبيات أخرى نعيد قراءتها ونشعر بذلك الذوق الرفيع وبذلك السحر الذى يحفظ عليها بريقها فى العقول لفترة طويلة وهذه الأبيات جميعها تبقى فى مكانها وتحكم تنوعها وتجولها القوة التى تعتبر من أقوى القدرات تأثيرا وهى القدرة على التشكيل – هى قدرة المهندس وهذا هو ما يتميز به تشوسر واننا نشعر على الفور بتلك السرعة وبهذا السحر مع اننا لا نستطيع التذليل على ذلك بمقتطفات من أشعاره وعند أغلب الشعراء تكون المقتطفات سهلة وواضحة كبعض الكتابات التى تزدهر فجأة وكبعض الفقرات التى تبرز عن غيرها وانما تشوسر مستو فى أبياته متوازن فى قدراته ولا يمكن الاستعارة منه فاذا أخذنا ستة أو سبعة من الأبيات على أمل أن نجد فيها تلك الصفات فاننا لا نجدها

الهى أنت تعلم يا من له من الأب منزلة .

جردت عنى أسمالي

ثم ألبستنى برحمتك من الثياب الغالية

ولم أقدم لك شيئا لحوقى

سوى ايمانى ونفسى وعذريتى

وفى هذا المقام لا يبدو انه خالد ومؤثر فحسب ، بل ملائم ليعبر عن الجمال الصارخ فاذا فرقنا هذه الفقرة وفصلنا أبياتها فانها تصبح عادية لا جديد فيها ويبدو ان لتشوسر مقدرة فنية هى التى تجعل الكلمات العادية والاحساسات البسيطة – اذا ما انتظم عقدها – تتألق واذا ما انفردت عقدها زال عنها بريقها وعلى ذلك فالمتعة التى يمنحنا اياها تشوسر تختلف عن المتعة التى يمنحها لنا أى شاعر آخر وذلك لأنها أكثر التصاقا بما نشعر به نحن أو بما نلاحظه مثل تناول الطعام والشراب والحديث عن الطقس البديع والربيع والديكة والدجاج وعمال المطاحن والنساء العجائز من الفلاحات وعن الزهور – ان رؤية كل هذه الأمور العادية على هذا القدر من النظام فيها منبه خاص يؤثر فىنا – كما

يؤثر الشعر فينا - على الرغم من أنها مشرقة أو هادئة تماما كما نراها في
الحلاء . وهناك شيء جديد في هذه اللغة التي لا تعتمد على المجاز ، ذلك هو
الجمال الجليل الخالد في الجمل الصادقة التي تتتابع وراء بعضها كالنساء
اللاتي يستعملن غلالة رفيقة فترى من ورائها ملامح الجسم اذا ما سرن

ثم سرعان ما وضعت قدر الماء

الى جوار عتبة حظيرة الثور

عندئذ يطل وجه تشوسر من الخلف كلما أخذ الموكب طريقه في
توافق مع جميع الثعالب والحمير والدجاج ليسخر من أبهة الحياة وحفلاتها
بذكاء ومهارة على الطريقة الفرنسية وفي نفس الوقت يعتمد على قاعدة
عريضة من الدعابة الانجليزية

وعلى هذا قرأ سيرجون كتبه الخاصة بتشوسر في الغرفة التي لا توفر
أية راحة بينما الريح تزار والدخان يتصاعد خافتا ، تاركا قبر أبيه دون
شاهد ولكن لا الكتاب ولا قبر أبيه بقادرين على أن يشغلا باله طويلا
فهو واحد من تلك الشخصيات الغامضة التي تعيش على الخط الفاصل
حيث يلتقى جيل بجيل آخر وهذه الشخصيات ليست بقادرة على أن
تعيش في أى من الجيلين ففي لحظة ينصرف سيرجون بكليته الى شراء
الكتب الرخيصة ، ثم في لحظة أخرى يهرع الى فرنسا قائلا لوالدته « ان
فكري الآن ليس متعلقا بالكتب » وفي منزله حيث تغرق والدته
مارجريت على الدوام في عمل قوائم الجرد أو تفضى بأسرارها الى القسيس
جلويز لا يجد سيرجون الأمن والراحة وكانت الأم محقة من جانبها
وكانت امرأة شجاعة من أجلها يمكن للفرد أن يتحمل وقاحة القسيس
وأن يكظم غضبه عندما يحتدم النقاش ويصبح علنيا وعندما يتبادل كل
من سيرجون والقسيس الصياح « أيها القسيس المتكبر » و « أيها المالك
المتعجرف » ويتملكهما الغضب في الغرفة كل هذا - بالاضافة الى متاعب
الحياة وضعف الشخصية- دفع سيرجون الى التسكع في أماكن اللهو بحيث
لا يعود الى البيت الا متأخرا ويؤجل الكتابة كما يؤجل سنة بعد أخرى
استكمال قبر أبيه .

ومع ذلك فقد مضى اثنا عشر عاما منذ ووري جون باستون الثرى .
وقد أرسل رئيس دير برومهولم كلمة يقول فيها ان كسوة المقبرة أصبحت
في حالة رثة حتى انه حاول ترميمها بنفسه والأشد مرارة من ذلك
- على امرأة لها كبرياء مثل مارجريت باستون - ان القرويين كانوا

يتهامسون بحاجة آل باستون الى التدين وان عائلات أخرى - كما ترامى الى سمعها - ليسوا بأعظم منهم شأنًا ينفقون المال في اصلاح نفس الكنيسة التي يرقد فيها زوجها نسيا منسيا وأخيرا تاب سيرجون وأقبح عن غيه في حضور المباريات وقراءة تشوسر كما هجر خليلته آن هولت وتذكر قطعة من القماش الموشى بالذهب والتي كانت تستعمل في تغطية نعش والده والتي يحسن بيعها الآن ليغطي ثمنها مصاريف مقبرة والده وكانت مارجريت تحتفظ بها في خزانة تدخرها وتحافظ عليها وأنفقت في اصلاحها عشرين ماركا - امتلأت نفسها كمدا لفقدها ولكنه لم يكن هناك بد من ذلك فبعثت بها الى ابنها ولا زال الشك يراودها في نياته أو في صدق نيته في الوفاء بما تعهد به فكتبت اليه تحذره « اذا كنت ستبيعها لغرض آخر فاني - وعهد الله - لن أثق فيك بعد ذلك ماحييت » .

ولكن هذا العمل الأخير - ككثير من الأعمال التي قام بها سيرجون طوال حياته - لم يتم فقد نشب نزاع بينه وبين دوق سوفوك في عام ١٤٧٩ اضطر معه سيرجون لزيارة لندن على الرغم من الوباء الذي كان مستشريًا فيها وهناك وفي المساكن القذرة وللانخراط في المشاحنات والصياح العنيف من أجل المال مات سيرجون وحيدا ودفن في هوايت فرايزر في لندن ، تاركا ابنة غير شرعية وعددا ضخما من الكتب وقبر أبيه الذي ما زال ناقصا

ان الأربعة الأجزاء الضخمة من خطابات باستون قد ابتلعت هذا الرجل الضائع كما يبتلع اليم قطرات المطر وذلك لأن تلك الخطابات - شأنها شأن كل مجموعات الخطابات - تبدو كأنها تشير الى أننا لا نهتم كثيرا بحظ الأفراد فالعائلة ستستمر في البقاء سواء في ذلك أعاش سيرجون أم مات فطريقة هؤلاء الأفراد هي جعل التفاهات تتراكم في كومات من رماد مشئوم في أعداد لا حصر لها من تفاهات الحياة اليومية وهي تمر ثم تتلاشى سنة بعد أخرى وفجأة يصحو هؤلاء الأفراد ويسطح ضوء النهار ويتكامل حيا أمام ناظرينا ففي الصباح الباكر يهمس الرجال في آذان نسائهم وهن يحلبن اللبن وفي المساء تصيح زوجة وارن في فناء الكنيسة في وجه آجنس باستون العجوز « ان شياطين الجحيم تدفع

بروحها الى النار ، • وان الخريف الآن في نورفوك وسيسلي دون (١) يأتي الى سيرجون يثن أو يشكو طلبا للملابس « فضلا عن ذلك يا سيدي فأنتم تدركون أن الشتاء والجو القارص قاب قوسين أو أدنى وأنا لا أملك الا القليل من الملابس التي هي من فضل احساناتكم » هذا هو يوم قديم مر أمامنا ساعة بساعة

وفى كل هذا لم تكن هناك كتابة لمجرد الكتابة لا فائدة من القلم اذا لم ينقل السعادة والترفيه أو أى لون من ملايين ألوان الاعزاز والمحبة والاخلاص التي امتلأت بها الرسائل الانجليزية في ذلك الوقت ومن آن لآخر وتحت تأثير الغضب فقط - فى أغلب الأجزاء - كانت مارجريت باستون تومض ببعض الرأى الحصيف أو اللعنة الحادة « يقطع الرجال أحيانا سيورا كبيرة من جلود غيرهم من الرجال ونحن نضرب فى الأكمت وغيرنا يحصل على الصيد يتعجلون الغنيمة وهى فى قلبى حراب مدببة » هذه هى فصاحتها وتلك هى آلامها ان ابناءها - وهذه حقيقة - يطوعون أقلامهم بسهولة أكثر لارادتهم فهم جامدون عندما يمزحون وهم غلاظ اذا اشتكوا وهم - عندما يتحدثون عن أنفسهم - يعطون صورة كاركاتورية أو بهلوانية تبين غضب القسيس العجوز ولومه الخشن ، ثم يعطون عبارة أو عبارتين بغير تنميق كما تصدر مباشرة فى حديث. مواجه ولكن عندما كان تشوسر حيا ، كان لابد قد سمع بهذه اللغة بالذات ، لغة الحقيقة الواقعة غير المجازية التى تعد أكثر صلاحية للرواية منها الى التحليل وأصدق فى التعبير عن الرزاة الدينية أو الدعابات المختلفة ولكنها لغة جافة عندما تخرج من بين شفاه الرجال والنساء وهم يتبادلون الحديث فيما بينهم وجها لوجه وبالاختصار انه من السهل أن نرى من خلال خطابات باستون لماذا لم يكتب تشوسر لير (٢) أو روميو وجوئييت (٣) وانما كتب حكايات كانتربرى

Cecily Dawn. (١)

Lear. (٢)

Romeo and Juliet. (٣)

ودفن سيرجون وخلفه شقيقه جون الصغير واستمرت خطابات
باستون واستمرت الحياة في باستون كما كانت عليها من قبل يخيم
عليها احساس بعدم الارتياح والافتقار الى القيم مظاهر خلافة تخفى
وراءها الحقيقة العارية فالملابس الفاخرة توارت فيها اجسام قدرة
وقطع الأوبيسون الفاخرة تتأرجح على جدران واهية ، وحجرات نوم تضم
خصوصياتها ورياح تجتاح أرضا لا ظل فيها ولا ماء . وبقيت قلعة
كاىستر عبارة عن أحجار جامدة تغطى ستة أفدنة من الأراضى وظل آل
باستون ذوو الوجوه الجامدة يكنزون الثروات بغير ملل ويجوبون طرق
نوفوك فى مشابرة وشجاعة واصرار وكأنما الفضل المطلق فى أن أرض
انجلترا العارية جرت ماء وظلا وثمارا انما يعود اليهم وحدهم

عندما لا نعرف اليونانية

لا جدوى ولا طائل من وراء الادعاء بمعرفة اليونانية ، اذ اننا في جهلنا بهذه اللغة يجب أن نرضى عن طيب خاطر بأن نكون في المؤخرة طالما اننا لا ندرك رنين الكلمات كما لا ندري متى - على وجه التحديد - يجب أن نضحك اذا كان الموقف يقتضى الضحك أضف الى ذلك أننا لا نعلم كيف كان الممثلون يقومون بأدوارهم والاختلاف كبير بين هؤلاء القوم الغرباء عنا وبيننا لا من حيث الجنس واللسان فحسب ، وانما الى جانب ذلك تفصل بيننا هوة سحيقة من التقاليد والأكثر غرابة أننا نتمنى معرفة اليونانية أو أننا نحاول تعلمها ونحس بأننا مشدودون اليها ونظل في محاولة تكوين فكرة عن معنى اليونانية ومع ذلك فمن ذا الذى يرشدنا كيف نفرق بين الكلمات المتقابلة ومرادفاتها ؟ ومن ذا الذى يحدد لنا أيها أقرب الى المعنى الحقيقى فى اليونانية ؟

ومن الواضح وضوحاً يأتى فى المرتبة الأولى - أن الأدب اليونانى انما هو أدب غير شخصى فبضع مئات السنين التى فصلت بين جون باستون وبين أفلاطون كما فصلت البقاع بين النرويج وأثينا هى التى خلقت فراغاً من الاتساع بحيث لم يقو المد الجارف فى المناقشات الأوروبية على اجتيازه فعندما نقرأ لتشوسر فاننا نرتفع اليه دون أن نشعر فوق تيار حياة أسلافنا الذى نقل اليها تلك الأعمال وأخيراً فكلما كثرت السجلات على الزمن وامتدت الذكريات أصبح من الأندر والأقل أن نجد الشخصية التى ليس لها عوامل ارتباط بغيرها أو بحياتها أو بلغتها بزوجها أو بعائلتها وبيتها ، بأخلاقها وسعادتها وحظها المنكود ومع ذلك بقى الاغريق فى مجال خاص بهم وكان القدر كريماً معهم اذ حماهم من الغلظة ، اننا لا نعلم أكثر من أن أوربدس (١) التهمته الكلاب وأن

Euripides. (١)

اسكيلوس(١) قتل بحجر وان سافو(٢) ألقى بنفسه من أعلى الصخرة
وليس لدينا منهم الا أشعارهم

ولكن هذا ليس كل الحقيقة ولا يمكن أن يكون كذلك فلنختر أية
مسرحة كتبها سفوكليس(٣) ولنقرأ منها

« ان ابنه هو الذى قاد جيوشنا قديما فى موقعة تروى » « ابن
أجا ممنون »

وفى الحال يبدأ العقل فى عملياته الفكرية فيما يحيط بذلك يخلق
العقل خلفية لعالم سفوكليس من النوع الوقتى ويتخيل العقل قرية ما
فى مكان ناء من الدولة يشرف على البحر وحتى فى أيامنا هذه يمكن لمثل
تلك القرية أن توجد فى برارى انجلترا مثلا وبينما نجوس فيها لانملك
الا أن نشعر أن هذه القرية وهذه المجموعة من الأكواخ قد انقطعت عن
الطريق وعن المدنية والطريق والمدنية هما من عناصر الكيان الصحيح
للقرى وها هى الابراشية وبيت العمدة والمزرعة والأكواخ ؛ اما الكنيسة
قهى للعبادة وأما النادى فللمقابلات وأما ملعب الكريكيت فللعب وعلى
ذلك نرى ان الحياة قد برزت ببساطة فى عناصرها الرئيسية فللرجل
عمله وللمرأة عملها كل يعمل لسلامة الآخرين وسعادتهم وهنا فى
هذا المجتمع الصغير - تصبح الشخصيات جزءا من مكونات هذه القرية
ف نجد مثلا ان انحرافات رجال الدين معروفة وان السيدات الراقيات
يفقدن أعصابهن لأتفه الأمور ؛ كما نشاهد مباراة الحداد مع بائع اللبن،
وينبع الحب بين الفتيان والفتيات ليجمع من كل زوجين اثنين هناك فى
تلك القرية خلت الحياة نفس علاماتها ومساريتها منذ أجيال وقامت
عادات وعششت أساطير فوق قمم الجبال والأشجار المنعزلة ولهذا أصبح
للقرية تاريخها وأعيادها ومنافساتها

ان الجو فى بلاد الاغريق هو الذى يستحيل خلقه فى انجلترا فاذا
حاولنا أن نفكر فى سوفوكليس فان علينا أن نزيل الدخان والرطوبة
والضباب الكثيف الرطب المشبع به جونا فى انجلترا وعلينا أيضا أن
نشحن قمم التلال وأن نتصور جمال الصخور والأرض أكثر مما نتغنى

-
- Aeschylus. (١)
Sappho (٢)
Sophocles (٣)
Background. (٤)

بجمال الغابات والمزارع لقد تغيرت الحياة تبعا لذلك ونتيجة للدفع وللشمس المشرقة وصحوة الجو أكثر أيام السنة ولهذا كان الاغريق يقضون حياتهم في الهواء الطلق وترتب على ذلك انهم تناولوا أتفه الأمور بالمناقشة في الطريق وليس في الصالونات ، وما زال أثر ذلك واضحا في ايطاليا وهو أمر معروف لكل من زارها وهكذا صارت الحياة مسرحية ؛ وانطلقت تبعا لذلك ألسنة الناس من عقالها وأوحى اليهم هذا الجو بالسخرية وبالضحك وبالذكاء اللماح وبانطلاقة اللسان وخاصة بالنسبة للأجناس في الجنوب (التي ليس لها ما يقابلها في انجلترا) حيث التحفظ البطيء والأصوات الخافتة والتأمل والتمعن في الحزن الذي يخيم على الناس ان هذا الجو قد دفع الناس في انجلترا الى قضاء أكثر من نصف السنة داخل بيوتهم

تلك هي الصفة التي نلتقى بها في الأدب اليوناني البديهة اللماحة والسخرية وطبيعة البقاء في الهواء الطلق وهذا يبدو واضحا في المناطق العظيمة والبسيطة على السواء . ان الملكة والأميرات في هذه المآسة بالذات لسوفوكليس يقفن على الباب يتبادلن الحديث وكأنهن من الفلاحات - وكما يجب أن نتوقع - يملن الى الابتهاج في الحديث والى تقسيم الجمل الى مقاطع والى الاصرار على التفوق اللفظي

ان مزاج هؤلاء القوم ليس ذا طبيعة جذابة مثل مزاج سعاة البريد عندنا وسائقى سيارات الأجرة ففي تعبيرات الذين يتسكعون عند منعطفات الطريق شيء من القسوة بقدر ما وهبوا من ذكاء ففي المآسى الاغريقية قسوة تختلف تمام الاختلاف عن العنف في الأدب الانجليزي أليس بنتيوس (١) - مثلا - هو الرجل الوقور المحترم الذي أتى بالمهازل فى بكاي (٢) مملكة المخمورين قبل أن يتحطم ؟ وفي الواقع - وبطبيعة الحال - كانت هؤلاء الملكات والأميرات خارج الأبواب يمر عليهن النحل بطينه ويداعب النسيم ملابسهن انهن كن يوجهن حديثهن الى عدد ضخم من المتفرجين الذين يلتفون حولهن فى ذات يوم من الأيام الصحوة من أيام الجنوب عندما تكون الشمس لافحة ومع ذلك فالهواء ثائر وعلى الشاعر عندهم أن يفكر فى موضوعات واقعية مختصرة يعدها الناس، ينقلها فورا وبأسلوب مباشر الى النظارة نظارة قد يبلغون سبعة عشر

Pentheus. (١)

Bacchae. (٢)

ألفا كلهم آذان صاغية وعيون متلهفة مرهفة لا تحتمل أجسامهم البقاء طويلا على وضع واحد اذ تنصلب عضلاتهم لو بقيت بغير حراك انهم في حاجة الى الموسيقى والرقص ولهذا كان من الطبيعي أن يختار الشاعر احدى هذه الأساطير مثل تريزترام (١) وايزيولت (٢) اللذين يعرفهما كل فرد وعلى ذلك يكون فيهما من العواطف الملتهبة شحنة ضخمة وما على الشاعر المحدث الا أن يعيد صياغتها في قصيدة جديدة

فمثلا يتناول سوفوكليس قصة الكترا القديمة ويفرض عليها طابعه الخاص ومع ذلك - وعلى الرغم من ضعفنا واضطراب معاييرنا - ما الذي يبدو لنا واضحا ؟ ان عبقريته في المقام الأول من النوع الفياض وانه يختار القلب الذي اذا فشل فانما يكون فشله ذريعا منذرا بالدمار بغير رفق عندما يتضمن أمورا ليست ذات أهمية أو غامضة ؛ أما اذا نجح فهي تصل الى الأعماق وتلمس شغاف القلوب وتقف أمامنا « الكترا » كما صورها سوفوكليس شخصية متماسكة محكمة لا تخرج عن الخطوط المرسومة لها وكل حركة انما هي تعبير دقيق - ولكنها مقيدة - تنكر على نفسها أى تصرف أو تكرار أو اقتراحات وهي لذلك تكون كالدمية المقيدة بقواعد وأصول كلماتها عندما تتأزم المواقف تجدها في الحقيقة عارية لا معنى لها وما هي الا مجرد أنات يأس أو صيحات فرح أو صرخات كره .

« يا لشقائي ، لقد هلكت هذا اليوم »

« انزع المعطف المزدوج ، اذا كانت لديك الشجاعة »

ولكن تلك الصيحات تعطى الملامح للمسرح وترسم حدوده وبهذه الطريقة - ولكن على درجة كبيرة من الاختلاف - يمكن أن تضع جين أوستن (٣) قصة في الأدب الانجليزي وفي هذه القصة تقول اما (٤)

« سوف أرقص معك »

ان هذه الجملة تطفئ على غيرها ومع أنها ليست أكثر انطلاقا أو أكثر عنفا وهي لا تجذبك لرشاقتها لغويا - فهي تحمل في طياتها كل

Tristram. (١)

Iseult. (٢)

Jane Austen. (٣)

Emma. (٤)

الكتاب وفي كتابة جين أوستن تجد نفس المعنى مع أن القيود أقل احكاما ، ونجد كذلك شخصياتها محكمة مقيدة ببعض الحركات المحدودة .
وهي كذلك - فى نشرها المتواضع اليوم - تختار من الفن الصعب أخطر مسالكة حيث يكون معنى أقل هفوة النهاية الفاشلة .

ليس من السهل أن نكشف السر الذى يعطي صرخات ألكترا كل هذه القوة لتقطع فى النفس وتحز أو تثيرها ولعل السبب فى ذلك يرجع من ناحية الى أننا نعرفها، وأنا نلتقط من اتجاهات الحديث والتواءاته لمحات عن شخصيتها ومظهرها ، وهى النواحي التى أهملتها ؛ ولمحات أخرى عن شيء تعانيه يثير الغضب وهى تستوعبه بكل قدراتها . - كما تعلم هى عن نفسها - « ان تصرفى غير ملائم ولا يناسبنى » لقد طمس الخوف من موقفها على عينها وحقر من شأنها وشهدت فتاة غير متزوجة شرور أمها ففضحتها على الملأ بصيحات عالية مدوية وبعنف ومن ناحية أخرى فإننا نعلم بنفس الطريقة أن كلايتمنسترا (١) ليست شريرة على هذا القدر فهى تقول

« ان الأمم قدرة خارقة »

ولا يجوز أن نصفها بأنها قاتلة عنيفة لا يمكن اصلاحها أو تقويمها وهى التى قتلها أوريسستس (٢) داخل المنزل وكانت ألكترا ترجوه أن يحطمها كلية « اضرب ثانية » ان الذين كانوا يمثلون أمام المتفرجين تحت سفح الجبل كانوا ممثلين حيوية ومهارة وليسوا مجرد صور أو قوالب آدمية من الجبس

انهم لا يؤثرون فينا لمجرد اننا نستطيع تحليل شخصياتهم الى مشاعر . ففى ست صفحات من بروسست (٣) يمكن أن نجد عواطف أكثر تعقيدا وأكثر تغيرا من مسرحية ألكترا بأكملها ولكن فى ألكترا أو فى أنتجون فإننا نؤخذ بشيء آخر ، بشيء أكثر تأثيرا نؤخذ بالبطولة نفسها وبالاخلاص ذاته وعلى الرغم من الجهد والصعوبات ، فإنهما فى ذاتهما هما اللذان يجذباننا الى الاغريق ؛ ان استقرار الانسان الأول وبقائه انما يوجد هناك فالعواطف العنيفة مطلوبة لتدفعه للعمل ولكن عندما

Clytemnestra. (١)

Orestes. (٢)

Proust. (٣)

يحرکه الموت ، أو الخديعة ، أو مصيبة بدائية فان أنتيجون (١) وآجاكس (٢) وألكترا يتصرفون بنفس الطريقة التي نتصرف بها لو أننا صادفنا نفس هذه المثيرات نفس الطريقة التي يسلكها كل انسان ولذلك فاننا نفهمهم بسهولة ومباشرة أكثر مما نفهم شخصيات « حكايات كانتربرى » هؤلاء - أى الشخصيات الاغريقية - هم الأصل وأما شخصيات تشوسر فهي صور متنوعة من الآدميين

والحقيقة - طبعا - ان هذه الصور من الانسان الأصل رجلا كان أم امرأة هؤلاء الملوك الأبطال وتلكم الفتيات المخلصات ، وأولاء الملكات الحزینات وهم أشبه بالعيدان تنبثق من الأرض على مر العصور ، يجمعون أردیتهم بنفس الحركات (بالعادة لا بالدفع الذاتى) انما يبعثون على الملل ويشبطون الهمم وان مسرحيات اديسون(٣) وفولتير(٤) والكثير من غيرهما لخير دليل على ذلك ونكنا (حتى فى مسرحيات سوفوكليس الذى اشتهر بأنه يكبح جماح نفسه ويسيطر عليها كما عرفنا من الدارسين حيث شخصياته على حزم وقسوة ولا يحدون) اذا التقينا بهؤلاء الناس جميعا عند اليونان فاننا نجد أن نبذة من حديثهم قادرة على تلوين محيطات ومحيطات فى المسرحيات المحترمة اننا نلتقى بهم فى اليونان قبل أن تتجمد العواطف فى أنماط واحدة ولسوف نستمتع الى دعاء الكروان فى لغته الأصلية وليس كما كنا نستمتع الى صدهاء يتردد فى الأدب الانجليزى . ولأول مرة سوف نستمتع الى أورفيوس(٥) بمزماره الذى يجعل الوحوش تتبعه كما يتبعه الآدميون أصواتهم تدوى واضحة حادة وسنرى تلك الأجساد النحاسية وقد كساها الشعر وهى تمثل فى ضوء النهار بين أشجار الزيتون انها ليست مرصوفة بوقار على قواعد من الجرانيت فى الطرقات الباردة فى المتحف البريطانى عندئذ وفجأة بين كل هذه الحدة وتحت ضغوط العواطف تبكى ألكترا حتى تبلل وشاحها وتمنعنا من التفكير فيها أكثر من ذلك ثم تناجى الكروان ذاته « ذلك الطائر

Antigone.	(١)
Ajox.	(٢)
Addison.	(٣)
Voltaire.	(٤)
Orpheous	(٥)

مزقه الحزن يا رسول زيوس (١) آه يا ملكة الحزن نيوبى (٢) أنت
في نظرى مقدسة . أنت ؛ التى تبكين دائماً فى لحدك الذى قد من صخر «

وبينما هى تهدىء من شجونها وشكواها تحيرنا ثانية بذلك السؤال
الذى لا جواب له عن الشعر والطبيعة ، ولماذا ، وهى تتحدث الينا تؤكد
كلماتها الخلود والأبدية ؟ ان هذه الكلمات يونانية ولهذا فاننا لسنا
بقادرين على ادراك رنينها انها تتجاهل المنابع الواضحة للانفعال انها
لا تعتمد فى سحرها على المبالغة فى التعبير وهى بغير شك لا تلقى
ضوءاً على شخصية المتحدث أو شخصية الكاتب ولكنها تظل حية لأنها
كلمات تعبر عن شىء ما شىء لا بد له من الخلود

ومع ذلك ففى المسرحية كيف يكون خطيرا هذا الشعر ان الانتقال
من التخصيص الى التعميم أمر تفرضه الضرورة ، ويقف الممثلون بأجسامهم
يلقون الشعر (يميل النظارة الى سماع الشعر أكثر من اهتمامهم بأداء
الممثلين للحركات التعبيرية) ! ولهذا السبب كانت مسرحيات شيكسبير
الأخيرة حيث تزخر بالشعر أكثر مما فيها من حركة أكثر جمالا عند
قراءتها منها عند رؤيتها تمثل، ونكون أكثر فهما بالاستمتاع اليها متغاضين
عن الممثل وحركاته التى تراها العين وقيود التمثيلية غير المحتملة يمكن
التخفيف من غلوائها لو وجدت الوسيلة التى بها يمكن تحرير التعميم
الشعرى من ناحية التعليق لا من ناحية التمثيل بدون التأثير على تسلسل
التمثيلية وهذا هو دور المجموعة (٣) أن المسنين الشيوخ والعجائز
هم الذين لا يقومون بأى دور فى التمثيلية والأصوات التى لا يمكن
التمييز بين بعضها البعض والتى نغنى كما تغرد الطيور عندما تسكن
الريح تلك المجموعة هى التى فى مقدورها التعليق أو التلخيص أو
التعبير عما يريد الشاعر الافصاح عنه أو عن وجهة نظر أخرى يراها المؤلف
على سبيل النقد ان الحاجة الى هذه الأصوات - فى الأدب الخيالى حيث
تفصح الشخصيات عن نفسها وليس للمؤلف دور فيها أى لا تظهر
شخصيته - حاجة ملحة تفرض نفسها وبالرغم من أن شيكسبير قد
استغنى عن المجموعة (الا اذا اعتبرنا ان شخصيات المغفلين والمجانين
تؤدى هذا الدور) فان الروائيين دائماً يخلقون بديلا لها ومن أمثلة ذلك

Zeus. (١)

Niobe. (٢)

Chorus. (٣)

ثكري (١) يتحدث بلسانه بدلا من المجموعة ، وفيلدنج (٢) يخرج من بين الصفحات وقبل أن يرتفع الستار ليخاطب الناس وعلى ذلك ولكي نستوعب معنى التمثيلية فان المجموعة تكون في غاية الأهمية وعلى المرء أن يكون قادرا على أن ينفذ بسهولة الى هذه المجموعة عن طريق أقوالها ، تلك الأقوال التي تصدر على طبيعتها بغير تنميق وتبدو وكأنها تصريحات خارجة عن الموضوع وأحيانا تكون عادية واضحة وذلك لكي يقرر المرء ما اذا كانت تلك الأقوال تتصل بالمرحلية أو لا تتصل ويضعها موضعها من المسرحية ككل

« علينا أن نكون قادرين على النفاذ بسهولة ولكن هذا هو بالضبط ما لا قبل لنا به ذلك انه غالبا ما تطرح المجموعة - بكل غموضها - جانبا وانتظامها ينهار ولكن يمكننا أن نتخيل ان سوفوكليس استعمل تلك المجموعة لا ليحبر عن شيء خارج عن المسرحية ، وانما ليتغنى بمديح فضيلة من الفضائل أو بجمال بعض أماكن أشار اليها في المسرحية . انه يختار ما يريد التعبير عنه ويتغنى بكلونا (٣) البيضاء وكروانها أو بالحب الذي لا تقهره المبارزة وتنمو مجموعاته نموا طبيعيا في مواقف المسرحيات وهي محبوبة شامخة هادئة ولا تغير وجهة النظر وانما تغير من الجو الذي يخيم على المسرحية وفي مسرحيات ايوروبيديس (٤) نجد ان المواقف ليست في ذاتها شاملة ، بل هي تخلق جوا من الريبة ومجالا للافتراض ، ومبعثا على التساؤل ولكننا اذا نظرنا الى المجموعة لكي نزيل هذا الغموض والافتراض والتساؤل فاننا نحار أكثر مما نستفيد - فمرة في مسرحية بكاي (٥) نرى أنفسنا في عالم الشكوك واضطراب النفس ؛ حيث يلوى العقل الحقائق ويغيرها ويجعل مظاهر الحياة العادية تبدو كأنها جديدة مثيرة للتساؤل من يكون باكوس (٦) ، ومن تكون الآلهة وما واجب الانسان نحوها وما حقوق عقله المتقد ذكاء ؟ والمجموعة لا تجيب على هذه الأسئلة أو هي تجيب ساخرة ، أو تتحدث بغموض كما لو كان القالب الروائي السليم قد أغرى ايوروبيديس أن يخل بها لكي يريح عقله من ثقلها ويبدو كأنه يقول لنا « ان الوقت

Thackeray.	(١)
Fielding.	(٢)
White Colonus.	(٣)
Euripides.	(٤)
Bacchae.	(٥)
Bacchus.	(٦)

قصير ولديه الكثير من القول ان لم تسمحوا لي بأن أجمع تصريحين معا في حين انه من الواضح ألا علاقة بينهما وأوكل لكم أن تضعوهما معا ، فان لم تسمحوا لي بذلك يجب أن تكونوا قانعين بمجرد الاطار الخارجى للمسرحية التى أقدمها لكم « هذا هو الحوار وعلى ذلك يعانى ايروبيديس أقل من سوفوكليس وأقل من اسكيليس (١) ويمكن قراءة مسرحياته فى حجرة خاصة أحسن من أن تمثل على سفح الجبل تحت أشعة الشمس ويمكن تمثيل مسرحياته فى العقل وفى استطاعته أن يعلق على أسئلة اللحظة ويمكن أن تنتقل محبته وشعبيته من عصر الى عصر أكثر من الآخرين

فبالنسبة لسوفوكليس، ركزت المسرحيات على الشخصيات وبالنسبة لايروبيديس نستعيز عن المسرحية بومضات من الشعر وأسئلة معلقة دائما وبلا جواب أما اسكيليس فانه يصنع من التمثيليات القصار (٢) مسرحيات عظيمة فهو يطيل كل جملة الى أقصى ما تحتمل ويجعلها سابحة فى بحر من الاستعارات ، ويسخرها فتنتلق على المسرح وفيها روعة ولكن كأنها لا ترى

ولكى نفهم سوفوكليس ليس بالضرورى أن نفهم اليونانية بقدر ما يجب أن نفهم الشعر ومن الضرورى أن نحلق مع الشعر بغير معاونة من الألفاظ وحرفيتها وقد تطلب منا شكسبير ذلك أيضا ذلك ان الكلمات فى تعبيرها عن معنى كبير كهذا لا بد أن تشع وتنفجر بمعناها كعقد نظمت حياته فيبدو جميلا فى مجموعات فى حين ان الكلمة بمفردها من الضعف بحيث تعجز عن التعبير . فانتظام الكلمات فى لمحة سريعة من لمحات العقل يجعلنا ندرك على الفور وبالأحساس الفطرى ما تحمله من معان . ولا يمكن أن تعبر عن هذا المعنى من جديد كلمات أخرى وهناك غموض هو علامة الشعر الرفيع لا يمكن أن ندرك بالضبط ماذا يعنيه هذا الغموض ولناخذ هذا البيت من اجا مهنون على سبيل المثال

« انه يتجه الى افروديتى بنظرات غيظ حاقدة »

ان المعنى المقصود بعيد كل البعد عما تحمله ألفاظ اللغة انه المعنى الذى نحس به - فى لحظات الانفعال العجيب - فى عقولنا بغير

(١) Aeschylus.

(٢) قصة اجامنون Agamemnon. تتكون من ١٦٦٣ سطرا - بينما مسرحية لير

Lear. تتكون من حوالى ٢٦٠٠

كلمات ؛ انه المعنى الذى يقودنا عند دوستويفسكى (١) وهو معقد فى نشره ويزداد تعقيدا بترجمته الى فيض من العواطف الغربية ويشير اليها ولكنه غير قادر على أن يحددها انه المعنى الذى نجح شيكسبير فى ابقائه وقد اكتنفه الغموض

وعلى ذلك فلن يقدم اسكيلس (٢) - كما فعل سوفوكليس - نفس الألفاظ التى يستعملها الناس فى لغة مخاطبهم وانما يعيد ترتيبها فيجعلها - بطريقة غامضة - ذات طاقة عامة وقوة رمزية لا كما فعل أوربيدس من بعده بأن يجمع بين المتناقضات فيزيد من دائرته الصغيرة ويصبح مثل الذى يزيد فى مساحة حجرة صغيرة عن طريق تثبيت المرايا فى الزوايا المتقابلة وبشيء من الجرأة وباستعمال فيض من الاستعارات يزودنا لا بذات الشيء ، وانما بالارتداد والانعكاس اللذين يعتملان فى رأسه فهو اذا يجسم الشيء ويزودنا بالشيء الذى صنع ؛ يزودنا بشيء هو قريب جدا من الأصل حتى كأنه يعرضه بذاته ، وفى الوقت نفسه هو بعيد عنه بالقدر الذى يوصله الى ما يستحق من رفعة ، ويعلى من قدره ويجعله عظيما

لم يكن لأى من كتاب المسرح هؤلاء الحرية التى يتمتع بها الروائيون كما يتمتع بها والى حد ما جميع مؤلفى الكتب المطبوعة ، وهى حرية صياغة معانيهم بلمسات خفيفة لا نهاية لها فهم يصوغون بعناية المعانى التى تتطلب القراءة الهادئة وأحيانا يقتضى الأمر إعادة القراءة مرتين أو ثلاث مرات حتى يدرك القارئ ما غمض منها فكل عبارة تنفجر معانيها كلما طرقت الأسماع وقد تصل الكلمات بطيئة رشيقة ، وقد يكون مضمونها مبهما ولم يكن فى مقدور أرفع الاستعارات وأغناها أن يعوض أجا ممنون حتى ولو حالت الصور وتلميحات أبرع الكتاب وأعظم الزخارف بيننا وبين تلك الصرخة المجردة

« وا أسفاه يا للحسرة ، شيء عظيم ، شيء عظيم »

يجب أن يكون هؤلاء الكتاب مسرحيين مهما كان الثمن

ولكن حل الشتاء بتلك القرى وخيم عليها الظلام والتف سفح الجبل ببرد قارص ولا بد انه كانت هناك أماكن مقللة حيث يأوى اليها الرجال

Dostoevsky. (١)

Aeschylus. (٢)

سواء في بأس الشتاء أو في قائط الحر يجلسون فيها ويشربون ويستلقون في استرخاء ، ويتجاذبون أطراف الحديث ان أفلاطون بالطبع هو الذى كشف عن الحياة داخل البيوت فقد وصف كيف التأمت جماعة من الأصدقاء وتناولوا طعاما ليس بافاخر واحتسوا قليلا من النبيذ ، ثم ألقى شاب وسيم سؤالا أو طرح رأيا ثم تناوله سقراط وقلبه وتمعن فيه ثم اذا به يفصله بمهارة الى عناصره المكونة له ويدل على ما فيه من زيف مما جعل المجموعة كلها تبحث معه عن الحقيقة انها عملية مجهدة فهو يعانى من تركيزه على المعنى الدقيق للكلمات ويحكم على ما يتضمنه كل تصريح ؛ ثم يتتبع عن عمد - وان كان محرجا - الفكرة وان كانت سافلة متغيرة مادامت تقوى وتعظم بالحقيقة هل تستوى المتعة والطيبة ؟ وهل يمكن اكتساب الفضيلة ؟ وهل الفضيلة معرفة ؟ ان العقل المجهد أو الضعيف قد يذهب بسهولة بينما التساؤل المخلص المحايد باق ولكن ما من أحد بمسئطيع - مهما كان ضعيف العقل ومهما يكن غير مستفيد كثيرا من أفلاطون - الا أن يحب المعرفة أكثر وأكثر وبينما تحدث المناقشة وترتقى من درجة الى درجة فان بوتاجوراس (١) يسلم وسقراط يتقدم ولا أهمية كبيرة لما تنتهى اليه المناقشة وانما الأهمية هى بالأسلوب الذى نصل به الى النهاية - ان كل ما يمكن أن نشعر به هو الأمانة الفطرية والشجاعة وحب الحقيقة التى تجذب سقراط ونحن معه فى يقظته حتى تبلغ ذروتها الى حيث ننعيم بأعظم الهناء الذى بلغناه اذا قدر لنا أن نبقى فيها لحظات

ومع ذلك فان تعبيرا كهذا ليس مناسباً لوصف حالة عقل طالب تكشفت له الحقيقة بعد جدال مضمّن فالحقيقة متفرعة وهى تنكشف لنا فى صور مختلفة ولا يمكن ادراكها بالفطنة وحدها وقد قال أفلاطون انه فى ذات ليلة من ليالى الشتاء بينما الموائد قد امتدت فى منزل أجاثون (٢) كانت هناك فتاة تعزف على المزمار وبعد أن اغتسل سقراط ووضع نعليه اذا به يتوقف فى البهو ؛ ويرفض أن يتحرك عندما أرسلوا فى طلبه ثم بدأ سقراط يتحرك وهو يداعب السيبياديس (٣) ويتناول الأخير ربطة الرأس ويلفها حول «رأس ذلك الشخص العجيب» ثم يمجد سقراط ذلك الذى لا يهتم بالجمال المجرد وانما يحترق كل

Potagoras. (١)

Agathon. (٢)

Alcibiades. (٣)

الصفات الظاهرية بدرجة لا يمكن تصورها سواء أكانت تلك الصفات جمالا أم ثراء أم أبهة أم أى شىء آخر من شأنه أن يضاعف من هناء صاحب تلك الصفات بل يعتبر سقراط كل تلك الأمور - كما يعتبرنا نحن الذين نمجدها - لا شىء ان سقراط يعيش بين الناس متخذاً من الامور التي يعجبون بها موضوعات لسخريته . ولست أدري هل رأى أحدكم ذات مرة الصور المقدسة التي فى نفسه أو قلبه عندما يكشف عنها ويميط عنها اللثام حين يكون جادا لقد رأيتها أنا ، وانها لصور غاية فى الجمال، انها ذهبية قدسية عجيبة حتى أن أى أمر يصدره سقراط تجب طاعته كما نطيع صوت الرب ، كل هذا فاض من خلال حوار أفلاطون وضحكاته وحركاته ان الناس تذهب وتجيء ، والزمن يتغير والأعصاب يفلت زمامها والنكات تنطلق مجلجلة ، ثم يبزغ الفجر ، وتبدو الحقيقة فى صورها المتنوعة وهى فى كل صورها أولى بأن نتبعها بكل طاقائنا وهل علينا أن نقضى المسرات بعيدا ونتولى عن الرقة أو نستهن بالصدقة لا لشىء الا لأننا نعشق الحقيقة ؟ وهل يمكن التعجيل بالعثور على الحقيقة اذا أوصدنا آذاننا عن سماع الموسيقى أو لأننا أقلعنا عن احتساء النبيذ أو لأننا ننام بدلا من المناقشة خلال ليالى الشتاء الطوال ؟ اننا لاندعو الى تقييد المعلم فى حيز ضيق ومنعه من الانطلاق ، وانما نسعى نحو الطبيعة المشرقة ، ونقبل على الانسان الذى يمارس فن الحياة على أحسن ما تكون الحياة حتى لا يتوقف شىء عن النمو وحتى تتفاوت الأشياء فيصبح بعضها أكثر قيمة من بعضها الآخر بصفة دائمة

ومن خلال هذا الحوار علينا أن نبحث بكل ما أوتينا من قوة عن الحقيقة . فلأفلاطون - بغير شك - عبقرية مسرحية وهو ينقل اليها بتلك العبقرية وبفنه الأصيل فى عبارة أو عبارتين ماهية التكوين وطبيعة الجو ثم تصبح العبارات بعد ذلك - وفى مهارة فائقة - حوارا نحويا دون أن تفقد حيويتها وعظمتها بل تنكمش لتحمل عبارة ثم اذا هى تطول وترتقى وهى تحلق فى أعلى طبقات الجو التى لا نصل اليها عادة الا بأبعد مقاييس الشعر انه هو ذلك الفن الذى يلعب بنا بطرق عديدة ونصل به الى متع العقل التى لا يمكن الوصول اليها الا عندما نستجمع كل الامكانيات لتشارك بكل طاقاتها جميعا

ولكن علينا أن نأخذ فى اعتبارنا ان سقراط لم يكن ليهتم « بمجرد الجمال » ان الذى كان يعنيه بالجمال المجرى انما هو الجمال الحسى والناس الذين يعتمدون فى حكمهم على السماع - كما كان يفعل أهل

أثينا أى يعتمدون على حكم الأذن وهم جلوس فى الخلاء يشاهدون مسرحية أو يستمعون الى جدال فى ميدان السوق - هؤلاء عندهم من المقدرة أقل مما لدينا على اقتطاع جمل يمكن تذوقها بعيدا عن النص وعلى ذلك فليس هناك جمال - بالنسبة لهم فى كتابات هاردى (١) أو ميريديث (٢) أو فى مآثورات جورج اليوت (٣) فهم يرون انه على الكاتب أن يفكر فى الموضوع ككل أكثر مما يفكر فى دقائقه وتفصيلاته وطبيعى ان الذين يعيشون فى الخلاء لا تستهويهم الشفاه أو العيون وانما الذى يستهويهم انما هو هيكل الجسم وتناسب أعضائه ولذلك عندما نقتطف عبارات من أعمال الاغريق فانما نحطم بذلك أعمالهم ونفسدها أكثر مما يحدث بالنسبة لكاتب الانجليزية ان فى أدب الاغريق عرى من الجمال التفصيلي واقتضاب يؤثران فى ذوق تعود على التعقيد وعلى الكتب المطبوعة والمصقولة وعلينا أن نوسع من أبعاد زوايا تفكيرنا حتى يمكننا أن ندرك الموضوع الخالى من جمال التفاصيل أو الذى يعتمد على قوة الفصاحة فى الاقناع ذوق تعود على النظر المباشر والبعيد أكثر من النظرة الدقيقة المنحرفة ، وكان من الأفضل لهم أن يخوضوا فى العواطف المتلاطمة التى تعمى وتحير عصرا كهصرنا وقدر على عواطفنا - خلال كارثة الحرب الأوروبية الرهيبة - أن تتحطم وأن ندعها جانبا قبل أن نجدها فى الاحساس بها فى شعر أو قصة والشاعران الوحيدان اللذان تعرضا للعواطف تعرضا غير مباشر بل بأسلوب تهكمى هما ويلفريد أوين (٤) وسيجفريد ساسون (٥) ومع ذلك لم يكن فى استطاعتها أن يكون شعرهما مباشرا دون أن يكون فظا ولم يكن فى مقدورهما أن يتكلما ببساطة عن الحب دون أن يكونا عاطفين فى حين ان الاغريق يمكنهم أن يقولوا ذلك « ومع كونهم أمواتا فانهم لم يموتوا » بل يمكنهم أن يقولوا « ان الموت بشهامة جزء هام من العظمة ، وبالنسبة لنا دون سائر الرجال - كان القدر سخيا فى ذلك ، ولنتعجل فى اقامة تاج الحرية فى اليونان فاننا نرقد وقد تملكنا الاعتزاز الذى لا يبلى » نعم يستطيعون أن يسيروا قدما وعيونهم مفتوحة وعندما يتقدمون بخطى لا تعرف الوجل تتوقف الانفعالات وليسمحوا للناس أن يتأملوهم ويعجبوا بهم

-
- | | |
|--------------------|-----|
| Hardy. | (١) |
| Meredith. | (٢) |
| George Eliot. | (٣) |
| Wilfrid Awen. | (٤) |
| Siegfried Sassoon. | (٥) |

ومع ذلك فان السؤال لا زال يلح علينا هل نقرأ اليونانية كما كتبت عندما نقرر اننا نقرأها ؟ ألا نكون مخطئين عندما نقرأ تلك الكلمات القلائل التي نحتت على شاهد قبر أو نقرأ فقرة من أقوال المجموعة (١) أو نهاية أو بداية حوار لأفلاطون أو نبذة لسافو (٢) أو عندما نقدح عقولنا لتفسير بعض الاستعارات العديدة في (أجا ممنون) بدلا من تجريد فرع من أزهاره في الحال كما نفعل بقراءتنا (لير) ألسنا مخطئين في قراءتنا هذه ؟ ألا نفقد بذلك حدة بصرنا في ظلمات التداعي؟ ولا نقرأ باليونانية الشعر الذي لديهم بل ما نحن في حاجة اليه ؟ ألم تتجمع اليونان بأسرها خلف كل سطر في آدابها ؟ انهم يتيحون لنا رؤية الأرض غير منهوبة ، والبحر غير مدنس والنضوج للجنس البشرى المثابر غير مقهور ان كل كلمة تعززها قوة تتدفق من شجر الزيتون ومن المعبد ومن أجسام الشباب ان الكروان يذكره سقراط بالاسم فقط فاذا هو يغنى والأحراش توصف بأنها لم تطأها قدم فاذا نحن نتصور الأغصان المتشابكة وزهرات البنفسج القانية ونجد أنفسنا وقد جذبنا الخيال الى الماضي لنقحم أنفسنا ربما في مجرد صورة عن الحقيقة وليست الحقيقة ذاتها انها يوم من أيام الصيف نتصوره ونحن في قلب شتاء بلاد الشمال ان اللغة هي أهم مصادر العظمة هذه وربما تكون اللغة أيضا أهم سبب في سوء الفهم اننا لسنا بقادرين على أن ندرك كل مرامي الجملة المكتوبة باليونانية كما ندرك الجملة المكتوبة بالانجليزية . فنحن لا نسمعها لأنها تارة تفقد رنينها عند الترجمة وتارة تكون متوافقة فيتوالى الرنين من بيت الى بيت عبر صفحة من الصفحات ونحن لا نقدر أن نلتقط - بغير خطأ - كل هذه الاشارات الدقيقة واحدة بواحدة لا نقدر أن نلتقط تلك الاشارات التي تصنع الجملة فتجعلها لمحة وتبعث فيها الحياة ومع ذلك انها اللغة التي تجعلنا نرسف في العبودية ، انها الرغبة في ذلك هي التي تغرينا دائما بالعودة الى اليونانية . فهناك أولا أحكام التعبير فقد اضطر شيللي (٣) الى استعمال واحدة وعشرين كلمة انجليزية لترجمة جملة يونانية مكونة من ثلاث عشرة كلمة

« على أي حال فان الحب يبعث في نفس الشاعر الوحي والالهام »

Chorus. (١)

Soppho. (٢)

Shelley. (٣)

فقد ترجمها شيللى بقوله (وذلك لأن كل واحد - حتى ولو كان من قبل غير منتظم على الاطلاق - يصبح شاعرا بمجرد أن يلمسه الحب)

ان كل جزء من الدهن قد كشط فأصبح اللحم صرفا صافيا وبذلك وعلى الرغم من قلة ألفاظ اللغة وخلوها من التنميق فانه لا توجد لغة غير اليونانية تتحرك بهذه السرعة وتتراقص وتهز المشاعر على هذا النحو انها فريدة فى تدفق الحياة فيها ومع ذلك فهي محكومة فى حدودها ثم تأتى الكلمات ذاتها التى تكون ، فى كثير من الحالات ، قد استعملناها للتعبير عن الانفعالات مثل « البحر » « الموت » « براعم الزهر » « النجم » ، « الفجر » لناخذ أول ما يصل الى أيدينا صافيا صارما مفرطا ولكي نتكلم بوضوح دون أن يكون ملوثا للاطار الخارجى أو حاجبا للأعماق فان اليونانية هي وحدها المعبرة وعلى ذلك فقراءة اليونانية المترجمة عديم الجدوى ان المترجمين باستطاعتهم أن يمنحونا ترجمات مبهمة ان لغتهم مليئة بالأصداء والتداعى ولقد قال الأستاذ ماكيل (١) « ان الترجمة شاحبة » وكان عصر بيرن جونز (٢) وموريس (٣) قد عاد فجأة وحتى المترجم الماهر ليس بمستطيع التعبير عن رنين الألفاظ ووقعها على الآذان ولا يمكن لأفصح الطلاب أن يحس تذوق اللغة نفسها فمثلا قول اننا أيها المنتحب على القبر الصخرى « ليس معبرا للمعنى مثل وهكذا على القبر الصخرى تذرّف الدموع دائما

وأكثر من ذلك ونحن بصدد الغموض والصعوبات التى تعترض القارىء يبرز أمامنا هذا السؤال متى يجب أن نضحك ونحن نقرأ اليونانية فهناك قطعة من الأوديسا (٤) حيث يغمرنا الضحك ويستولى علينا ونحن نقرأ ولكن لو كان هومير (٥) ناظرا الينا كنا نفكر كثيرا قبل أن نبدأ فى الضحك فالضحك فى الوقت الملائم أمر هام وهو ممكن اذا كنا نستمع الى لغتنا الانجليزية ولكن اريستوفانس (٦) يشد على هذه القاعدة وذلك لأن المرح أمر متعلق ومرتببط ارتباطا وثيقا باحساس

-
- | | |
|---------------|-----|
| Mackail. | (١) |
| Burne-Jones. | (٢) |
| Morris. | (٣) |
| Odyssey. | (٤) |
| Homer. | (٥) |
| Aristophanes. | (٦) |

الجسم فعندما نضحك من نكات ويتشرلي (١) فانما نضحك من ذلك الريفى الحام الذى هو فى الواقع يمثل أسلافنا فى القرية الحضرى فى حين يتوقف الفرنسيون والايطاليون والأمريكيون - الذين هم من سلالة تختلف عنا - عن الضحك تماما كما نتوقف ونحن نقرأ هومر وذلك لكى نتأكد أننا نضحك فى الوقت المناسب وهذه الوقفة خطيرة ولهذا كانت الملحة أولى الملكات التى تفقد طلاوتها عند ترجمتها الى لغة أجنبية وتقتضى من الغريب الوقوف حتى يدرك معانيها فعندما نترجم الأدب اليونانى الى الأدب الانجليزى فان الوقفة تطول وتبدو كأنها دهر طويل وخاصة عندما تنفجر ضحكات من يعرف اليونانية أو من لا يحتاج الى ترجمتها

تلك هى الصعوبات وأسباب الفهم الخاطىء للتشويه وللخيال وللعاطفة فتبدو ذليلة أو متعجرفة ومع ذلك تظل بعض الحقائق ثابتة حتى لدى الجاهلين ، منها أن اليونانية أدب غير شخصى ، وأنها لغة الروائع . وليس هناك مدارس تتبعها ولا مبشر بها ولا وارث لها ولا نستطيع أن نتبع التطور التدريجى الذى يحدث لدى الكثيرين بطريقة غير سليمة ولكنه بشكل أو بآخر يصل الى درجة الكمال فى واحد بعينه . ومرة أخرى ان الأدب اليونانى وهو ذلك الأدب الذى فيه نشاط يخترق العصور سواء كان عصر اسكيلس أو عصر راسين (٢) أو عصر شيكسبير

ان جيلا واحدا على الأقل فى ذلك الوقت الزاخر ينفجر عن كتاب على هذا القدر من النبوغ ، كتاب يصلون بنا الى هذه المرحلة من اللاشعور التى تعنى ان الشعور قد أثير الى أقصى درجة ؛ ويتعدون حدود الانتصارات الصغيرة والخبرة التجريبية العادية ؛ هكذا نرى سافو بمجموعات تشبيهاتها وأفلاطون بتحليلاته الشاعرية الجريئة المتناهية فى شاعريتها وسط النثر ونرى فى كتابات تيوسيديدس (٣) الاختصار والأحكام أما سوفوكليس فيسبح بأسلوبه كما تسبح مجموعة كبيرة من السمك فى رفق وهدوء ، تبدو وكأنها لا حراك بها وفجأة تهتز زعانفها ثم تنطلق ؛ أما فى الأوديسا فليس لنا الا ما يبقى دائما وهو النجاح للقصة فالأوديسا أكثر القصص وضوحا وهى فى نفس الوقت أكثرها خيالا فى تصوير مقدرات الناس نساء ورجالا

Wycherlev. (١)

Racine. (٢)

Thucydides. (٣)

ان الأوديسا مجرد قصة مغامرات فهي تروى قصة طائفة من البحارة ولهذا قد نقرأها بسرعة وبعقلية الأطفال لكي نعلم ماذا سيأتى بعد ذلك . ومع ذلك فليس هناك شىء غير ناضج ؛ فالناس ناضجون ولهم صناعتهم وهم ذوو مهارة وعاطفة كما أن العالم نفسه ليس بالصغير ما دام البحر الذى يفصل جزيرة عن أخرى يمكن أن نعبره بزوارق صنعت باليد وما دام عرض ذلك البحر يقاس بمسافة طيران طائر النورس حقيقة ان الجزيرة ليست كثيفة السكان ، والناس - على الرغم من أن كل شىء يصنع يدويا - ليسوا مشغولين بالعمل بل لديهم من الوقت ما يطور مجتمعا عظيما جدا وضحما ومن ورائه تقاليد قديمة من الأخلاق تلك التقاليد التى تجعل كل العلاقات منتظمة وطبيعية ومليئة بالتحفظ - ونرى ونحن نقرأ ان بنيلوب (١) تعبر الحجرة بينما تذهب تليماكوس (٢) الى النوم أما ناوسيكيا (٣) فتغسل ثيابها وتبدو تصرفاتهن مليئة بالجمال لانهن لا يعرفن أنهن جميلات ، لقد ولدت معهن ميزاتهن ، وهن لا يشعرن بأنفسهن أكثر مما يشعر بها الأطفال وهن يعرفن فى جزرهن الصغيرة التى مرت عليها آلاف السنين كل ما يمكن معرفته ان صوت البحر يملأ آذانهن ؛ وكروم العنب والمراعى وجداول الماء من حولهن انهن يشعرن بقدر قاس أكثر مما نشعر به نحن وهناك حزن يخيم على الحياة توارثه أهل الجزيرة دون محاولة منهم للتخفيف منه انهم يدركون كل الادراك وجودهم فى الظل بعيدا عن العالم ومع ذلك فهم متيقظون لأية رجفة أو ومضة فى الوجود ، هناك فى هذا الظل يعيشون وهم باقون ، واننا لنعود الى الاغريق عندما تفيض نفوسنا بالملل من الغموض ومن الخلط ومن عزاءات المسيحية ومن عصرنا الذى نعيش فيه

Penelope.	(١)
Telemachus.	(٢)
Nausicaa.	(٣)

حجرة عاربات في عصر اليزابيث

ان هذه المجلدات العظيمة (١) يغلب الظن أنها لم تقرأ - ولعل أحد أسباب جاذبية هيكلوت أنه في الواقع ليس كتابا بالمعنى الصحيح بقدر ما هو حزمة ضخمة من الامتعة مضمومة الى بعضها البعض وكأنها ركن تجارى أو حجرة عاديات أو مقتنيات امتلأت بالزكائب القديمة ، وبأدوات بحارة عفى عليها الزمن وبالات ضخمة من الصوف وحقائب صغيرة مليئة بالياقوت والزمرد ان المرء يحل هذه الربطة هنا ثم يأخذ في تصنيف محتوياتها هنا وهناك وينفض التراب عن بعض خرائط العالم الفسيح ثم يجلس في الضوء الخافت يستنشق رائحة الحرائر والجلود الغريبة وعبير العنبر بينما في الخارج تتلاطم أمواج كالجبال في بحر لم تحدد له معالمه في عصر اليزابيث

ذلك لأن هذا الخليط من البذور والحريير وقرون الثيران المتوحشة وأنياب الفيلة والصوف والأحجار العادية والعمائم وقضبان الذهب ، هذه الاشياء المتنافرة - وبعضها لا قيمة له ولا يساوى شيئا على الاطلاق - جاءت ثمرة أسفار وتجارات لا تحصى ولا تعد واكتشافات لأراض مجهولة في عهد الملكة اليزابيث وكان قوام الحملات من الدعامة البشرية فتية ماهرة من غرب الدولة وكان بعض تمويلها على نفقة الملكة العظيمة نفسها . ولم تكن السفن - كما قال فرود (٢) - أكبر من اليخت الحديث وكان الأسطول يتجمع في النهر عند جرينتش (٣) على مقربة من القصر «وكان ايوان العرش يظهر من نوافذ السراي والسفن راسية تطلق مدافعها . . . والبحارة يصيحون ويصل صياحهم الى السماء فيرتد وكأن السماء تردد الرجوع بنفس الصخب » وبينما تتراجع السفن مع الجزر يخرج بحار

(١) ظهر هذا المقال بمناسبة ظهور مجموعة هاكليوت Hakluyt عن رحلاته الاولى وسفرياته واستكشافاته عن الوطن الانجليزى ، وظهرت هذه المجموعة في خمس مجلدات عام ١٨١٠
(٢) Froude
(٣) Greenwich

وراء آخر من أبواب العنابر ويتسلق القلوع ويقف على السطح الرئيسي يلوح لصديق بأخر وداع ان أغلب البحارة لا يعودون من رحلتهم أبداً وذلك لأن انجلترا والساحل الفرنسى كانا وراء الافق وتقلع السفن نحو بلاد غير مطروقة حيث للريح زمجرته وللبحر سبأعه ووثعابينه الضخمة والتبخر المتصاعد بسبب شواظ الجو وللدوامات دويها ولكن مع كل ذلك فان الله قريب والسحب تخفى وراءها السماء في أجزاء متفرقة وأطراف للشيطان تكاد تكون مرئية ومن المؤلفون أن يعقد البحارة الانجليز المقارنة بين الهمم واله الأتراك أى المسلمين فهم يقولون أن اله المسلمين لا تصدر عنه كلمة كئيبة ، ولكنه لا يعين عبده الا بحساب حتى ولو كان فى حاجة اليه . . ولكن مهما يكن الأمر فان الهنا قد أثبت انه اله محق . . « ان الله قريب من البحر كما هو قريب من الأرض . هذا ما قاله سيرهمفري (١) جيلبرت وهو يخوض وسط العاصفة وفجأة خبا احد الاضواء وذهب سيرهمفري جيلبرت تحت الامواج ، وعندما اشرق الصباح بحثوا عن سفينته دون جدوى . كما اقلع سيرهيو ويللوبى (٢) ليكتشف الممر الشمالى الغربى ولكنه لم يعد وأطاحت ريح مضادة بايرل كمبرلاند ورجاله بعيدا عن ساحل كورنول لمدة اسبوعين لعقوا خلالها فى ألم الطين والماء من سطح السفينة وأحيانا يطرق رجل رث الثياب منهوك القوى ، باب منزل فى الريف الانجليزى ويدعى أنه ذلك الابن الذى تركته القرية يقلع من سنوات مضت فى البحر » ويؤكد سيرويليام والده والسيدة والدته أنه ليس بابنهما حتى يجدا العلامة السرية وهى الزائدة الجلدية عند احدى الركبتين ويحمل معه حجرا أسود « معرقا بالذهب أو ناب فيل أو سبيكة من الفضة ويستحوذ على شباب القرية بحديثه وهو يقص عليهم من أنباء الذهب المنثور على الارض كما يغطى الحصى حقول انجلترا ان احدى الرحلات الاستكشافية قد تفشل ، ولكن ماذا لو كان الطريق الى أرض الخرافة - حيث الثراء بغير حساب - يقع على خطوات فقط من الساحل ؟ ماذا لو أن العالم المعروف لم يكن سوى السبيل الى منظر شامل رائع ؟ فبعد الرحلة الطويلة تلقى السفن مراسيها فى النهر العظيم ثم ينطلق الرجال مستكشفين فوق الأراضى الوعرة فتجفل قطعان الغزلان التى ترعى ، ويرون أطراف المتوحشين معلقة على الأشجار ويملئون جيوبهم

Sir Humphrey Gilbert (١)

Sir Hugh Willoughby. (٢)

بالحصى الذى قد يكون زمردا أو قد يكون تبرا من الذهب، وأحيانا يجوبون أرضا غريبة ويرون من بعد طابورا من المتوحشين يهبطون رويدا رويدا نحو الساحل يحملون فوق رؤوسهم أحمالا ثقيلة لملك الاسبان تنوء من تحتها أكتافهم .

تلك هى القصص اللطيفة التى كانت تسرى فى الجزء الغربى من الدولة وتندد «بكفاءة الشباب» وهم يتسكعون حول الميناء ليتخلوا عن شباك الصيد ويسعون وراء الذهب . ولقد كان المسافرون تجارا من صفاتهم الحرص ، ومواطنى فيهم صفات التجار الانجليز الذين طبعت قلوبهم على الخير والسعادة وقد أوضح الربابنة مدى أهمية ايجاد أسواق خارجية لتصريف الصوف الانجلىزى واكتشاف الأعشاب التى منها تصنع الأصباغ الزرقاء ؛ هذا بالإضافة الى البحث عن الوسائل التى تنتج الزيت منذ أن فشلت كل محاولات استخراجها من بذور الفجل كما ذكروا المواطنين ببؤس الفقراء من الانجليز ، الذين دفعهم الفقر الى الجريمة التى جعلت منهم «طعاما يوميا للمشانق» كما أقروا كيف ان تربة انجلترا قد جادت بكنوزها بما استكشفه الرحالة فى الماضى وكيف أن دكتور ليناكر(1) قد استجلب بذور الورد من دمشق وكذا التيوليب وكيف استجلب المواشى والمزروعات والأعشاب التى بدونها لظلت حيا تنابذائية ، كيف أن كل ذلك استجلب لانجلترا من وراء البحار رويدا رويدا . وهكذا أقلع الشباب القادر الى الشمال بحثا عن الأسواق وعن السلع وسعيا وراء الشهرة الخالدة التى تعود عليهم

وترك هؤلاء الشباب وهم صحبة من الانجليز يحيط بهم الجليد وأكواخ المتوحشين من كل جانب لكى يعقدوا ما استطاعوا من الصفقات ولكى يجمعوا من المعلومات ما يجمعون قبل أن تعود اليهم السفن مع الصيف لنقلهم الى أوطانهم وهناك تحملوا العزلة فى صحبتهم الصغيرة ، وكانوا يتحرقون شوقا كلما أرخى الليل سدوله لقد توغل أحدهم حاملا معه خريطة كان قد حصل عليها من الشركة التى يتبعها فى لندن، داخل الاراضى حتى وصل موسكو وهناك قابل الامبراطور «جالسا على عرشه والتاج على رأسه ، ويحمل فى يسه انتاج مجموعة من صياغ الذهب» . ووصفت كل المراسم التى رآها وصفا دقيقا وأول ما استرعى نظر التاجر الانجلىزى هو ذاك الاناء الرومانى الرائع الذى رفع ووضع لفترة تحت ضوء الشمس، وعرض للهواء فرأته ملايين من الأعين التى ارتدت كئيبا متكسرة وهناك على حافة العالم ازدهرت تلك القرون، وأمجاد موسكو وأمجاد قسطنطينية،

ازدهرت دون أن يشعر بها أحد وقد خلعت على الرجل الانجليزي ملابس لهذه المناسبة هي عبارة عن ثلاث سترات من الشمواه الاحمر ، وكان يحمل رسالة من اليزابيث «كتابا كان مزاجه الكافور ، يتضوع بعبير العنبر ومداده من المسك الفياح » وفي بعض الأحيان بدأ المواطنون يتوقون الى الصيد الثمين من العالم الجديد الغريب وكذا الى قرون الثيران المتوحشة وأقراص العنبر ويتشوقون الى القصص اللطيفة عن توائد الحيتان وتداول الفيله والتنين الذي امتزجت دماؤه وتركزت في لون قرمزي وأرسلت عينة جية هي رجل متوحش أسر حيا في مكان ما بعيدا عن ساحل لابرادور(١) ، ثم أرسل الى انجلترا حيث عرض هناك كأي حيوان مفترس . وفي العام التالي أعيد ثم أحضر معه امرأة متوحشة على ظهر السفينة لتشاركه وعندما رأى كل منهما الآخر استحيا ، استحيا من الاعماق بينما البحارة ، وعلى الرغم من أنهم لاحظوا ذلك ، الا أنهم لا يدرون لماذا هذا الاستحيا وبعد ذلك هيا الاثنان سكنا لهما على السفينة المرأة تقوم على حاجات الرجل وهو يمرضها في مرضها ولكن - وقد لاحظ البحارة ذلك أيضا - عاش المتوحشان معا في عفة كاملة

كل أولئك العوالم الجديدة ، والأفكار الجديدة والأمواج والمتوحشون ، والمغامرات وجدت سبيلها - وهذا أمر طبيعي - الى التمثيليات التي كانت تمثل على ضفتي التيمز وكان هناك نظارة يتأثرون بالألوان الجديدة وبالاصوات العالية نظارة يربطون بين

« بارجة صنع قاعها من خشب سيزن(٢) الثمين »

وسقفت بأخشاب أرز لبنان الشامخة »

وبين مغامرات أبنائهم واخوانهم عبر البحار وكان لآل فيرنيز(٣) مثلا ولد شارد انخرط في القرصنة ثم لجأ الى تركيا حيث فتك به الموت هناك وكان قد أعاد الى كلايدون(٤) جزءا من حرائره وعمامته ومتعلقات الحاج لتكون بمثابة مخلفات له وبقايا منه وقد زادت الهوة بين ربات البيوت في نساء باستون(٥) وبين سيدات بلاط اليزابيث ذوات الذوق الرفيع اللائي عندما تتقدم بهن أنسن - كما يقول هاريسون(٦) - « كن

Labrador.	(١)
Sethin.	(٢)
Verneys.	(٣)
Claydon.	(٤)
Paston.	(٥)
Hattison.	(٦)

يمضين وقتهم في قراءة التاريخ أو تدوين المجلدات من «عندياتهم» أو يترجمون أعمال الآخرين الى الانجليزية أو اللاتينية ، بينما السيدات الصغيرات سنا يعزفن على العود أو القيثارة ويمضين وقت فراغهن في الاستمتاع بالموسيقى وهكذا بالغناء وبالموسيقى يظهر في الوجود البذخ الذي يتميز به عصر اليزابيث ، كما تتميز بدرافيل جرين(١) وبالمبالغة وبالاطناب وخاصة عند كاتب أنيق العبارة قوى الاسلوب مثل بن جونسون(٢) وهكذا نجد أن كل أدب عصر اليزابيث موشى بالذهب وبالفضة ، يتحدث عن الاشياء النادرة في غانا ويشير الى أمريكا هذه - أو أمريكتي ! أرضي التي عثرت عليها حديثا والتي هي في الواقع ليست أرضا على الخريطة فحسب ولكنها ترمز الى مناطق الروح المجهولة ولهذا ترعرع خيال مونتيني (٣) في سحر عبر المياه وحول المتوحشين وأكلة لحوم البشر والمجتمع والحكومة

وان ذكر مونتيني يفترض انه على الرغم من تأثير البحر والترحال ومعرض المقتنيات الذي اكتظ بحيوانات البحر والقرون والعاج والخرايط العتيقة وأدوات النوتية اذ ألهم كل ذلك الشعراء فأصبح عصرهم أزهي عصر للشعر الانجليزي فان هذا التأثير - في رأيه - لم يكن صورة في صالح النشر الانجليزي وذلك لأن القافية والاوزان ساعدت الشعراء على أن يتحكموا في ضوضاء ما قد وسعه ادراكهم من تلك المؤثرات ، بينما كتاب النشر وهم غير ملتزمين بهذه الالتزامات ، يجمعون العبارات ويخرجونها في نماذج تتناهي عدا وخطرا وتجبوب وتتعثر في ثنايا المعلومات الفياضة ان النشر في عصر اليزابيث قلما كان يتوافق مع وظيفته ، في الوقت الذي كيف النشر الفرنسي الرائع نفسه بالفعل ويمكن ملاحظة ذلك بعقد مقارنة بين قطعة من كتاب سيدني(٤) «دفاع عن الشعر»(٥) مع قطعة من مقالات مونتيني

« ان الشاعر لا يبدأ بتعاريف غير مفهومة ويملا الهامش بتفسيرات غامضة تثقل على الذاكرة بالشك ولكنه يقدم لك عبارات صيغت في قوالب لطيفة ، قد تصاحبها الموسيقى الممتلئة بالطرب أو قد تكون العبارات قد أعدت لهذا النغم

-
- | | |
|--------------------|-----|
| Greene. | (١) |
| Ben Jonson. | (٢) |
| Montaigne | (٣) |
| Sidney. | (٤) |
| Defense of Pocsie. | (٥) |

وفى القصة مثلا فانه يأتى اليك بقصة «تجذب الاطفال بعيدا عن اللعب وتغرى العجائز بالابتعاد عن المدفأة» وبغير كلفة يحول العقل من الشر الى الخير فالأطفال الصغار يعطون مر الدواء مغلفا بغلاف حلو المذاق هذا المر من الدواء لو أن المر أخبرهم فى بادىء الأمر بطبيعته المرة فانهم سوف يجدون مرارة طعمه فى أفواههم بمجرد أن يطرق اسمه آذانهم حتى قبل أن يصل هذا الدواء الى أفواههم وهكذا الحال بالنسبة للرجال (وأغلبهم أطفال يمكن خداعهم فى أحب الاشياء حتى آخر يوم من حياتهم) يسعدهم أن يسمعوا حكايات هرقل ٠٠ »

وهكذا يجرى الموضوع فى ست وسبعين كلمة أخرى فوق ذلك • ان كتابة سيدنى تسير فى حديث سلس لا تعترضه عقبات ، بل تتخلله ومضات فجائية من الجمال المتمتع والعبارات الجذلة يصلح استخدامها فى العويل والنحيب والأخلاقيات ، كما يصلح استخدامها فى تركيبات طويلة ، ولكنها لم تكن سريعة أو دارجة متداولة ، عاجزة عن أن تحصر فكرة بدقة وبوضوح أو تكيف نفسها لتكون مرنة ومباشرة للهدف ولتغييرات العقل • واذا قارنا ذلك مع مونتينى نجد ان مونتينى سيد متحكم فى آلة يدرك قوتها وحدودها •• آلة قادرة على أن تنفذ الى داخل الشقوق والفجوات مما لا قبل للشعر به ، قادرة على التجويد والايقاع ، ايقاع يخالف ايقاع الشعر ولكنه لا يقل عنه جمالا ، فيها مهارات وحوافز تجاهل عنها النثر كلية فى عصر اليزابيث ان مونتينى يروى الطريقة التى لاقى فيها بعض الغابرين حتفهم

« جعلوا الموت يسيل ويمرق وسط زحمة مشاغلهم التى اعتادوا عليها بين الاصدقاء والرفاق ، ولا حتى كلمة عزاء ولا أية اشارة الى وصية ، ولا تصنع طموح للتماسك ، بغير حديث عن ظروفهم المقبلة وانما يأتى الموت وسط المرح والولائم والحفلات والاحاديث العامة والشعبية والموسيقى وأشعار الغزل » •

وانه ليبدو لنا وكأن حقبة من الزمن قد فصلت بين سيدنى ومونتينى • فمقارنة الانجليزية بالفرنسية كأنها مقارنة بين أطفال ورجال •• ولكن اذا كان لكتاب النثر فى عصر اليزابيث تحرر الشباب من الشكل فانهم يتمتعون أيضا بتجدد الشباب وجرأته ففي نفس المقال صاغ سيدنى لغة بمهارة أستاذ ، وفى يسر كما أراد هو ، وكانت فى

مجازها طوع بنانه بغير كلفة ولكي يصل هذا النثر الى الكمال (وقد بلغ دريدن(١) أقرب درجة من الكمال) يجب أن نقدمه على المسرح مع نمو الوعي الشخصى لدى النظارة . فانه فى المسرحيات وخاصة فى الفصول الهزلية منها يظهر أرق نثر فى عصر اليزابيث ان المسرح كان بمثابة الحصانة التى يجد فيها النثر قدميه ليقف عليهما وذلك لأن الجمهور فى المسرح يلتقى ويطلق « القفشات » اللاذعة ويخلق الحياة ويتبرم بالثرثرة ويتحدث عن الأمور العادية .

كلير الجدرى على وجهها الخريفى ، جمالها المحطم ، لايسمحان لأى رجل بالدخول قبل أن تنتهيا فى هذه الأيام ، وحتى تضع المساحيق ، وتتعطر وتغتسل وتفرك جلدتها ، كل ذلك والشاب ينتظر ، ثم تمطره بقبلاقتها بشفاه غطتها المراهم حتى انتفشت كقطعة من الاسفنج . لقد وضعت أغنية عن الموضوع (أرجوك أن تسمعها)

تغنى الخادمة لا زالت تتألق لا زالت ترتدى ملابسها ثم تستمر ترو وأنا أيضا من جانبى أحب جمال المرأة التى تتألق فى ملابسها قبل أى جمال فى العالم ان المرأة عندئذ كروض رقيق ، لا يضم جمالا واحدا ، بل انها تتغير كل ساعة ، كثيراً ما تستشير مرآتها وتختار أجملها . اذا كانت أذناها جميلتين أظهرتهما ، واذا كان شعرها ناعما ، تركته مرسلا ، واذا كانت سيقانها رشيقة ، ارتدت الملابس القصيرة ، واذا كانت يداها دقيقتين ، كشفت عنهما تمارس أى فن لكى يصلح من صحتها تنظف أسنانها ، تصلح من حاجبيها ، تستعمل المساحيق وتفصح بذلك ولا تنكره .

هكذا يدور الحديث فى مسرحية «المرأة الصامتة» (٢) لبين جونسان، التى تأخذ شكلا معيناً بتدخل المتفرجين وتشحن باصطداماتها بهم وهكذا لا يسمح لها بأن تقف فى حالة ركود أو يزداد حجمها فتصبح رديئة وانما شهرة المسرح ووجود المتفرجين بصفة دائمة يثير روح العداة بالنسبة لهذا الشعور المتزايد بذات النفس ، ذلك التأمل فى العزلة وفى أسرار الروح (الذى يتمتع به الكاتب غير المسرحى) والذى كلما مرث الأعوام

Dryden. (١)

Silent Woman. (٢)

وجدت وسيلة للتعبير ووجدت بطلا في عبقرية سير توماس براون (١) الرفيعة ان أنانيته المتضخمة قد مهدت الطريق أمام جميع كتاب القصة النفسانيين وكتاب السير والكتاب الذين يهتمون بالاعترافات وبالأوجه الغريبة من حياتنا الخاصة انه هو أول من تحول عن الاهتمام بالعلاقات الظاهرية بين الناس الى حياة العزلة في داخليتهم

« ان العالم الذي أهتم به انما هو نفسى انه مصغر لكيانى الذى أراه بعينى أما بالنسبة للجسم فانما هو بمثابة الكرة الأرضية يضم داخله روحى وأحركه لتسليتى وانعاش نفسى »

لقد كان كل شيء غامضا يخيم عليه الظلام كما كان يسير أول مكتشف فى سراديب الأموات يحرك فانوسه ليمزق به ذلك الظلام المخيم

« انى أحس أحيانا وكأن جحيما يستعر فى داخليتى ويعقد ابليس محكمته فى صدرى ودبت الحياة مرة أخرى فى نفس الدنيا »

وفى كل هذه العزلة لم يكن هناك مرشد أو صديق

« أنا فى ظلام دامس وفى عزلة عن العالم أجمع وحتى أقرب أصحابى يرانى وانما فى غير وضوح »

ان أغرب فكرة وأعجب تصورات دارت فى رأسه وهو يقوم بعمله . وهو فى الظاهر يبدو كأعقل انسان وهو يقدر كأعظم ما يقدر طبيب فى نوروش (٢) لقد تمنى الموت، لقد ساوره الشك فى كل شيء . ماذا يحدث لو رحنا فى سبات فى هذا العالم ؟ ان غرور الحياة لم يكن أكثر من مجرد أحلام ، حانة الموسيقى جرس ايف مارى (٣) ، القدر المكسور الذى استخرجه العامل من باطن الأرض انه يقف كمن فقد الحياة اذا سمع تلك الموسيقى أو وقع ناظراه على تلك الأشياء كما لو كان قد طعن بالمنظر الذى انفتح أمام مخيلته

« اننا نحمل فى نفوسنا كل الغرائب التى نبحث عنها خارجنا ففهيها افريقيا وأعاجيبها »

Sir Thomas Browne (١)

Norwich. (٢)

Ave Mary bell. (٣)

هالة من الدهشة تحيط بكل شيء يراه ، انه يدير مشعله ببطء نحو
الزهور والحشرات والحشائش تحت قدميه وذلك حتى لا يزعج شيئاً في
أثناء عمليات وجودها الغامض وبنفس الحوف الممتزج بمنتهى المتعة يروى
اكتشاف صفاته ذاتها وادراكاته . لقد كان كريماً شجاعاً كارهاً للأشياء
لقد كان مفعماً بالأحاسيس نحو الغير غير رحيم بنفسه

« أما عن حديثي ، فهو كالشمس مع جميع الناس وبصورة
ودية مع الخير والشر »

لقد كان يعرف ست لغات وقوانين دول كثيرة وعاداتها وسياساتها
وأسماء الأبراج السماوية ، وأغلب النباتات في بلده ومع ذلك فهو مكتسح
في خيالاته والأفق الذي يرى فيه ذلك المخلوق الضئيل يسير ، عريض حتى
« أظن أنني لا أعرف الشيء الكثير عندما كنت لا أدرك أكثر من مائة (العدد)
ولم أر أبعد من تشيبسايد » (١)

كان سير توماس براون من أوائل كتاب السير انه منطلق ومخلق
في عليائه ثم ينحدر فجأة بدقة محببة نحو تفاصيل جسمه . كان متوسط
الطول - كما أخبرنا - وكانت عيناه واسعتين مضيئتين ، وكان أسمر
اللون لكنه مشرب دائماً بالاحمرار ، انه يرتدي ملابساً ببساطة متناهية
وقلما يضحك يجمع العمالات ويحتفظ بالديدان في علب ، شرح رثة
الضفدع وتحمل رائحة شحم الحوت الكريهة ، انه متسامح مع اليهود
يتكلم عن قبح الضفدع بكلام طيب ، ويجمع بين اتجاه علمي واتجاه متشكك
نحو أغلب الأشياء مع ايمان نفسي بالساحرات وباختصار - كما نقول
عندما لا نتمالك أنفسنا من الضحك من غرائب الناس ونعجب بها كثيراً -
لقد كان شخصية وهو أول من جعلنا نشعر أن أكثر التأملات سمواً
ورفعة في خيال البشر قد صدرت من رجل بالذات ، يمكن أن نجبه . وفي
وسط الخشوع الذي يحيط بالقارورة التي تحتوى رماد المتوفى فاننا
نبتسم عندما يشير الى أن الأحزان تؤدي الى تحجر الجلد - ثم تتسع
الابتسامة فتصبح ضحكا عندما يتكلم عن العظمة الرائعة ، وعماً يدور
بخلد الميديتشي (٢) المقدس من غرائب وما من شيء يكتبه الا ويدمغه
بفطرته حتى اننا ندرك في بادئ الامر عدم نقاوته التي تلتخ الأدب
بكثير من الألوان المتنافرة ومهما حاولنا فانه يظل من الصعب أن نتأكد

وهو حي من الأحياء القديمة في لندن (المترجمة)

Cheapside. (١)

Religio Medici. (٢)

مما اذا كنا ننظر الى رجل أم الى كتابته • نحن الآن نحلق مع خيال رفيع •
فاذا ما تركنا سيرتوماس براون الى هيكلوت نجد أنفسنا نطوف في أرجاء
غرفة من أحسن غرف المقتنيات في العالم غرفة قد ملئت من الأرض
الى السقف بالعاج والحديد القديم والقذور المكسورة وقارورات رماد
المتوفين وقرون الثيران المتوحشة ، والأواني الزجاجية الساحرة المليئة
بالضوء الزمردى والغموض الأزرق فالأول يبحث في أعماق النفس
ويكشف غموضها وغرائب مكنوناتها بينما الثاني يبحث في أعماق أفريقيا
ويكشف عن غرائب تلك البقعة من العالم ونفائسها

ملاحظات على المسرحية في عصر اليزابيث (١)

ظهرت كتابات كثيرة على درجة عالية من السمو في الأدب الانجليزي ، وأغلبها عن الأحرار والأدغال والبراري التي هي قوام المسرحيات في عصر اليزابيث . ولأسباب كثيرة - وليس هنا مجال فحصها - يتميز شيكسبير الذي ظلت الأضواء مسلطة عليه منذ أيامه حتى أيامنا هذه والذي يحتل مكانه في القمة عندما ينظر اليه من مستوى معاصريه ولكن بالنسبة للمسرحيات التي كتبها كتاب الدرجة الثانية من عصر اليزابيث مثل جريرن (٢) وديكر (٣) ، وبيل (٤) وتشابمان (٥) وبومونت (٦) وفليتشر (٧) - نلاحظ أن المغامرات في تلك القفار بالنسبة للقارئ العادي انما هي محنة وتجربة لا تستهويه ، وتلج عليه بالاستفسارات وتدفعه الى التشكك فهي تسعده تارة بالمتعة ثم اذا به تارة أخرى يضيق بها ذرعا وذلك لأننا على استعداد لأن ننسى ونحن أميل

(١) ان فرجينيا وولف في هذا المقال انما تتعرض الى النقط الاساسية التي تعتمد عليها المسرحيات التي تكتب للجمهور والتي تعتمد اثارته فيستجيب لها مباشرة ثم تقارن بينها وبين تلك التي يكتبها المؤلف وهو جالس الى مكتبه ، يكتب لمجرد الكتابة ولا يضح في حسابه الجمهور الذي يخشاه مؤلف المسرحية ويدرك أهميته ولذلك وصفت الاولى بالانعزالية ثم هي تقارن بين القصة وبين المسرحية وتناقش الأسس الفنية في كل منهما

Greene. (٢)

Dekker. (٣)

Peele. (٤)

Chapman. (٥)

Beaumont. (٦)

Fletcher. (٧)

الى أن نقرأ الروائع وحدها لعصر مضى (وهذا ميل طبيعي) الى أى مدى بلغت القوة التي يفرض بها هذا الأدب نفسه وكيف أنه لا يسمح لنا أن نقرأه فى سلبية أو دون تعمق ذلك أنه يأخذ بمجامع عقلنا وقلبنا ويكاد يقرأ ما فى خلدنا ويضعه أمامنا وأنه لا يعبأ بآرائنا ويناقش المبادئ التي تعودنا أن نأخذها قضية مسلمة ، وفى الواقع ان هذا الأدب يدفعنا الى رأيين ونحن نطالعه - حتى ولو كنا نستمتع بالقراءة - أما أن ترفع راية التسليم واما أن نتمسك برأينا

عندما نبدأ فى قراءة مسرحية من مسرحيات عصر اليزابيث نرى التناقض الغريب يصدمننا ، التناقض بين وجهة نظر ذلك العصر عن الواقع وبين وجهة نظرنا نحن عن هذا الواقع ان الحقيقة التي نشأنا عليها وكبرنا بها وتعودناها - بصفة عامة - تقوم على حياة فارس يدعى سميث ووفائه . وورث هذا الفارس والده فى مهنة الأسرة مستوردين للأخشاب وتجاراً فيه ومصدرين للفحم ، فارس معروف فى الدوائر السياسية والكنسية والدوائر ذات السمعة الطيبة ، قدم الكثير لفقراء ليفربول ومات يوم الأربعاء الماضى من التهاب رئوى عندما كان يزور ولده فى مازويل هيل (١) هذا هو العالم الذى نعرفه ، هذه هى الحقيقة التي يعمل شعراؤنا على ايضاحها والقاء الضوء عليها ثم نفتح أول مسرحية تصل اليها يدنا من مسرحيات عصر اليزابيث ونقرأ .

رأيت ذات مرة

فى رحلاتى خلال أرمينيا

ثوراً وحشاً هائجاً بكل قواه

يجرى وراء صانع بأقصى سرعته

كان يرقبه ليحصل على الكنز الذى يحمله فوق رأسه

وقبل أن يتسلق الشجرة ليحتمى بها

وخزه بالقرن الثمين فأسقطه على الأرض

أين سميث ؟ اننا نتساءل ، أين ليفربول ؟ وحتى أحراش مسرحيات عصر اليزابيث يتردد صداها ، أين ؟ ان الانشراح هو أثنى شيء ، وأسمى

مراتب الراحة فى امكان التجول بحرية فى أرض الثور الوحشى ومع الصائغ وبين الدوقة والدوقات جونزالوس (١) وبلليمبيرياس (٢) الذين أمضوا حياتهم فى القتل والدسائس وهم يرتدون ملابس الرجال اذا كن من النساء أو يرتدون ملابس النساء اذا كانوا رجالا يرون أشباحا ويصابون بالجنون ويموتون نتيجة للتمادى فى الاسراف لآتفه اثاره ويطلقون اللعنات فى انفعال شديد وهم يبكون أو يقعون فى يأس مميت ولكن سرعان ما يتساءل الصوت الخافت الذى تجرد من أية رحمة - ذلك الصوت الذى اذا أردنا أن نتعرف عليه فلا بد أن نفترض أن قارئنا بالذات قد أروضع الأدب الانجليزى الحديث والأدب الفرنسى والأدب الروسى ، ويتساءل هذا الصوت لماذا ، وعلى الرغم من هذه المؤثرات والسحر - لماذا ظلت هذه المسرحيات القديمة باقية على مدى الزمن ثقيلة غير محتملة ؟ أليس ذلك هو الأدب اذا كان عليه أن يجعلنا متيقظين طوال الفصول الخمسة أو الأبواب الاثني والثلاثين ؟ أفيكون قائما ومؤسسا على سميث عندما تطأ قدمه ليفربول ثم يبتعد بنا ماشاء له البعد عن الواقع ؟ اننا لسنا على هذا القدر من البساطة لكي نعتبر أن رجلا لمجرد أن اسمه سميث وأنه يعيش فى ليفربول يصبح بهذا وحده « واقعا » واننا لنعلم يقينا أن لهذا الواقع صفات احرباء فيصبح الخيال الذى نألفه ونحن تكبر مع الأيام - أقرب الى الحقيقة ويصبح العقل والحجا أبعد عنها ولا شىء يؤكد عظمة الكاتب أكثر من قدرته على التحكم فى منظر المسرحية - بعد أن يتمكن من اعطائها من اللمسات ما قد يظهر ذبذبات السحاب وخيوط الذرات الرفيعة التى تظهر فى عامود الضوء من أشعة الشمس عندما تدخل من احدى الفتحات .

ويدور جدالنا حول وجود موقف معين فى مكان ما حيث يرى سميث ليفربول فى أبهى وضع لها ، والفنان الكبير هو ذلك الرجل الذى يعرف أين يضع نفسه فى تتابع المناظر ، واذا كان عليه ألا يغيب عن ليفربول فانه يجب عليه ألا يراها من زاوية خاطئة . ان كتاب عصر اليزابيث يشقلون علينا ، فأبطالهم دائما من الدوقة ، وليفربول عندهم جزر خرافية وقصور فى جنوا وبدلا من الاحتفاظ بالتوازن فى الحياة فانهم يحلقون أميالا فى السموات العلا حيث لا شىء يرى لساعات طوال غير سحب، وكأنها أرواح عربيدة وقطاع من السحاب ليس فيه ما يرضى عين الانسان انهم يشقلون علينا كذلك لأنهم يخنقون خيالنا بدلا من شحذه للحركة

Gonzaloes. (١)

Bellimperias. (٢)

وعلى الرغم من أن المسرحية قوية فان الملل الذي تبعته من نوع يختلف كل الاختلاف عن الملل الذي تسببه رواية من القرن التاسع عشر كروايات تينيسون (١) أو هنرى تيور (٢) وتضارب الصور وطلاقة اللسان العنيفة تتخمد وتشبع ولكنها تبدو مع ذلك كأنها مرسومة بقوة مثلها في ذلك كمثل النار الهزيلة تتأجج وترتفع ألسنتها ونحن نغذيها بورق الجرائد (٢) وهناك على أسوأ الأحوال صياح متقطع نشط يعطينا الاحساس - ونحن جلوس في المسرح على المقاعد المريحة الهادئة - بهرج سائس الخيول ، وصياح بائعات البرتقال وهم يرددون جملا من المسرحية أو يطلبون اعادتها ويصفرون ويصفقون اعجابا وتقديرا . بينما نرى بوضوح أن المسرحية في عصر فيكتوريا كانت تكتب داخل الكاتب وتسيطر عليها دقات الساعة وتحكمها الأسس والقواعد في الكتب التي تشكل صفوف المكتبة وذلك دون صفيق أو تصفيق ولذلك فلا تحرك تلك المسرحية مشاعر المشاهدين أو تثيرها كما فعلت مسرحية عصر اليزابيث بكل ما فيها من عيوب ومساوىء ان الاسهاب والبلاغة ينطلقان من بين سطور المسرحية وتسرع الى الوجود وتصل الى نفس المتعة الموسيقية والغزارة وعدم التوقع التي يحققها الكاتب الذي يجلس متعمدا الى مكتبه لكي يكتب لنا مسرحية وفي الواقع ان الانسان ليشعر أن نصف عمل المسرحي في عصر اليزابيث انما قام به المتفرجون

وفي مقابل ذلك علينا - على كل حال - أن نبين الحقيقة الواقعة وهي ان التأثير في المتفرجين أمر غير مرغوب فيه ومن أوليات هذا التأثير أن المسرحية قد تفرض علينا القصة أى التسلسل المتتابع للحوادث التي لا يحتمل وقوعها ولا تستساغ عقلا ، وهي القصة التي أرضت نفسية جمهور من غير المتعلمين من السهل التأثير عليه خاصة وهو موجود فعلا ودائما في المسرح ، هذا التسلسل لا يحدث سوى تشويش واجهاد للقارئ الذي ينصرف بكليته الى القراءة ومما لا شك فيه أن شيئا لا بد أن يحدث ؛ ومما لا شك فيه أيضا ان المسرحية التي لا شيء يمكن أن يحدث فيها بالفعل هي مسرحية مستحيلة ومن حقنا أن نطالب - طالما أثبت الاغريق ان ذلك ممكن - بأن ما يحدث لا بد أن يكون له نهاية .

Tennyson. (١)

Henry Taylor. (٢)

(٣) وتشير الكاتبة بذلك الى هزال الموضوع وضعف الفكرة وتفكك العقدة مع جدالة في العبارة ورسالة في القول وقوة في اللغة فالنار الهزيلة نغذيها بورق الجرائد وترتفع ألسنتها وتتأجج نارها ومع ذلك تظل غير قادرة على انتاج شيء (الترجمة)

وأن يكون فيما يحدث ما يثير مشاعر عظيمة وان توجد مناظر لا تنسى تدفع الممثلين لأن يقولوا ما لا يمكن أن يقال بغير هذا المؤثر لا يمكن لأى فرد ألا يتذكر الحوادث فى رواية أنتيجون (١) « وذلك لأن ما حدث انما هو متصل اتصالاً وثيقاً بعواطف الممثلين ولذلك نتذكر الحوادث والشخصيات معا وفى نفس الوقت ولكن هل يستطيع أحد أن يذكر لنا ما حدث فى « الشيطان الأبيض (٢) » أو «مأساة العذراء» (٣) الا بتذكر القصة (٤) بعيدة عن العواطف التى أثارها؟ أما بالنسبة للروائيين الذين هم فى المرتبة الثانية فى عصر اليزابيث أمثال جريرن (٥) وكيد (٦) فان عقد رواياتهما عقد عظيمة ، والعنف الذى تتطلبه تلك الحوادث عنف مروع حتى ان شخصيات الممثلين أنفسهم تنمحي فلا نذكرهم أما العواطف التى تستحق فى عرفنا - على الأقل - الاختبار الدقيق والتحليل السليم فهى تزول بدورها وتنمحي تماما من صفحات الرواية . والنتيجة لا مفر منها وباستثناء شيكسبير وربما بن جونسون فانه لا توجد شخصيات فى مسرحيات عصر اليزابيث وانما مجرد عنف لا ندرى عنه الا الشئ القليل لدرجة اننا لانعبأ بما سيحدث لهم . ولناخذ أى بطل أو بطلة فى هذه الروايات المبكرة مثل بليمبريا (٧) فى «المأساة الاسبانية» (٨) فهى ستؤدى الغرض مثلها كمثل أى بطلة أخرى وهل نقول بأمانة اننا نهتم أقل اهتمام بالسيدة التعسة التى عانت كل صنوف المآسى البشرية لكى تقتل نفسها فى النهاية؟ والجواب اننا لا نهتم بها بأكثر مما نهتم بمقشة فيها حياة فاذا ما تعلق الأمر فى الأدب بحياة الناس رجالا ونساء فانه اذا ما طغى العنف وممرت حوادث غير معقولة يصبح العمل معيبا ولكن المأساة الاسبانية تعتبر عملا فجأ لرواد المسرح وترجع أهميتها الرئيسية الى أنها أعمال بدائية أظهرت الاطار الفج الذى يمكن أن يتولاه كتاب المسرح عظماء الشأن

Antigone. (١)

White Devil. (٢)

The Maid's Tragedy. (٣)

(٤) هاتان الروايتان من روايات القرن التاسع عشر وهى التى وصفتها المؤلفة بأنها روايات كتبت للقراءة وليسست لتمثلها على المسرح ولذلك فهى بعيدة عن اثاره أى انفعال كما هى بعيدة عن مؤثرات الاخراج المسرحى (الترجمة)

Greene. (٥)

Kyd. (٦)

Bellimperia. (٧)

The Spanish Tragedy (٨)

بالتطوير والتعديل وكما تقول مدرسة ستندال (١)، وفلوبير (٢) ان
فوررد عالم نفساني ومحلل ، هذا الرجل كما قال السيد هافيلوك اليس (٣)
« يكتب عن النساء لا ككاتب مسرحي ولا كمحب وانما كشخص تفحص
حانياً وأحس بوجودان فطري شغاف قلوبهن

ان مسرحية للأسف انها عاهرة « (٤) - التي يقوم عليها الحكم
أساسا تعرض علينا طبيعة أنابيللا (٥) كاملة منسوجة من قمة رأسها الى
أخمص قدميها من مجموعة هائلة من التقلب فأولا يبثها أخوها غرامه ،
ثم اذا بها تعترف بعشقها اياه ، وبعد ذلك تجد نفسها ومعها طفل منه
ثم هي بعد ذلك تجبر نفسها على الزواج من سيرانزو (٦) ، ثم أخيرا تجد
نفسها تتوب وفي النهاية تقتل ويكون قاتلها أخوها وعشيقتها

ان تتبع فحص هذه المشاعر التي يمكن أن نتوقع أن تولدها مثل
هذه الأزمات والمشاكل في امرأة كفيف بأن يملأ مجلدات ولكن المؤلف
المسرحي ليس لديه بالطبع مجلدات لكي يملأها بل انه مضطر للاختصار
وعلى الرغم من ذلك فانه يلقي الأضواء ، وفي امكانه أن يكشف لنا بما فيه
الكفاية لكي يجعلنا نخمن الباقي ولكن ما الذي نعرفه - بغير استعمال
مجهر أو تفتيت الأجزاء - عن شخصية أنا بيلا ؟ اننا اذا تحسنا هذه
الشخصية فاننا يمكن أن نخرج بأنها فتاة دائبة الحركة ، امتلأت نفسها
ازدراء بزوجها منذ أساء استغلالها ، واستغل قدرتها على أداء الأغاني
الايطالية ، ونكتتها الحاضرة ، كما استغل فيها ميلها لممارسة الحب وأنما
لا أثر للأخلاق - كما نفهمها - في شخصيتها اننا لا ندرى كيف وصلت
الى هذه النهايات فهي قد وصلت اليها هكذا لم يصفها مخلوق انها
دائما في قمة انفعالها ولم تكن مطلقا عند بدايته قارنها بأنا كارينينا
للكاتب الروسي تولستوى ان المرأة الروسية مخلوقة من دم ولحم وأعصاب
ومزاج لها قلب وعقل وجسد وتفكير بينما الفتاة الانجليزية سطحية
خام كالوجه المرسوم على أوراق اللعب ، ليس فيها عمق ، ولا حدود ولا
تعقيد . واذ نقول ذلك فاننا ندرك اننا فقدنا شيئا لقد سمحنا لمعاني
المسرحية أن تفلت من بين أصابعنا لقد تجاهلنا الانفعال الذي سبق اثارته

Stendhal. (١)

Flaubert. (٢)

Havelock Ellis. (٣)

Tis Pity She's a Whore. (٤)

Annabella. (٥)

Seranzo. (٦)

لأنه أثير فى أماكن لم نكن نتوقع أن نجد فيها الاثارة اننا بذلك نقارن المسرحية بالنثر ، والمسرحية على الرغم من كل هذا شعر

ان المسرحية شعر - كما نقول - والقصة نثر ولنحاول أن نزيل التفاصيل ولنضع الاثنتين جنباً الى جنب أمام ناظرينا لكي نحس - على قدر ما نستطيع - بالزوايا والأبعاد لكل منهما ونستعيد كلا منهما لأبعد ما فى طاقتنا ككل . وعندئذ تبرز دفعة واحدة نقط الاختلاف الرئيسية ، القصة التى جمعت فى وقت طويل من الراحة والمسرحية القصيرة المختصرة كل الانفعالات تفتت وتشتت ثم نسجت معا بطيئة وتجمعت تدريجياً فى وحدة هى القصة أما الانفعالات فى المسرحية فهى مركزة وعمامة وتبلغ الذروة فيها أى لحظات من التركيز وأى عبارات عن الجمال الغريب تلقى بها المسرحية الينا

أوه سيدى

أنا لم أخدع الا عينيك بايماء عتيقة
عندما يجيء خبر مباشر يترى وراء غيره
عن الموت والموت والموت ! ومع ذلك فأنا أتقدم راقصا

أو

لقد تعودت أنت تلك الشفاة
زهرة الكاسيا المهجورة أو الحلوى الطبيعية
أو بنفسج الربيع الذى لم يذبل بعد
وبكل ما أوتيت أنا كارينينا من واقع فانها لا تستطيع أن تقول
« لقد تعودت تلك الشفاة »
« الكاسيا المهجورة »

ان بعضاً من المشاعر الانسانية العميقة أبعد من أن تصل اليها
ان العواطف المتأججة ليست لكاتب القصة ، ان تزاوج الحواس الصحيح
والسليم ليس له ، عليه أن يروض اندفاعه الى كسل ، وأن يثبت عينيه على
الأرض وليس فى السماء يوضح بالوصف ولا يكشف بالقاء الضوء ، وبدلاً
من أن يغنى

ان اكليلا من الزهور يغطى نعشى

الذى صنع من شجرة الحزن والشؤم

والعدارى حاملات أفرع الصفصاف

يقلن أنى مت حقاً

فعلية أن يحصى زهور الكريزانتيم الذابلة فوق القبر والحانوتية
الذين تهدج صوتهم وهم يمرون بعرباتهم • كيف يمكن إذاً أن نقارن هذا
الفن الخليط البطيء فى القصة بالشعر ؟ ان القصاص قد ضمن تلك
المهارات الدقيقة والرشاقة الحفيفة التى عن طريقها يجعلنا نتعرف على الفرد
ونفهم الواقع بينما الكاتب المسرحى يذهب أبعد من الفرد ويفصله عن
العالم لا ليرينا أنابيللا وهى تحب وانما ليرينا الحب نفسه ، ولا ليرينا
أنا كارينينا وهى تلقى بنفسها تحت عجلات القطار بل ليرينا الدماء
والموت

الروح سفينة يلعب بها الريح فى يوم عاصف

تتقاذفها وتدفعها لمصير مجهول

ولذا يحق لنا أن نعجب من نفاذ الصبر – وان كان مقبولاً – ونحن
ننتهى من مسرحية من مسرحيات عصر اليزابيث ولكن ما هو إذاً العجب
الذى يسيطر علينا بعد أن ننتهى من قراءة قصة « الحرب والسلام » ؟ ليس
تعجباً مصحوباً بخيبة أمل على كل حال ، اننا لا نترك الكتاب ونحن ننعى
السطحية أو ننحى باللائمة على تفاهة فن القصة بل اننا نجد أنفسنا أكثر
ادراكاً بالغنى الذى لا حد له للاحساس البشرى فى المسرحية نتصل
بالعموميات وفى القصة نتعرف على الخصوصيات فى المسرحية نجمع كل
نشاطنا ونركزه فى نبضة • أما فى القصة فاننا نتوسع ونمتد وتتسرب
فيها تسرباً هيناً فى كل النواحي الانطباعات التى يقصدها الكاتب
ورسالاته المتجمعة • ان العقل متشبع بالاحساس واللغة عاجزة عن التعبير
عن خبرات العقل ، حتى انه – بدلاً من أن نقوم صورة من صور الأدب أو
نحكم عليها بالنقص بالنسبة الى غيرها – فاننا نشكو من أن صور الأدب
هذه ما زالت غير قادرة على مواجهة المادة الغريزية ، ومنتظر – وقد نفذ
صبرنا – خلق ما قد يفلح فى اراحتنا من العبء الثقيل للأفكار التى لم
ينجح بعد الأدب فى التعبير عنها

ومع ذلك ، وعلى الرغم من السخافة والاسهاب والبلاغة والحلط
فاننا مازلنا نقرأ الأدب الذى لم يأخذ الطابع الكامل لأدب عصر اليزابيث
ولا زلنا نجد أنفسنا نغامر ونتوغل فى أرض تاجر المجوهرات ، والجاموس

الوحشى لقد تلاشت المصانع المألوفة فى ليفربول فى الهواء وقلما نتعرف على أى تشابه بين الفارس الذى استورد الاخشاب ، هذا الذى مات من التهاب رئوى فى مازويل هيل وبين الدوق الأرمينى الذى سقط - « كبطل روماني » - على سيفه بينما تنعق البوم على شجرة اللباب وبينما تضع الدوقة مولودا « وسط النساء المولولات » لكى نجوب تلك الآفاق ونتعرف على نفس الشخصية فى صورها المختلفة علينا أن نسوى كل حالة وأن نراجع معلوماتنا عن المسرحية فى عصر اليزابيث مع اجراء التغييرات الضرورية من زواياها الصحيحة التى صورت من نسيج من الاحساس الذى طوره المحدثون فى روعة ، ويجب علينا أن نعتمد على الأذن والعين - وقد أهملها المحدثون اهمالا تاما - حتى نسمع الكلمات كما كانت تدوى والضحكات كما كانت تنطلق لا كلمات مطبوعة بحروف سوداء على كل صفحة لنرى أمام ناظرينا تعبيرات الوجه والأجسام الحية للانسان وباختصار ضع نفسك - فى وقت ذلك العصر - ولكن لا على درجة بدائية تختلف كثيرا عن زاوية قراءاتك ، عندئذ ستظهر مزايا المسرحية فى عصر اليزابيث وتؤكد وجودها ان قوة أدبنا فى مجموعته لا ينكرها أحد وكذلك أدبهم اذ كانت الكلمات تصاغ فى عبقرية وكان الأفكار تغوص فى بحر الكلام ثم تخرج منه والكلمات تتساقط من حولها وفى أدبهم روح دعابة عريضة تعتمد على الجسم العارى ، والتي مهما حاول الناس ادراكها فليسوا بقادرين مادام الجسم الآن قد اكتمل غطاؤه ومن وراء كل هذا فان ما نسميه ، باختصار ، بالاحساس بوجود الآلهة لا يفرض وحدة الأدب وانما يحقق له نوعا من الاستقرار ولسوف يكون ناقدا شجاعا ذلك الذى يحاول أن يضع كل هذا الحشد المتنوع من كتاب المسرح فى عصر اليزابيث تحت أى مذهب من المذاهب ومع ذلك فاننا نشعر بالحجل اذا سلمنا بأن أدباً برمته وبشخصياته المألوفة انما هو مجرد تصعدات لأرواح عالية ، ووسيلة للكسب ، وافاقة عقل - تبعا لظروف موالية انتهت بالنجاح - فحتى فى الأدغال وفى البرارى فان البصلة لا تزال تعمل

يا الهى يا الهى كم أتمنى أن أكون ميتا

انهم سيكون دائما

ان الموت الطبيعى بغير عنف

توأم للنوم اللذيذ الهادئ

ان منظر العالم رائع ولكنه فى نفس الوقت مليء بالغرور

ان المجد بالنسبة لعظمة البشرية كالأحلام الجميلة

سرعان ما تتلاشى الظلال على خشبة المسرح

وعلى خلودي وشبابي مثلت

صوراً من الغرور

أن يموتوا ، وأن يظلوا في هدوء ، ذلك هو منتهى آمالهم ، ان الأجراس
التي تدق خلال المسرحية انما هي نواقيس الموت وزوال الوهم ونور
البصيرة

انما الحياة تجوال للبحث عن المأوى

وعندما نرحل عن الدنيا نجد ذلك المأوى

الفناء والملل ، والموت ، والموت دائماً يقف بصلافة ليواجه الصورة
الأخرى من المسرحية في عصر اليزابيث وهي الحياة الحياة تضم الطيور
الاستوائية وشجر الأرز والعاج والدرفيل ورحيق زهور شهر يولية ولبن
الجاموس الوحشي وتنفس النمر والحبال واللؤلؤ ومخ الطاووس وخمر
كريت عن هذا هم يقولون ويصفون الحياة في أبشع صورة من الإهمال
والثراء وهم يرددون

الرجل شجرة ليس لها قمة في هموم الحياة

وثيس لها جذور في الراحة منها ،

وكل قدرته في الحياة لا تهدف الى شيء

• الا أن يكون له قدرة على الحزن

هذا هو الصدى الذي يتردد مرة تلو أخرى من الجانب الآخر من
المسرحية التي - ان لم يكن لها الاسم - ففيها التأثير بوجود الآلهة • وهكذا
نتوغل في الغابات والأحراش والبراري في مسرحية عصر اليزابيث • وهكذا
نلتقي بالأباطرة والمهرجين والصياغ والجاموس الوحشي ونضحك ونغرق
في المرح ونتعجب من روعة كل هذا وفكاهته وخياله وتلتهمنا ثورة نبيلة
عندما تسدل الستار ، ولقد ملأنا الضجر والغثيان من الحيل القديمة المتعبة
والاسهاب الممل ان موت كثير من الناس مكتمل النمو لا يحركنا مثل
ما تحركنا آلام واحد من شخصيات تولستوى نجوب خلال شبكة معقدة
لقصة مرهفة غير معقولة وفجأة تمسك بنا بعض العواطف الجياشة ؛ وشيء

من السمو يرتفع ويبعث على النشوة أو تشجينا وتسحرنا أصوات رخيمة
تشدو ، بجزء من أغنية ، انه عالم مليء بالمشقة والسرور ، وبالمتعة والفضول
وبالضحكات المسرفة وبالشعر وبالأشراق ولكن تأتينا فكرة على مهل
ما الذى نفتقده اذاً ؟ ما الذى نبغيه ونريده بالحاح بحيث اذا لم نحصل عليه
فى الحال سعينا نبغيه فى مكان آخر ؟

انه الوحدة(١) لا توجد خصوصيات هنا وانما الباب مفتوح وان
شخصاً يلج الباب كل شىء مشترك فيه فهو واضح مسموع مسرحى
وفى نفس الوقت - كما لو كان قد مل الصحبة - يشرذم العقل ليفكر فى
الوحدة ، ليفكر لا ليمثل ليعلق لا ليشارك ، ليكتشف متاهاته لا السطح
اللامع المضى فى عقول الآخرين يعود العقل الى دون(٢) ومونتيني
وسيرتوماس براون يعود الى سدنة مفاتيح الوحدة

Solitude. (١)

Donne. (٢)

مونتييني

كتبت فرجينيا وولف هذا الموضوع بمناسبة نشر مقالات مونتييني في انجلترا من ترجمة تشارلس كوتون في خمسة مجلدات • والناشر لها مؤسسة نافار •

رأى مونتييني ذات مرة في بار « الدوق » صورة كان قد رسمها رينيه ملك صقلية لنفسه وتساءل مونتييني « لماذا لا يكون ممكنا أن يرسم الشخص نفسه بطريقة مماثلة - عن طريق الكتابة كما فعل رينيه عن طريق الرسم ؟ » ويمكن للمرء أن يجيب على الفور بأنه ليس معقولاً فحسب بل ليس هناك ما هو أبسط من ذلك • وقد يتحاشانا بعض الناس بالرغم من أن ملامحنا تكاد تكون مألوفة جداً فلنبداً وعندئذ - أى عندما نحاول البدء - فان القلم يسقط من بين أصابعنا اذ الموضوع عميق وغامض وبالغ الصعوبة

ومن المسلم به في جميع الآداب أن الذين نجحوا في رسم أنفسهم بالكتابة قليلون ؛ وقد يكونون مونتييني (١) وبيبيز (٢) وروسو (٣) وحدهم • ان صورة نيافة الميديتشي (٤) عبارة عن زجاج ملون من خلاله يرى المرء في الخلفية السوداء نجوماً تتابع وروحا غريبة مشاغبة • وتعكس المرأة المصقولة وجه بوزويل (٥) - كاتب سيرة الميديتشي الشهيرة وتحس به وهو ينظر نظرات ثابتة في أغوار الناس وأنت تقرأ تلك السيرة

أما أن يكتب المرء عن نفسه وهو يتتبع أوهام نفسه وتخيلاتها فانه يعطى الصورة الكاملة بثقلها ولونها - وأبعاد الروح في خلطها وفي

Montaigne.	(١)
Pepys.	(٢)
Rousseau.	(٣)
Midici.	(٤)
Boswell.	(٥)

نقاوتها وفي انحطاطها هذا الفن طوع رجل واحد ، انه طوع مونتينى وكلما مرت العصور فهناك دائما تزاخم أمام تلك الصورة * تحملق فيها العيون لتصل الى أغوارها وهم يرون فيها صورة وجوههم وكلما نظروا اليها استشفوا الكثير وان كانوا غير قادرين عن الافصاح عما يرونه بالتحديد ان الطبقات الحديثة تؤكد الافتتان الدائم وهنا مؤسسة نافار فى انجلترا تنشر فى خمسة مجلدات ترجمة كوتون بينما فى فرنسا تنشر مؤسسة لويس كونارد الأعمال الكاملة لمونتينى ومعها تفسيرات مختلفة فى طبعة قد وهبها الدكتور أرمنجود (١) حياة طويلة من البحث (٢)

أن يقول المرء الصدق عن نفسه أو أن يكشف خباياها للعالم أمر ليس بالهين يقول مونتينى

« اننا نسمع عن اثنين أو ثلاثة فقط من الأقدمين الذين سلكوا هذا الدرب ومنذ ذلك الوقت لم يحذ حذوهم أحد من بعدهم بأن سلك نفس الدرب ، انه طريق وعر ، بل أكثر وعورة مما يبدو ، يقتضى خطوة ضالة ، غير مؤكدة مثل الروح ، لكى ينفذ الى الأغوار والمنعطفات المعقدة والمظلمة، لكى يختار ويضع يده على كثير من الخطوات الرقيقة الرشيقة ، انه عمل جديد غير مألوف ، وهذا يبعد بيننا وبين الأعمال العادية التى يحبذها الجميع بشدة فى العالم . »

وتأتى فى المقام الأول صعوبة التعبير اننا جميعا منمكون فى الأعمال الغريبة السارة التى تسمى بالتفكير ولكن عندما نصل الى حد الافصاح عما نفكر فيه حتى ولو كان فى مواجهة البعض ، نجد أنفسنا غير قادرين على نقل ما نفكر فيه الى هذا الغير ! فشبغ الفكرة يجب ثنانيا العقل ثم سرعان ما يمرق من النافذة قبل أن نتبين ملامحه أو يرسب رويدا رويدا ويعود الى ظلمات الاعماق التى ومضت لحظات بضوء عابر ان الوجه والصوت واللهجة تشوه كلماتنا وتؤكد ضعفها مع الشخصية عند الكلام وبينما القلم أقدر على التعبير نراه فى الوقت نفسه آلة صارمة ، فالقلم قليل الكلام ولكنه يحيط بجميع صنوف العادات

Dr. Armaingawd. (١)

Essays of Montaigne, translated by Charles Cotton, 5 vols The (٢)
Navarre Society.

والطقوس الخاصة بالشخصية وهو مستبد كذلك انه دائما يجعل من الافراد العاديين أنبياء فقد تكون الكلمة فاشلة اذا ألقيت في خطاب ولكن القلم قادر على أن يحولها الى مقال رزين رائع ولهذا ظل مونتينى حيا بعيدا عن عداد الأموات ، بقى فى حيوية ناطقة ولا يمكن أن يتطرق اليها الشك - ولو لفترة وجيزة - أن كتابه انما هو شخصيته . انه لا يقبل أن يكون معلما ولا يقبل أن يكون واعظا فقد دأب يقول أنه مجرد شخص كغيره من الأشخاص

واتجهت كل جهوده لأن يصف نفسه بالكتابة على صفحات من كتبه وأن ينقل أفكاره الى الناس ، وأن يقول الحقيقة وهذا هو « طريق وعربل أكثر وعورة مما يبدو »

ومن وراء صعوبة التعبير أى نقل صورة النفس الى الآخرين ، تأتي مشكلة المشاكل وهى أن يكون الانسان نفسه ان هذه الروح أو الحياة التى بين جنبينا لا تتوافق بناتا مع الحياة التى تحيط بنا فاذا كان لدى المرء الشجاعة لأن يسأل الروح فيم تفكر ، فانها دائما ترى عكس ما اعتاد الناس رؤيته وتفكر منطلقة بعيدة عن القيود والعادات التى يخضع لها الناس اضطرارا فقد نادى بعض الناس مثلا منذ زمن بعيد بأنه يجب على الرجال المسنين والمرضى أن يقرأوا فى بيوتهم ويشيدوا بصرح الفضيلة العائلية . ولكن روح مونتينى ترى عكس ذلك وتقرر أنه على المرء المسن أن يسافر ، وأن الزواج الذى لايقوم على الحب جدير بأن يصبح فى نهاية الحياة مجرد رباط شكلى يحسن فصامه ومرة أخرى نرى الناس فى مجال السياسة يشيدون دائما بعظمة الامبراطورية ويتشدقون بالالتزام الادبى بنشر الحضارة فى الدول المتخلفة ولكن مونتينى يصيح فى ثورة غضبه أن انظروا الى الأسباب فى المكسيك « كم من مدن اندكت وكم من أوطان أبيت ، وكيف أن أغنى بقاع الارض وأجملها انقلب عاليها سافلها من جراء تجارة اللؤلؤ والفلفل ! انتصارات آلية ! وعندما أتاه نفر من الفلاحين ليخبروه بأنهم صادفوا رجلا يعانى من سكرات الموت من جراحه قنبذوه وتخلوا عنه لخوفهم من أن يؤخذوا به فتدينهم العدالة بقتله فتساءل مونتينى

ماذا أنا بمستطيع قوله لهؤلاء الناس انه من المؤكد ان الاحساس بالانسانية لا بد قد سبب لهظ المتاعب فليس هناك ما هو أقسى على النفس ولا أشد وطأة عليها من هذا الذى تكون أخطاؤه عامة شاملة مثل القانون . »

وهنا نرى الروح جامحة تلهب بسوطها الصور الواضحة من خيال مونتيني وعرفه وطقوسه ولكن يمكنك أن تلاحظ الروح تارة أخرى وهي تفكر وتتأمل الى جوار المدفأة في غرفة داخلية من البرج هذا البرج الذي هو على الرغم من أنه منفصل عن بقية المبنى فإنه يسيطر على ما يحيط به كذلك الروح في تأملها منفردة وفي عزلة عن العالم ومع ذلك تحيط بها وتدركها حقيقة ان الروح أغرب مخلوق في العالم، بعيدة عن الشهرة متغيرة كدوارة الريح التي تبين اتجاهه ، « خجولة سفيهة ، عفيفة شهوانية ، ثرثارة ، صامته ، دءوبة رقيقة ، عبقرية ثقيلة ، حزينة ، مرحة ، كاذبة ، صادقة ، عالمة ، جاهلة ، متحررة ، جشعة ، مسرفة ، وباختصار فهي معقدة جدا لا حدود لها ، قليلة الاستجابة لمن يرغمها على أداء واجبها في علانية حتى أن المرء قد يقضى عمره محاولا الهبوط بها الى الأرض ان السعادة التي ننالها في السعي وراءها أقوى وأشد وهي تعوض الانسان عن أى ضرر يمكن أن يلحق (بسبب هذا السعي) آماله الدنيوية فالرجل الذي يعرف نفسه في الواقع طليق لا يشعر بالملل مطلقا والحياة بالنسبة اليه قصيرة جدا اذ هو غارق في سعادة عميقة ولكنها عفيفة انه هو الوجد الذي يعيش بينما الآخرون عبيد المظاهر والشكليات تمر عليهم الحياة كالحلم اذا تصرف كل فرد بما يلائم العرف فيأتي من الأفعال ما يأتيه الآخرون لا عن اقتناع به ، ولكن لمجرد أن الناس يأتونه ، فان سباتا عميقا سيستولي على الأعصاب الرقيقة ويخيم على امكانيات الروح ستصبح الروح مجرد مظهر خارجي يضم تحته فراغا داخليا كئيبا فجأ لاهيا .

عندئذ وبكل تأكيد اذا سألنا هذا الأستاذ العظيم في فن الحياة ان يبوح لنا بسره فانه سينصحنا بأن ننسحب الى حجرتنا الداخلية في برجنا وهناك نقلب صفحات الكتب ، نتبع الفكرة تلو الأخرى وهي تتلاحق صاعدة على المدخنة وتترك حكم العالم للآخرين الانسحاب والتأمل هذان هما أهم عناصر الدواء الذي يصفه لنا ذلك السيد العظيم ولكن مونتيني ليس واضحا على أية صورة انه من المستحيل استخلاص جواب صريح من ذلك الرجل ذي الدهاء وهو قليل الابتسام ينتابه الحزن أحيانا ، وله جفون ثقيلة ، وتعبير حالم معقد والحقيقة انه كان يرى أن الحياة في الريف حيث يصاحب المرء كتبته وسط الأزهار والخضروات غالبا ما تكون كئيبه للغاية فهو لا يستطيع مطلقا أن يرى أن بازلاء الخضراء أحسن بكثير من بازلاء الآخرين وأن

باريس هي المكان الذي يحسه أكثر من غيره في العالم قاطبة « حتى عيوبها والعمل فيها » أما عن القراءة فانه كان من النادر أن يقرأ في أى كتاب أكثر من ساعة في المرة ، وكانت ذاكرته ضعيفة لدرجة أنه كان ينسى ما كان يفكر فيه وهو ينتقل من غرفة الى أخرى . وكان يرى أن التعليم عن طريق الكتاب ليس شيئاً نفخر به ، أما بالنسبة لما حققه العلم ، فما الذى يهدف العلماء من ورائه ؟ انه كان دائماً يختلط بأناس أذكياء وكان والده يكن له احتراماً ايجابياً ولكنه قال ذات مرة ان العلماء على الرغم من أن لهم لحظاتهم الرقيقة وشاعريتهم ورؤياهم ، فان أشدهم ذكاء يهتز على حافة الغباء راقب نفسك في لحظة تر انك في منتهى الفرح وفي اللحظة التالية فان مجرد كسر كوبه ماء يجعلك في منتهى العصبية ان أى تصرف له خطره ومن الأفضل أن نبقى مع الآخرين وان كان فى منتصف الطريق ، نبقى معهم فى الأخطار العادى الذى يتمرغون فيه مهما كان مليئاً بالأوحال . فعندما تكتب انتق الكلمات والألفاظ العادية وتجنب السجع والطلاقة - ولو أن الشعر فى الحقيقة لذيذ وأجمل النثر أكثره احتواء على الشعر

ويبدو عندئذ أننا نهدف الى بساطة ديمقراطية قد نشعر بالمتعة ونحن فى حجرتنا فى البرج العاجى بين الجدران ذات الطلاء وبين دواليب الكتب المرتبة ، بينما هناك فى حديقة الواقع ، يوجد رجل يسوى الأرض بعد أن وارى والده التراب فى الصباح ، وهذا الرجل وأمثاله هم الذين يعيشون فى عالم الواقع ويتكلمون اللغة الواقعية وفى ذلك ، بغير شك ، شىء من الحقيقة . ان الأشياء يعبر عنها بكل دقة بين صغار الناس وربما يكون هناك الكثير من الصفات الهامة منتشرة بين الأميين أكثر مما هى منتشرة بين المتعلمين ولكن نعود فنقول ما أشد دناءة الرعاع ! « مصدر الجهل ، والجور وعدم الاستقرار هل من المعقول أن تتوقف حياة الرجل العاقل على حكم المغفلين ؟ » ان عقولهم ضعيفة ، رخوة لا تقوى على المقاومة . انهم فى حاجة لأن يقال لهم ما الذى يجب عليهم أن يعلموه مما هو نافع لهم انهم لا يقوون على مواجهة الواقع كما هو والحقيقة يمكن أن تدركها الروح الكريمة المنبت ومن تكون اذن الأرواح الكريمة المنبت التى يجب علينا أن نقلدها كنا نتمنى لو أن مونتيني فسر لنا ذلك تفسيراً أكثر دقة ؟

ولكن لا ، « أنا لا أقوم بالتدريس ولكنى أتحدث » وعلى كل حال ، كيف كان يتسنى له تفسير أرواح الناس بينما هو لا يستطيع أن يذكر شيئاً « بسيطاً جداً ومتماسكاً دون خلط أو تداخل في كلمة واحدة » ، ولا هو بمستطيع أن يذكر شيئاً عن نفسه التي أخذت - في الواقع - تعز عليه وتزداد كل يوم غموضاً ؟ وقد تكون هناك صفة واحدة أو مبدأ واحد وهو أنه لا يجوز للإنسان أن يفرض القواعد فالأرواح التي يود الإنسان أن يتشبه بها كروح « اتين دي لابواتي » (١) مثلاً هي أكثر مرونة انه موجود ولكنه لا يحيا ذلك الذي يتعلق أو يلتزم بضرورة أن يكون بمفرده ان القوانين هي مجرد عرف غير قادر على ملاحقة تطور البشر السريع وبواعثهم المضطربة ان العادات وما تألف الناس عليه انما هي مجرد ملاءمة قصد بها التحايل لشد أزر من جبلوا على الجبن الذين لا يجدون في أنفسهم الجرأة ليسمحوا لأرواحهم بحرية التصرف غير مبالين بالعرف بينما نحن الذين لنا حياتنا الخاصة ونتمسك بها الى أبعد حد كأعز ما نملك لا نشك في شيء بقدر ما نشك في تصرف اننا نبتدر بالاعتراض مباشرة ، وباتخاذ وضع معين وبالالتزام بأحكام بذاتها ثم نفنى اننا نحيا لغيرنا وليس لأنفسنا علينا أن نحترم هؤلاء الذين يضحون بأنفسهم في خدمة العامة ، ونخلع عليهم الشرف ثم نشفق عليهم لأنهم قبلوا - كما هو مفروض عليهم - التزاماً لا يحتمل التحلل منه ، ولكن بالنسبة لأنفسنا فدعنا نضفي عليهم الشهرة والشرف وجميع المراكز التي تجعلنا ملتزمين قبل الغير ودعنا نندمج فيما يحيط بنا من عواطف لا تعد ولا تحصى نندمج في الخلط الذي يسيطر علينا في مزيج من البواعث ، في معجزتنا الدائمة - وذلك لأن الروح تخرج العجائب في كل لحظة ان الحركة والتغيير هما قوام كياننا أما الجمود فهو الموت التقليد هو الفناء ، فلنقل كل ما يرد على رءوسنا نكرر أنفسنا نناقض أنفسنا ، نتخلى عن الحزعبلات غير المنمقة ونتبع الخيالات الخرافية دون أن نلقى بالا لما يفعله العالم أو يظنه أو يقوله وذلك لأنه لا شيء يهم إلا الحياة وبالطبع النظام

ان هذه الانطلاقة اذا - وهي قوام كياننا - يجب أن تنظم ولكنه من الصعب أن نرى أية قوة فدعوها لتساعدنا طالما أنه قد استهزىء بكل ما يكبح جماح الرأي الشخصي أو بالقانون العام

(١) Etienne de La Boétie.

أو بالعرف والتقاليد ، ولا يفتأ مونتيني يلعن دائما بؤس الطبيعة البشرية وضعفها وغرورها ربما اذاً يكون من الأفضل أن نتجه الى الدين ليرشدنا ربما « هذه احدى تعبيراته المفضلة ربما » « أظن » وكل هذه الكلمات التى تصور الادعاءات المتهورة ومثل هذه الكلمات تعين الانسان على اخفاء آرائه التى يكون من غير الحكمة الافصاح عنها لأن الفرد لا يفصح عن كل شىء بل ان هناك بعض الأشياء يكون من الأفضل - فى الوقت الحاضر - مجرد التلميح بها لا غير ان الانسان يكتب لعدد قليل جدا من الناس هم الذين يفهمونه ومما لا شك فيه أنه يبحث عن هداية الله بشتى الوسائل ولكن فى نفس الوقت هناك - لهؤلاء الذين لهم حياة خاصة - منذر آخر وركيب غير ظاهر بداخل أنفسهم يخشى من تأنيبه أكثر من أى شىء آخر ذلك لأنه يعلم الحقيقة ، وليس هناك ما هو أكثر راحة من رنين رضائه هذا هو القاضى الذى يجب أن نخضع له هذا هو الرقيب الذى يعيننا على تحقيق ذلك النظام نعمت الروح الكريمة المنبت لأنها حياة لذيذة ، تلك التى يستتب فيها النظام حتى فى حياة الفرد الخاصة » ولكنه مع ذلك سوف يتصرف فى ضوءه الخاص وبعوض من التوازن الداخلى سوف تتحقق الموازنة القلقة والمتغيرة التى - بينما هى تنظم - فانها لا تعوق بأى صورة من الصور حرية الروح فى الاستكشاف والتجربة وبدون مرشد آخر وبدون سابقة تتمثل بها تصبح الحياة الخاصة الطيبة - بغير شك - أعز بكثير من الحياة العامة . انه فن أن يتعلم كل فرد مستقلا عن الآخرين وربما كان هناك رجلان أو ثلاثة مثل هومر والاسكندر الأكبر وايبامينونداس(١) من بين القدماء وايتين دى لابواتيه (٢) من بين المحدثين الذين يمكن أن يكونوا مثلا يحتذى بهم ولكنه فن مادته ذاتها التى يعمل فيها متغيرة معقدة غامضة للغاية انها الطبيعة البشرية وعلينا أن نبقى قريبين من الطبيعة البشرية « لابد من الحياة بين الأحياء » يجب أن نخشى كل شذوذ أو انحراف أو تهذيب يفصلنا عن أقراننا طوبى لهؤلاء الذين يتحداثون على سجيتهم ويستمتعون بحق بحدِيثهم مع النجارين والبستاتيين ان مهمتنا الرئيسية هى الاتصال بالناس ، مسراتنا الأساسية هى المجتمع والصدقة والقراءة لا لنحصل على المعرفة أو لنكسب لقمة

Epaminondas. (١)

Etienne de La Boétie. (٢)

العيش وانما لنوسع حلقة الاتصال بالناس متجاوزين زماننا ومشكلاتنا سنرى مثل هذه العجائب في الدنيا ، كالطيور الغريبة والأراضي التي لم تكتشف بعد ، ومخلوقات ذات رعوس كلاب عيونها في صدرها وقوانين وعادات قد تكون أرقى بكثير من قوانيننا وعاداتنا ربما تكون نياما في هذا العالم ، وقد يكون هناك مخلوقات أخرى تبدو ذات حاسة نحن في حاجة اليها

وعلى الرغم من كل هذه المتناقضات والمؤهلات فهنا اذا أشياء بالذات هي مقالات مونتيني التي هي عبارة عن محاولات للاتصال بالروح . ففي هذه النقطة على الأقل نراه واضحا انها ليست الشهرة التي يسعى اليها ، ولم يكن همه أن ينقل الناس عنه في السنين التالية انه لا يقيم لنفسه تمثالا في السوق ، وانما هو يبغى أن يطلعنا على على أسرار نفسه . صلاتنا هي الصحة ، هي الحقيقة ، هي السعادة ومشاركته واجب علينا ، لكي نغور في أعماق النفس بشجاعة ونخرج الى النور تلكم الأفكار الخفية التي هي أشد البلاء ولا نخفي منها شيئا ، ولا نتظاهر بشيء ، فاذا كنا جهلاء فلنقل ذلك ، واذا كنا نحب أصدقاءنا فلنخبرهم بذلك لأنى أعلم بتجربة أكيدة أنه ليس هناك عزاء الطف (عندما يرحل عنا الأصدقاء) من العزاء الذي يجلبه لنا يقيننا بأننا لم ننس شيئا نقوله لهم من شأنه أن يدخل عليهم السرور وأن صلتنا بهم كانت على أحسن وجه «

وهناك من الناس من اذا سافروا تدهروا بالسكون والأوهام « وهم يحولون بين أنفسهم وبين هواء غير معروف » وعندما يأكلون فانهم لا يتناولون الا ما تعودوا على تناوله في أوطانهم وكل منظر أو عادة فهو سئ الا اذا تشابه بمنظر أو عادة قريتهم أنهم يسافرون لكي يعودوا وهذا هو الطريق الخاطيء في الأسفار . علينا أن نبدأ دون أن تكون لدينا فكرة ثابتة عن أين سنمضى الليلة أو عن متى سنعود ان الرحلة هي كل شيء . ان أهم شيء ، سيكون من التوفيق النادر أن نجد شخصا على شاكلتنا يرافقنا الرحلة نسر اليه بالأفكار التي تتوارد على رعوسنا ذلك لأن السعادة لا طعم لها بغير مشاركة الآخرين أما عن المخاطر – وهي أن نصاب بنزلات البرد أو بالصداع – فان الرحلة تستحق المخاطرة بمرض بسيط « أن المتعة هي رأس مال المنفعة » الى جانب هذا اذا كنا نفعل ما نشتهي ، فائنا نفعل دائما ما هو خير لنا

قد يعترض الأطباء والحكماء ولكن دعنا نترك الأطباء والحكماء الى فلسفتهم الكثيرة أما بالنسبة اليينا - نحن العاديين - فلنعد شاكرين الطبيعة لطبيعتها باستعمال كل حاسة من الحواس التي وهبتنا اياها ، ونغير من مراكزنا على قدر الامكان ، نتجه تارة الى هذا الجانب وتارة أخرى الى الجانب الآخر وراء الدفء ، نتذوق حتى الثمالة - وقبل فوات الأوان - قبلات الشباب والصوت الرخيم الذي يغنى كل فصل من فصول السنة يشابه الآخر أيام مطيرة وأيام لطيفة نبيذ أحمر ونبيذ أبيض صحبة ووحدة حتى النوم - ذلك الستار الكريه الذي يحجب عنا مباحج الحياة - يمكن أن يكون مليئا بالأحلام وأكثر التصرفات العادية - السير أو الكلام أو الوحدة في حديقة الشخص - يمكن أن تعظم وتسمو بارتباطها بالعقل ان الجمال موجود في كل مكان وهو على قيد أنملة من الخير ومن الطيبة . ولذلك وباسم الصحة والعقل دعنا لا نستكن وليدهمنا الموت ونحن نزرع قوتنا أو ونحن نتنقل على ظهور الخيل أو ونحن ندلف الى بعض الأكواخ أو ونحن على سفر ، فهذا أفضل بكثير من البقاء في البيت انتظارا للموت ثم يذرف الخدم الدموع علينا أو ننتظر حتى يقع أمر تافه فيقعدهنا ويهزمنا وأفضل من هذا كله دع الموت يعثر علينا ونحن في أعمالنا العادية ونحن بين الفتيات والأصدقاء الطيبين الذين لا يعترضون أو يبكوننا دعه يعثر علينا « من بين اللعب ، والولائم والضحكات ووسائل التسلية العادية والشعبية بين الموسيقي وكوؤوس الحب » ويكفينا الكلام عن الموت ، ان الحياة هي التي تهتم

ان الحياة هي التي تبزغ بوضوح أكثر وأكثر كلما بلغت هذه المقالات نهايتها فانما هي معلقة بتمامها وكمالها ان الحياة هي التي تستغرق - كلما دنا الموت - نفس الفرد وروحه وكل حقيقة عن وجوده فالمرء يرتدى جوارب من الحرير صيفا وشتاء ويخلط الماء في نبيذه ، ويقص شعره في المساء يجب أن يكون لديه كوب يشرب منه انه لم يضع مطلقا نظارات على عينيه ذو صوت مرتفع يحمل معه مفتاحا في يده لتغيير خط السير ، يعض لسانه ، قلق يحرك قدميه قادر على أن يعرك أذنه ، يحب اللحم ، يمسح أسنانه بالفوطة (والحمد لله ان الأسنان سليمة !) يجب أن تكون لديه « ناموسية » على سريره ، والغريب نوعا ما أن يبدأ في استطعام الفجل ثم يعزف عنه ثم يعود اليه مرة أخرى ليس هناك حقيقة تافهة عن الانسان نتركها تفلت من بين أصابعنا ، وإلى جانب الاهتمام بحقائق الحياة

نفسها فهناك القدرة الغريبة التي نملكها وهي التي تغير الحقائق بقوة الخيال أنظر كيف أن الروح تلقى دائما أضواءها وظلالها وتفرغ المادة وتقلب الضعف الى مادة تملأ النهار العريض بالأحلام ، وهي تنفعل بالأشباح كما تنفعل بالواقع ، وفي لحظة الوفاة تلعب بشيء تافه ، انظر الى ازدواجها والى تعقيدها انها تسمع بفقد صديق فتحزن عليه ، ومع ذلك فهي تجد سعادة مرة - حلوة خبيثة في أحزان الآخرين انها مؤمنة وفي نفس الوقت هي كافرة لاحظ حساسيتها غير العادية للمؤثرات وخاصة في سن الشباب . رجل غنى يسرق لأن والده قتر عليه وهو يافع وهذا الجدار يقيمه شخص لا لنفسه ولكن لأن والده كان يحب المباني وباختصار فإن الروح محاطة بشبكة رقيقة من الأعصاب والعواطف التي تؤثر في كل تصرفاتها ، ومع ذلك حتى في عام ١٥٨٠ لم يكن لدى أى شخص معرفة واضحة كم نحن جبناء محبين للطرق السهلة والمعروفة - عن كيف تعمل الروح أو ما هو كنهها سوى أنها دون كل الأشياء أكثرها غموضا ونفس الانسان هي أكبر وحش وأعظم معجزة فى العالم كلما تعلمت وكلما دهشت لتعدد صوري ، قل فهمى لذات نفسى » لاحظ ، ولاحظ دائما طالما يوجد مداد وقرطاس « ودون توقف وبدون كد ، سيظل مونتيشى يكتب

ولكن يظل سؤال أخير نود أن نوجهه الى هذا الاستاذ العظيم فى فن الحياة اذا كنا مستطيعين أن نرفع رأسه عن الانكباب على الكتابة التي استولت عليه فى هذه المجلدات غير العادية عن تقارير قصيرة وغير كاملة ، طويلة وفيها علم ، منطقية ومتناقضة سمعنا نبض الروح وايقاعها يدق يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى خلال القناع الذى - بمرور الوقت - يرق لدرجة تقترب من الشفافية سؤال نوجهه الى هذا السيد الذى خدم وطنه وعاش فى عزلة وكان مالكا وزوجا وابا ، أدخل السرور على ملوك ، وأحب النساء ، وتسلى بمفرده لساعات طويلة بقراءة الكتب القديمة وعن طريق التجارب الدائبة وملاحظة مهارات الحياة نجح أخيرا فى ترتيب معجز لهذه الأجزاء العتيقة التي تكون النفس البشرية

لقد وضع يده على جمال العالم وحقق السعادة ولقد قال لو أنه قدر له أن يعيش مرة أخرى فانه سوف يحيا نفس حياته مرة ثانية ولكن بينما نلاحظ باهتمام مسيطر منظرا يتملكنا لروح تعيش

بوضوح تحت ناظرينا فان السؤال يشكل نفسه هل السعادة هي غاية كل شيء ؟ من أين هذا الاهتمام الذي يستحوذ علينا في طبيعة الروح ؟ لماذا توجد تلك الرغبة المسيطرة للاتصال بالغير ؟ هل جمـال هذا العالم كاف ؟ أو هل هناك في مكان آخر شيء من التفسير لهذا الغموض وأي جواب يمكن أن يكون لأي من هذه الأسئلة ؟ لا جواب وهناك فقط سؤال آخر : « ماذا أعرف ؟ »

دوقة نيوكاسل (١)

كل ما أصبو اليه هو الشهرة «

هكذا كتبت مارجريت كافنديش دوقة نيوكاسل وقد تحققت لها تلك الأمنية أثناء حياتها لقد كانت متبهجة في لباسها شاذة في عاداتها نقية طاهرة في سلوكها وكان صوتها أجش خشناً ونقد نجحت أثناء حياتها في أن تجلب على نفسها سخرية العظماء وتصفيق المثقفين ولكن خبا الآن آخر أصداء ذلك الضجيج وتلاشى ولذا فهي تعيش فقط من بين تلك العبارات السامية التي كتبها لامب (٢) « على قبرها كل أشعارها ومسرحياتها وفلسفاتها ومقالاتها وأحاديثها وكل تلك الصفحات والقرايطيس التي عليها سطرت حياتها الواقعية فأبقت على حياتها كل ذلك قد تعفن في كآبة المكتبات العامة أو تركز داخل قنينات صغيرة لا تتسع لأكثر من ست قطرات لغزارة مادتها وحتى طالب العلم الشغوف الملهم بعبارات لامب « يطير قاطعا مسافات طوالا الى ضريح كتبها ثم يدلف من الباب ولكن سرعان ما يرتد مهرولا ويقفل الباب من ورائه

ولكن فهذه النظرة السريعة قد أظهرت له معالم شخصية لا تنسى . ويقال انها ولدت في عام ١٦٢٤ وهي أصغر أبناء رجل يدعى توماس لوكاس توفى وهي ما زالت في المهد وكانت نشأتها على يدي أمها

(١) كتبت المؤلفة مقالها هذا بمناسبة نشر «حياة ويليام كافنديش» تأليف س.هـ. فيرث ، وكذا نشر «أشعار وخیالات» لدوقة نيوكاسل ، خليط العالم ومقالات على مختلف الصور منسوبة لاماكن مختلفة ؛ وخطابات امرأة ؛ ومسرحيات ؛ وخطبات فلسفية ، الخ ، الخ وهي بذلك تتعرض لصورة من صور ذلك العصر عام ١٦٢٤
The Life of William Cavendish, Duke of Newcastle, Ebc., edited
by C.H. Firth; Poems and Fancies, by the Duchess of Newcastle, The Worled
Olio, Orations of dirers Sorts Accomodated to Divers Places; Female Orations;
philosophical Letters, etc. etc.,

Lamb. (٢)

وهي سيدة ذات شخصية متميزة وذات عظمة وجلال ، وجمال « لا تصل اليه يد الزمن » كانت تلك الأم غاية في المهارة فيما يتعلق بالايجارات وادارة الأراضى والالتجاء الى المحاكم وكانت تحسن تشغيل « الخولى » وما شابه ذلك من أعمال « وهكذا نمت ثروتها ولكنها لم تنفقها صداقا للزواج وانما أنفقتها فى مسرات باذخة وبهجة ، « عن ايمان بأنها اذا أنشأتنا على الضروريات الملحة فقد تخلق فينا صفات شرسة وهي لم تضرب أحدا من أولادها الثمانية ولكنها تعلقت بهم وكانوا ذوى هندام رقيق مرح ، ولم يسمح لهم مطلقا بمحادثة الخدم لا لأنهم خدم ولكن لأن الخدم « عامة على خلق سىء ووضيعو الميلاد » « لقد لقنت البنات التعاليم العادية » من أجل الرسميات لا من أجل المنفعة ، « لأنه كان من رأى أمهن أن الشخصية والسعادة والأمانة أهم للمرأة من عزف الموسيقى أو الغناء أو « الثرثرة بلغات متعددة »

لقد كانت مارجريت شغوفة بأن تستغل هذا الانهماك فى التعليم لتشبع اذواقا معينة فى نفسها فهي تفضل القراءة على أشغال الإبرة، تعشق اللبس « وتجديد أزياء ملابسها » أكثر من القراءة ، وتفضل الكتابة أكثر من هذا كله فلقد كتبت ست عشرة كراسة بغير عنوان بخط ردىء ، وذلك لأن ثورة أفكارها كانت تسبق أصابعها دائما ، وهذه الكراسات تشهد بمدى استفادتها من تحرر والدتها أن السعادة المنزلية كذلك كانت لها نتائج أخرى اذ كانت عائلة وفيه ولقد كتبت مارجريت بعد أن تزوج أخواتها بمدة طويلة قالت هؤلاء الاخوة والأخوات الوسيمون ، جعلتهم أجسامهم المتناسقة وبشرتهم الصافية وشعرهم الكستنى وأسنانهم السليمة « والصوت الرخيم » وطريقة حديثهم الواضحة جعلتهم يعيشون كالطيور المتألفة . ان وجود الغرباء يسكتهم ولكن عندما يصبحون بمفردهم ، سواء كانوا يتجولون فى سبرنج جاردن أوفى هايد بارك ، أو يستمعون الى الموسيقى أو يتناولون عشاءهم فى القوارب على صفحة الماء تنطلق ألسنتهم « ويمرحون فيما بينهم مرحا لا حد له ، يصرحون بأرائهم وينددون أو يوافقون ، أو يعلقون كما يحلو لهم »

كان لهذه الحياة العائلية السعيدة اثرها فى شخصية مارجريت . فكانت وهى طفلة - تسير ساعات طوالا تتأمل وتفكر وتتأمل « كل شىء تدركه حواسها » - لا تجد أية متعة فى أى نشاط من أى نوع

لا تسعدها العرائس ولا تستطيع أن تتعلم اللغات الأجنبية ولا تلبس كما يلبس الآخرون . تجد أعظم سعادتها في أن تصمم ملابسها ولا يقلدها فيها أحد ، وذلك - كما أشارت - « لأنى أجد لذة في التفرد بالشيء ، حتى فيما أزود به نفسى من عادات »

مثل هذا التدريب المقيد الطليق كان يجب أن يربى عانساً متعلمة فرحة بعزلتها كاتبة لمجلد من الخطابات أو التراجم الكلاسيكية التى لم نزل نقتبس منها دليلاً على الطريقة التى أنشئت عليها جداتنا . ولكن هناك عرقاً متمرداً فى مارجريت ، هو حب للرقه والبذخ والشهرة ، يغير نظام ترتيب الطبيعة دائماً فعندما سمعت بأن الملكة - منذ بدء الحرب الأهلية - كانت تستعين بوصيفات الشرف ، سمحت لها أمها بالذهاب الى البلاط على غير موافقة بقية أفراد العائلة ، الذين يعلمون أنها لم تبتعد عن البيت ولم تغب عن نظر باقى العائلة - والذين اعتقدوا اعتقاداً راسخاً أنها سوف تسيء التصرف فى البلاط الملكى « وانى أعترف فعلاً انى فعلت ذلك » هكذا اعترفت مارجريت ،

« اذ كنت خجولة جداً عندما بعدت عن نظر أمى واخوتى وأخواتى حتى انى لم أكن لأجرؤ على أن أرفع عينى ولا أن أتكلم ولا أن أكون اجتماعية على أية صورة من الصور ومن أجل هذا اعتبرونى غيبية بالطبيعة » لقد ضحك منها رجال البلاط ، وعاملتهم بالمثل ان الناس مغرمون بالنقد ، فالرجال غيورون من ذكائهم والنساء يتشككن فى ذكاء جنسهن ، وأى امرأة أخرى كانت تفكر فى طبيعة المسادة وهى تتجول فى الحديقة ، وهل للقوقة أسنان ؟ لقد ضايقها الاستهزاء بالفعل حتى رحبت أمها بأن تترك البلاط وتعود الى البيت ولما رفض هذا الطلب - وقد أثبتت الأيام أن ذلك كان من الحكمة - استمرت فى البلاط لمدة سنتين (١٦٤٣ - ١٦٤٥) وفى النهاية صاحبت الملكة الى باريس وكان من بين المنفيين الذين حضروا لرفع آيات الولاء للملكة الماركيز نيوكاسل . وللدهشة التى عمت الجميع فان الأمير النبيل الذى قاد قوات الملك بشجاعة لا تبارى وبمهارة نادرة وقع فى حب وصيفة الشرف الخجول الصامته الغريبة الملبس ولم يكن « الحب غراماً ولكن كان حباً أميناً شريفاً » كما قالت مارجريت ولم تكن صفقة مربحة ، فلقد عرف عنها الحذر والشذوذ . فما الذى ألقى اذا مثل هذا الرجل العظيم النبيل تحت قدميها ؟ لقد كان المحيطون بها مفعمين بالسخرية والاحتقار والوشاية فكتبت مارجريت للمركيز تقول « انى أخشى ما تنبأ به الآخرون بسوء طالعنا ، على الرغم من

أنا لا نراه كذلك بأنفسنا ، أو انه لن يكون هناك عذاب وألم عندما نحل عقدة حبنا » ومرة أخرى « ان سانت جيرمان مرتع خصب للوشاية ويظنون أنني أبلغك بالكثير من الأنباء » ثم حذرته أرجو أن تراعى أن لى أعداء » لقد كان التوافق بينهما صحيحا فالمركيز - بحبه للشعر والموسيقى وكتابة المسرحيات ، واهتمامه بالفلسفة وإيمانه بأنه « لا يوجد انسان يدرك أو يمكنه أن يدرك سبب أى شيء » - كان طبيعيا أن تتجه عاطفته ومزاجه الجياش نحو امرأة تقرض الشعر بنفسها ، وهى مع ذلك فيلسوفة من نفس طراز تفكيره ومع ذلك فقد أمطرته لا بفيض من اعجاب زميل فنان ، ولكن بامتنان المخلوقة المرهفة التى ضمها الى كتفه وأغاثها بنخوة عارمة فكتبت « انه قد قبل تلك المخاوف المخزية التى ندد بها فى الكثيرون ، وعلى الرغم من قزعى من الزواج وتحاشى صحبة الرجال بقدر ما وسعت طاقتى ومع ذلك فانى لم أجد القوة لكى أرفضه » رافقته خلال سنين المنفى الطوال ، ودخلت مشفقة - وان لم يكن عن أدراك - فى سلوك تلك الخيول ومكتسباتها التى دربها على درجة من الكمال حتى أن الأسبانيين أشاروا بعلامة الصليب وصاحوا « معجزة » وهم يشاهدون قفزات التدريب وخاناته ورقص الخيول لقد آمنت أن الخيول تضرب الأرض بحوافرها لتعبر عن فرحها عندما كان زوجها يدخل الاسطبل، ثم سعت للعفو عنه فى إنجلترا ابان الحماية ، وعندما جعل عهد الإصلاح عودتهما الى إنجلترا ممكنة ، عاشا فى قلب الريف فى عزلة تامة ورضا كامل ، تكتب مسرحيات بغير عناء وقصائد ، وفلسفات ، ويمجد كل منهما الآخر فى سعادة وهيام ، ويتسامران فى بدائع العالم الطبيعية التى ساقتها اليهما الصدف وكانا محطاً لسخرية معاصريهما ، فاستهزأ منهما هوريس وولبول(١) ولكن مما لا شك فيه أنهما كانا فى أتم سعادة

وعلى ذلك يمكن أن تستمر مارجرىت فى كتاباتها لا يقطع عليها خلوتها أحد وفى امكانها تصميم أزياء لنفسها ولخدمها وفى امكانها كذلك أن تسترسل فى كتاباتها باندفاع متزايد وبأصابع تفل قدرتها يوما بعد يوم على رسم حروف مقروءة وفى استطاعتها أن تحقق المعجزة حتى فى جعل مسرحياتها تمثل فى لندن وأن يتبع رجال متعلمون فلسفاتها بكل تواضع وهناك فى المتحف البريطانى يقبع مجلد تلو

مجلد مكتظ بحيوية مسهبة غير سهلة ثقيلة ان النظام والاستمرار والتطور المنطقي للمناقشة كل أولئك لا تدرى من أمرها شيئاً فلا مخاوف تعوقها أو تقف في سبيلها انها لا تتحمل المسؤولية كالأطفال وفي نفس الوقت تتمتع بعجرفة الدوقة ان الخيالات غير المشذبة ترد على خاطرها فتهرول على ظهورها ويخيل اليها أننا نسمعها وهي تصبح - عندما تفور الأفكار وتغلي - منادية على جون ، الذي يجلس والقلم في يده في الحجرة المجاورة ليهرع اليها « جون جون ، انى وجدتها ! » وهكذا تسترسل في كتابة أى شىء أيا كان ، معقولا كان أم غير معقول ، بعضا من الأفكار عن تعليم النساء . « ان النساء يعشن كالخفافيش أو البوم ، يكدحن كالحوانات ، ويمتن كالديدان ، ان أحسن النساء نشأة هن اللاتي كن ذوات عقول ورقة » ، بعض تأملات خطرت على بالها ، ربما وهي تسير وحدها ذات مساء - « لماذا تصاب الخنازير بالحصبة » ، « لماذا تهز الكلاب ذيولها عند الفرح » ، أو مم صنعت النجوم ، أو ماهية الشرنقة ، التي أحضرتها اليها خادمتها وهل تجد الدفء في ركن شرنقتها وهكذا من موضوع الى موضوع ، تحلق ولا تتوقف على الاطلاق لتصحيح أى فكرة أو أى موضوع ، « ذلك لأن السعادة كل السعادة في الخلق لا فى الاصلاح » تتحدث مع نفسها بصوت مرتفع عن كل هذه الأمور التي تملأ فكرها والتي تحقق لها السلوى الدائمة . عن الحروب ، عن المدارس الداخلية عن قطع الأشجار ، عن قواعد اللغة والآداب العامة ، عن الغرائب وعن البريطانيين ، وهل الأفيون في مقادير صغيرة فيه نفع للمجانين ، لماذا يصبح الموسيقيون مجانين ثم تنظر الى أعلى فتأمل بالحاح فى طبيعة القمر وهل النجوم هلام براق ، ثم تنظر الى أسفل وتعجب هل الأسماك تدرك أن البحر ملح أجاج مزاعم بأن رءوسنا ملأى بالجنيات أعزة عند الله كما نحن « تتأمل هل هناك عوالم أخرى غير عالمنا وتفكر بأن السفينة القادمة سوف تحمل اليها أنباء عن عالم جديد . وباختصار « نحن فى ظلام دامس » وفي نفس الوقت ، أى هيام يكون الفكر

ولما خرجت الكتب الضخمة من عزلتها الأرستقراطية فى وليبك(1) أبدى الرقباء العاديون الاعتراضات المألوفة ، فكان عليها اما أن تجيب عليها واما أن تزدردها أو تتناقش فيها معهم ، طبقا لما يستقر عليه مزاجها فى مقدمة لكل عمل قالوا - فيما قالوا - ان كتبها ليست من

انتاجها وذلك لأنها تستعمل تعبيرات المثقفين و « كتبت عن أمور متعددة لم تحط بها علما » أنها لتهرع الى زوجها تسأله المعونة ، وهو يجيبها خاصة وأن الدوقة « لم تناقش أى طالب علم معترف به فى دراسته الا أباها وأنا ، ودراسة الدوق - فضلا عن ذلك - كانت من طبيعة غريبة - « لقد عشت فى العالم الكبير حقبة طويلة ، وفكرت فيما ورد على فكرى عن طريق حواسى أكثر مما ألقى الى به من محاضرات دراسية ، ذلك لأنى لا أحب أن أسحب من انفى بمعرفة المسئولين أو المؤلفين العجائز ، ان « أبجد هوز » الأبجدية لن تخدم أغراضى » وعندئذ تمسك بالقلم وتستمر فى لجانة وعدم ترو ساذج ، لتؤكد للعالم أن جهلها أكثر رقة مما يمكن تصوره . انها رأت فقط دى كارتس (١) وهوبس (٢) ولم تسألها عن شىء ، انها حقا دعت مستر هوبس الى الغداء ولكنه لم يحضر ، وهى عادة لا تنصت الى ما يقال لها من كلام ، انها لا تعرف أية كلمة فرنسية على الرغم من أنها عاشت فى الخارج خمس سنوات ، انها قرأت فقط عن الفلاسفة القدامى فى تقرير لمستر ستانلى عنهم ، أما بالنسبة « لى كارتس » فلم تقرأ سوى نصف أعماله عن العاطفة ، وبالنسبة « لهوبس » فلقد قرأت الكتاب الصغير المسمى « الكرات » (٣) ، ليس غير وكله عن أمور تتلاءم مع ذكائها الفطرى ، الوفير لدرجة أن أى مساعدة علمية خارجية فيها ايلام لها أنها أمينة جدا لدرجة أنها لا تقبل معونة من الغير وبناء على صراحتها المبنية على الجهل المطبق وتبعاً لأرض ادراكها التى لم تفلح لتصبح صالحة للزراعة ، اقترحت اقامة نظام فلسفى يبرز فلسفة الآخرين والنتائج لم تكن فى مجموعها سعيدة وتحت ضغط مثل هذا التكوين الفذ - وهو هبتها الطبيعية - وخيالها الرقيق المتجدد الذى قادها فى أول مجلد لها لتكتب برشاقة عن الملكة ماب وأرض الجان ، سحق كيانها من الوجود

وقصر الملكة حيث تقيم
لبناته مزجت من الأصداف
وقوس معلق رفيع من القزح
يبهر الأنظار لأول من يلج

Des Cartes. (١)

Hobbes. (٢)

De Cive. (٣)

غرفاته أقيمت من الكهرمان المصفى
يتضوع أريجه اذا قربت منه نار
ومضجها من نوى الكريز محفور
وعلى جناحي فراشة فهو معلق
ومن جلد حبات عيون الحمام مفروش
ومن براعم البنفسج ملئت وسائده

هكذا كانت تكتب عندما كانت صغيرة ولو كانت -بنياتها على قيد الحياة
لتحولت الى فرس البحر وقد لببت رغباتها بسخاء

امنحنى الانطلاقة فى الأسلوب والنبيل
حتى ليبدو جامحا وان كان طائشا

ثم أصبحت غير قادرة على الغزارة فى الانتاج والالتواء والغرور ومن
بين هذا الانتاج القطعة التالية وهى - وان كانت من قصار القطع - فانها
ليست أكثرها ترويعا

والرأس البشرية كالمدينة فى التشبيه
الفم المليء فيها كيوم أقيم فى السوق
واذا خلا فالسوق بعد انفضاضه
وحركة المدينة كمجرى المياه عليه صنبوران
فكأنها الأنف وفيها الطاقتان

ان تشبيهاتها فيها دائما نشاط وتباين ، فالبحر يصبح مرجا
والبحارة رعاة ، وصارى السفينة كعمود الحصاد(١) . الذباب طيور انصيف
والأشجار هم أعضاء مجلس الشيوخ ، والبيوت سفن ، وحتى الجنيات التى
تحبها أكثر من أى شىء على الأرض فيما عدا الدوق تحولت الى ذرات باردة
وذرات حادة وهن يأخذن دورهن فى مناورات يسعدها أن تسير بها العالم .
وفى الواقع « سيدتى التى لا مثيل لها كانت تتمتع بذكاء غريب . وأسوأ
من ذلك فانها تحولت - وبغير أى قدرة من قدرات الفن المسرحى - تحولت
الى كتابة المسرحيات لقد كانت عملية مبسطة فالأفكار التى تنوء بها

والتي تحولت وانقلبت في داخليتها شخصيات سمتها مثل السير الغنى الذهبى (١) ومول الوضيعة التربوية (٢) وسير الكلب انصغير (٣) والآخرين ، وجعلت تلك الشخصيات تحاور بعضها البعض محاورات مملة عن أجزاء الروح و عما اذا كانت الفضيلة أحسن من الغنى ومحاورات حول سيدة ذكية متعلمة تصحح مغالطاتهم في اسهاب بأصوات تبدو وكأننا سمعناها من قبل

وأحيانا - وعلى كل حال - كانت الدوقة تمشي خارج الأسوار في شخصيتها الطبيعية وتزين بألف من الأحجار الكريمة في زينة متبهرجة لكي تزور منازل جيرانها من الأعيان . ووضع قلمها تقارير في حينها عن تلك الزيارات وسجلت كيف أن السيدة س . ر . « قد ضربت زوجها في مجتمع عام » . سيدى ف . أ . « انى آسفة أن أسمع أنه حط من قيمة نفسه أقل من مولده و ثرائه بزواجه من خادمة مطبخه » « الأنسة ب . ي . أصبحت روحا مقدسة أختا روحية ، أهملت تصفيف شعرها أقلعت عن زخرفة ملابسها (بالكلف) ، والأحذية ذات الدنتيل هي خطوات للكبرياء وسألتنى أى وضع أعتقد أنه أفضل للصلاة » وربما كان جوابها غير مقبول اننى لن أذهب الى هناك مرة ثانية « هكذا قالت وهى تثرثر بالحديث . انها ليست - كما يمكن أن نقول - ضيفا مرغوبا فيه ولا كانت مضيفة كريمة كانت لها طريقة « فى التفاخر بنفسها » أزعجت الزوار ولذا هجروها ، ولم تكن آسفة وهى تراهم يذهبون . وفى الحقيقة « ويلبك » كان أفضل مكان لها وأحسن رفيق لها هو مصاحبة نفسها مع الدوق المحبوب يتجول فى الداخل وفى الخارج يحمل مسرحياته وتأملاته ، اذ كان دائما على استعداد ليحيب على سؤال أو يفند وشاية ربما تلك الوحدة هى التى قادتها - وخاصة أنها كانت طاهرة فى سلوكها - لأن تستعمل لغة بمرور الوقت - أقلقت سراجيرتون بريدجز « (٤) كثيرا شكرا من أنها استعملت « تعبيرات وصورا بخشونة وفضاظة غير عادية خاصة أنها صادرة من امرأة ذات مركز رفيع نشأت فى البلاط » ونسى أن هذه الأنثى بالذات أقلعت عن التردد على البلاط منذ زمن بعيد ، وأن أغلب اتصالها كان بالجنيات ، وأصدقائها كانوا من الأموات ، فطبعي أن تكون لغتها فظة خشنة وعلى الرغم من أن فلسفتها كانت تافهة ، ومسرحياتها

Sir Golden Riches. (١)

Moll Mean bred. (٢)

Sir Puppy Dogman. (٣)

Sir Egerton Brydges. (٤)

كانت غير محتملة ، وأغلب شعرها كان كثيبا ، وأوسع مجموعة صدرت من الدوقة تخمرت في نار حقيقية - فالمرء لا يملك الا أن يتتبع اغراء شخصيتها الضالة المحبوبة كما تعرج وتلمع في الصفحة بعد الصفحة هناك شيء نبيل فيه نكران للذات وروحانية ، الى جانب عقل مفكك وأحلام العصافير بساطتها واضحة ، ذكاؤها نشط جدا ، اشفاقها على الجنيات والحيوانات صادق رقيق، لها وسوسة الجنية ، ومسئولية مخلوق غير انساني ، هي وان كانت لا قلب لها الا أنها جذابة وعلى الرغم من « أنهم » أى هؤلاء النقاد غير المحتملين الذين استهزءوا بها وسخروا منها منذ كانت فتاة خجولا فانها لم تجرؤ على أن تنظر في وجه معذبيها في البلاط واستمروا يسخرون منها وقليل من نقادها بعد كل ذلك هم الذين لديهم من الذكاء ما يجعلهم يهتمون بطبيعة الكون ، أو يهتمون بآلام الحيوانات أقل اهتمام ، أو يتوقون كما تآقت هي لتحدث مع « المغفلين في مسرحيات شيكسبير » والآن وعلى أى حال لم يكن الضحك دائما في صفهم ولكنهم ضحكوا فعلا فعندما انتشرت الاشاعة أن الدوقة المجنونة ستحضر من « ويلبك » لترفع ولاءها للبلط تجمهر الناس في الطرقات لينظروا اليها وفضول مستر بيبس(١) دفعه مرتين الى الحديقة ليراها وهي تمر • وكان ضغط الزحام حول عربتها شديدا جدا ولذا لم يتمكن الا من نظرة سريعة وهي في عربتها المفضضة ومن حولها السياس في ملابسهم من القטיפه وهي تضع قبعة من القטיפه على رأسها وشعرها منسدل على أذنيها ورأى في لحظات من بين الستائر البيضاء « وجه امرأة جميلة جدا » وتقدمت بين المتزاحمين المشدوهين من العامة يتدافعون لينعموا بنظرة من تلك المرأة الحاملة ، التي تقف في صورتها في « ويلبك » بعينين واسعتين يملؤهما الحزن ، وشيء صعب ارضاءه وخيالي في مقامها تريح أطراف أناملها الدقاق الطوال على منضدة في اصرار هادىء على شهرة أبدية

جولة حول ايفيلين (١)

إذا أردت أن تكون على يقين من أنه سيحتفل بعيد ميلادك بعد ثلاثمائة عام من الآن ، فإن الطريقة المثلى لتحقيق ذلك هي بغير شك أن تكتب يومياتك ، فما عليك الا أن تكون متأكدا من توافر الشجاعة لأن تغلق عبقريتك في كتاب خاص ومن المهازل أن الشهرة التي ترنو اليها لن تتحقق لك الا بعد الوفاة وذلك لأن كاتب اليوميات الأصيل اما أنه يكتب لنفسه وحدها واما أنه يكتب الى خلف بلغ من البعد درجة تجعله يطلع على كل سر دون حرج . وأن يكون هذا الخلف منصفًا مقدرًا الدوافع . وعلى ذلك فليس هناك حاجة اذا الى التصنع ولا الى الالتزام عند الكتابة لمثل هذا الجمهور الاخلاص هو كل ما تتطلبه المذكرات الى جانب التفاصيل وغزارة المعلومات ، ان المهارة في الكتابة هي المناسبة في هذا المقام بينما التأنق غير مطلوب بل قد تصبح العبقرية عائقا ؛ واذا كنت تعرف واجبك وتؤديه في رجولة فان الخلف سيجعلك تندمج مع الرجال العظام وكأنك كنت تقدم تقريرا عن الأمور الهامة أو سيضعك مع السيدات الاوائل على الأرض اللائى كان له معهن أمور

ان اليوميات التي من أجلها نحتفل بالعيد المئوى الثالث لميلاد جون ايفيلين هي فى ذاتها قضية تشهد بذلك انها تكون أحيانا على صورة مذكرات وأحيانا أخرى مقيدة كأنها تقويم ولكنه لم يستعمل مطلقا صفحاتها ليزيح الستار عن أسرار قلبه وكل ما كتبه من الممكن قراءته بصوت مرتفع وبضمير مرتاح عند الأمسيات لأطفاله واذا كنا نعجب لماذا

(١) فى هذا المقال تعطينا فرجينيا وولف صورة للرجل الريفى الاصيل فى عصر اليزابيث ، فى حياته الاجتماعية والفكرية ثم تعقد مقارنة بين معايير السعادة فى ذلك العصر وبين معاييرها فى عصرنا وقد اتخذت مذكرات ايفيلين اليومية وسيلة الى ذلك (الترجمة)

نتكلف مشقة القراءة لعمل غير ملهم لرجل طيب يجب أن نعترف أولاً بأن اليوميات هي دائماً يوميات ، هي الكتب التي نقرأها في دور النقاهاة أو على ظهر حصان ، أو ونحن في قبضة الموت ؛ وثانياً ان هذه القراءة التي قيل عنها أشياء كثيرة رقيقة هي في أغلب الأحيان مجرد أحلام واسترخاء ، ونحن مستلقون على مقعد ومعنا الكتاب، ونحن نرقب الفراشات على زهور الداليا فهي عمل لا طائل تحته حتى أن ناقدنا واحداً لم يتحمل مشقة التحقق مما تحتويه ولن يجد المشتغل بالأخلاقيات سوى كلمة طيبة تقال عن هذا العمل ذلك انه سيجعل منه عملاً بريئاً ؛ وسوف يضيف أن السعادة ولو انها تنبع من مصادر تافهة فقد تكون سبباً في منع الناس من تغيير أديانهم أو قتل ملوكهم وبذلك تكون أقوى وأمضى من الفلسفة أو من منبر الوعظ

من الممكن جداً - وفي الواقع وقبل أن نقرأ الكثير من مذكرات ايفيلين - أن نحدد أين تفترق نظرتنا للسعادة عن نظرة الناس في عصر اليزابيث وبكل تأكيد فان الجهل هو أساس كل شيء جهلهم هم وسعة اطلاعنا بالنسبة اليهم ما من أحد يقرأ حكاية ايفيلين عن أسفاره الأجنبية دون ان يحسده في المقام الأول على بساطة عقله وفي المقام الثاني على نشاطه ولناخذ مثلاً بسيطاً عن الاختلاف بيننا وبينهم ، ان الفراشة تظل بلا حراك على زهرة الداليا رغم أن البستاني يدفع أمامه العربة الصغيرة التي تقص الحشيش ولكن دعه يضرب جناحي الفراشة بظل الجرافة فانها تنطلق طائفة في نفس اللحظة وكأنها كانت على أهبة الاستعداد * وعلى ذلك نطن أن الفراشة ترى ولا تسمع وهنا بغير شك نتساوى مع ايفيلين - ولكن عندما يقتحم المنزل ليحضر سكيناً وبهذا السكين يشرح رأس الفراشة كما فعل ايفيلين ، فانه لا يوجد رجل عاقل في القرن العشرين يمكن أن يستهويه مثل هذا الموضوع ولو للحظة من الزمن ويمكن أن يكون ادراك كل منا كفرد متساوياً في قلته مع ادراك ايفيلين ، ولكن ككل فاننا نعرف الكثير جداً لدرجة أن يتضاءل الحافز على المغامرات لاكتشاف خاص لا يفيد المجموع نحن الآن نلجأ الى دائرة المعارف لنحصل منها على ما نريد من معلومات لا كما كان يلجأ الانسان في عصر ايفيلين الى المقص ليقص به المعلومات التي تنشر في الجرائد والمجلات يجمعها ليرجع اليها عند الحاجة ؛ وأصبحنا بذلك نحصل في دقيقتين لا على كل ما كان يجمعه ايفيلين في حياته بأكملها فحسب بل على معلومات بلغت من الغزارة حداً لا نفكر معه مطلقاً في أن نحفظ بأية قصاصة من القصاصات عن أي موضوع لقد كان جاهلاً ومع ذلك كان على ثقة بأنه يمكنه أن يزيد بيديه لا من

معلوماته الخاصة فحسب وانما من معلومات الجنس البشرى ، فقد اندمج في كل الفنون والعلوم ، وجاب القارة (أوروبا) لمدة عشر سنوات، يحملق- في شغف لايمل - في النساء ذوات الشعور المرسله ومعهن الكلاب المدللة، وجمع نتائج وحدد معالم التأملات التي توازى الآن الاستماع الى ثرثرة العجائز وهن حول مضخة المياه في القرية وهن يقلن ان القمر أكبر حجما من المعتاد في هذا الخريف ولذا فلن ينمو نبات عش الغراب ، وزوجة النجار سوف تلد توأمين ولهذا يلاحظ ايفيلين - زميل الجمعية الملكية ورجل من خيرة المثقفين النبهاء - يلاحظ بعناية المذنبات وكل ما يثير للتطير ويعتقد أن ظهور الحوت في نهر التيمز فال شؤم ففي عام ١٦٥٨ شوهد حوت وفي هذا العام مات كرومويل « . ويبدو أن الطبيعة كانت قد أصرت على ان تنبه هؤلاء المتطيرين خلال القرن السابع عشر وتزيدهم ايمانا بخرافاتهم فأظهرت العنف والانحراف اللذين أقلعت عنهما الآن فثارت العواصف وارتفعت الفيضانات واشتدت التيارات وتجمد التيمز وسطعت النيازك والمذنبات في السماء واذا ولدت القطة في فراش ايفيلين فان كل واحدة من القطيطات الصغيرة تكون ذات ثماني أرجل وست آذان وجسمين وذيلين هكذا كانت معتقداتهم

واذا ما رجعنا الى موضوع السعادة فانه يبدو أحيانا أن هناك اختلافا لامفر منه بين أسلافنا وبيننا، وهذا الاختلاف هو أننا نستمد سعادتنا من مصادر تختلف عن مصادرهم اننا نقوم نفس الأشياء بمعايير مختلفة . وقد يرجع بعض ذلك الى جهلهم من ناحية والى علمنا من ناحية أخرى ولكن هل علينا أن نفترض أن الجهل يغير من الاحساس والعواطف ؟ وهل علينا أن نؤمن بأنه كان من الممكن أن يصبح عذابا غير محتمل أن نعيش في مودة وألفة مع الناس في عصر اليزابيث ؟ وهل كنا نجد انه من الضروري أن نبرح الغرفة بسبب عادات شيكسبير ؟ وأن نرفض دعوة الملكة اليزابيث للغداء ؟ ربما كان كذلك لأن ايفيلين وهو الرجل المتزن ذو الرقة غير العادية ، كان يهرع الى غرفة التعذيب ليشاهد هذا التعذيب تماما كما نتزاحم نحن لنرى الأسود في حدائق الحيوان واللحم يلقي اليها

« فهم يقيدون معصميه أولا بحبل متين او بسلك ثم يربطون نهايته الأخرى في حلقة مثبتة في الحائط على ارتفاع نحو أربع أقدام من الأرض ثم يقيدون قدميه بسلك آخر ويثبتونه في الأرض على مسافة خمس أقدام أبعد من نهاية

طول الرجل « وهكذا يصبح الرجل معلقا في وضع مائل ويضعون حصانا خشبيا تحت الحبل الذي يربط قدميه وهذا ليشد الرجل لمسافة أطول وهكذا تتمزق أوصال الرجل وبعد ذلك يفك وثاقه ويصبح في حالة من البؤس ويجرونه وقد تمدد طوله ولا يغطي جسده العارى سوى قطعتين من التيل

وهكذا يشهد ايفيلين هذا المنظر حتى النهاية ثم يعلق على ذلك بقوله « ان المنظر كان غير مريح لدرجة أنني لم أستطع أن أبقى لمشاهدة غيره » كما نقول ان الأسود كانت تزار بشدة ومنظر اللحم النيء غير سار لدرجة أن نهرع بعيدا لنشاهد طائر البطريق وبغض النظر عن عدم راحته فان هناك مفارقات كثيرة بين نظرته هو نحو الألم ونظرتنا نحن تجعلنا نعجب ونتساءل هل نرى أى واقعة بنفس نظرتهم وهل كنا نتزوج أية امرأة لنفس الدوافع ، أو أن نحكم على أى سلوك بنفس المعايير - كأن نجلس في جمود عندما تتمزق عضلات وتتكسر عظام دون أن نجفل وذلك عندما يزداد ارتفاع الحصان الخشبي ويحضر الجلاد قرنا (كان يستعمل قرن الحيوان كوعاء في ذلك الوقت) ويصب به في جوف الرجل دلوين من الماء ليعذب ذلك المظلوم لمجرد أنه اشتبه فيه في جريمة نشل أنكرها الرجل كل هذا يبدو وكأنه وضع ايفيلين في قفص من هذه الأقفاص حيث تعزل رعا ع هوائت شابيل عقليا انه واضح أننا فهمنا تلك العقلية بطريقة خاطئة واذا كنا نقدر أن نتمسك بأن احساسنا بالتعذيب وحبنا للعدل والانصاف كانا برهانا على أن غرائزنا البشرية قد تطورت تطورا راقيا ، فعندئذ يمكننا القول بأن العالم يتقدم ونحن معه . ولكن دعنا الآن نسير مع اليوميات *

في عام ١٦٥٢ ، عندما بدا أن الأمور قد استقرت بشكل غير مرض ، كل شيء في يدى الثوار تماما ، عاد ايفيلين الى انجلترا مع زوجته ولوحاته القديمة وبللور فينسيا وبقية تحفه ، ليحيا حياة الرجل الريفى المؤمن بالملكية فى دبتفورد (١) يذهب الى الكنيسة ويزور المدينة ويراجع حساباته ويفلح حديقته « لقد زرعت الحديقة فى سايز كورت عندما حل الشهر الجديد والرياح شرقية » . لقد كان وقته مشغولا كوقتنا . ولكن مع فارق واحد يصعب تصويره من مجرد فقرة واحدة نقتبسها

ذلك لأن البرهان متناثر في عبارات قليلة المغزى ان المغزى العام لها أنه يستعمل عينيه ان العالم المرثى كان قريبا دائما منه بينما تراجع العالم المرثى بعيدا عنا لكي نسمع كل هذا الحديث عن المباني والحدائق والتماثيل والنحت كما لو كان مرأى الأشياء يقابل المرء خارج المنزل كما يقابله في عقر داره ، ولم يضق ذرعا بلوحات قليلة معلقة على الحائط وهي لوحات تبدو غريبة

مما لا شك فيه أن لنا آلاف من الأعذار فيما بيننا من خلاف ولكن هنا كنا نحاول أن نحدد له اعذارا وحيثما توجد لوحة يمكن رؤيتها لجوليورومانو (١) أو بوليودور (٢) أو جيدو (٣) أو روفاييل (٤) أو تينتوريتو (٥) أو منزل شيد بأناقة أو منظر حديقة منسقة تنسيقا راقيا، كان ايفيلين يوقف عربته ليتمتع بها ثم يفتح يومياته ليسجل رأيه فيما رأى

في ٢٧ أغسطس كان ايفيلين مع الدكتور رن (٦) وآخرين في ساحة القديس بول « البلا المتفشى في هذه الكنيسة العريقة الموقرة » ؛ اعتقد - مثل الدكتور رن - في رأى آخر يختلف عن الباقيين ؛ وفكر في أن يبنيتها « وبها قبة شامخة ، في صورة مبنى كنسى لم تعرفه انجلترا بعد ولكنها ذات وقار وجلال » رضى عنها الدكتور رن وبعد ستة أيام غير حريق لندن من خطتهما ان ايفيلين مرة أخرى نظر بالمصادفة - وهو يسير بمفرده - من خلال شباك « مبنى متواضع لكنيسة حيث رأى في حرم الكنسية » رجلا شابا ينحت تمثالا للمسيح المصلوب فتملكته الحماسة التي ملأته بالثقة فحمل « جرنيلينج جيبونز (٧) » وأدوات نحته ليعمل في البلاط

انه شيء حسن - فعلا - أن يكون المرء مدققا فيما تعانیه الديدان وحساس لمستحقات الخادمت ولكن كم يكون سارا كذلك اذا كان المرء يمكنه - وهو مغمض العينين - أن يتذكر الشوارع ذات المنازل الجميلة

Julie Romano.	(١)
Polydore.	(٢)
Guido.	(٣)
Raphael	(٤)
Tintoretto.	(٥)
Dr. Wren.	(٦)
Grinbng Gibbons	(٧)

شارعا بعد شارع ان الزهرة حمراء والتفاح ذهبي بلون الورد تحت أشعة شمس الأصيل ، وللصورة فتنتها ، وخاصة اذا كانت تعرض أخلاق جد أو تعظم أسلاف العائلة من خلال مثل هذا التجهيم وانما كل هذه أجزاء متناثرة بقايا صغيرة من جمال في عالم نما في قدارة لاتوصف وأما عن اتهامنا اياه بالقسوة فان ايفيلين يمكن أن يرد على ذلك بالإشارة الى بايزووتر (١) وحواف أحراش كلابام (٢) واذا كان عليه أن يؤكد عدم وجود شيء على خلق أو ايمان أو انه لا يوجد فلاح في انجلترا ينام والى جوار فراشه كفن ليذكره بالموت فاننا لا يمكن أن نرد عليه ردا مقنعا . حقيقة ، اننا نحب الريف ان ايفيلين لم ينظر اطلاقا الى السماء .

ولكن لنعد الى اليوميات بعد عهد الاصلاح يبرز ايفيلين وفي حيازته الكاملة مختلف المشروعات التي تبدو ملفتة للنظر في عصرنا الملى بالمتخصصين لقد كان يشتغل في أعمال عامة ، وكان أمينا للسر للجمعية الملكية ، وكتب مسرحيات وأشعارا ، لقد كان المرجع في الحجة في الأشجار والحدائق في انجلترا وقدم تصميميا لاعادة بناء لندن ؛ بل لقد ذهب الى المناداة بتعفير شجر الليمون وتقليمه في حدائق سانت جيمس نتيجة - كما يقرر - لتجاربه وأفكاره ؛ لقد فوض في أن يكتب تاريخ حرب هولندا - وباختصار لقد بز كاتب قصيدة « الأميرة » وهوتنيسون الذي تنبأ في مناسبات عديدة بما يلي

(ملك تربية الثيران والخراف السمينة والحائز على جائزتها ومن أدخل زراعة البطيخ والأناناس ورئيس ما ينيف على الثلاثين جمعية للبر واصف طيور جوانو وحب القمح ورئيس جلسات محاكم الحى الذى لا يبزه أحد »

لقد كان هو كل ذلك كما شارك سير والتر (٣) في صفات أخرى لم يذكرها تنيسون (٤) فلقد كان - وليس لنا أن نشك في ذلك - مهمل بعض الشيء ، منتقدا قليلا على قليل من النخوة ، يثق في قدر نفسه نوعا ما كما كان باردا نوعا ما مع الناس ولكن ما هي الصفة التي يتحكم وجودها أو اختفاؤها في مشاعرنا ؟ قد يرجع بعض ذلك الى أن تلك الصفة غير المؤكدة لو سمينها نفاقا بالنسبة لمثل هذا الاسم الرنان لكان

Bayswoter	(١)
Clapham.	(٢)
Sir Walter.	(٣)
Tennyson.	(٤)

حكمتنا قاسيا ورغما عن أنه ذرف الدموع على عيوب عصره فانه لم يقدر أن يبقى بعيدا عن مصادرها « الغزل والدنس المترف في البلاط ومنظر مسز نيللي » وهى تطل على جدار حديقته مسترسلة فى حديث ودى جدا مع الملك تشارلس وهو واقف على الممشى الأخضر من أسفل وتسبب له بذلك ضيق حاد ومع ذلك لم يفكر فى أن يقطع الحديث فى تودد ويعود الى « فيلنتى المتواضعة الهادئة » التى كانت بطبيعة الحال قررة عينه واحدى أماكن السياحة فى انجلترا وعلى الرغم من حب ايفيلين لابنته مارى فلم يمنعه حزنه على وفاتها من عد العربات الخالية التى تجرها الخيول الست لكل فرد ممن حضروا الجنازة وصديقاته من النساء مزجن الجمال بالفضيلة حتى أنه تعذر علينا أن نثق فى ذكائهن فى الصفة وأخيرا مسكينة السيدة جودولفين التى مجدها باخلاص فى كتاب مؤثر عن سيرتها لقد كانت تحب الجنازات « واختارت كالعادة » أرفع قطعة من اللحم وأكثرها جفاجا « وكأنها ذات طبيعة ملائكية ولكنها لاتعرض صداقتها لايفيلين فى صورة مغرية انما هو ببس (١) الذى لخص لنا قضيتنا ضد ايفيلين ببس الذى قال عنه بعد تسلية صباح ممتع « أنه فى الرقة شخصية ممتازة ولا بد أن نسمح له بقليل من الغرور ؛ وقد يكون مغرورا حقا فهو رجل أسمى من الآخرين » ان الكلمات أصبن الصميم لقد كان شخصية ممتازة جدا ولكنه مغرور بعض الشيء

ان ببس هو الذى يدفعنا الى تفكير آخر محتم ، لا لزوم له وربما كان غير رحيم لم يكن ايفيلين عبقرىا بل ان كتاباته معتمة أكثر منها شفافة ؛ لا نجد فيها عمقا وليس فيها صولات العقل ولا انفعالات القلب الخفية انه لا يستطيع أن يجعلنا نكره قتل الملوك ولا غرام السيدة جودولفين بدون أسباب وانما هو يكتب يوميات ليس غير وهو يكتبها بعناية فائقة حتى عندما ينتابنا النعاس بطريقة أو بأخرى يبدأ السيد (الذى فقدناه) فى العمل - من خلال ثلاثة قرون مضت - عن طريق الشعور الحسى بالاتصال حتى انه ودون التركيز على شىء بعينه نتوقف عن الأحلام ونمسك عن الضحك ونتوقف لمجرد النظر ومع ذلك فاننا نأخذ ملاحظات طوال الوقت فمثلا حديقته كم كان اشمئزازه منها لطيفا وكيف كان نقده لاذعا لحداثق الآخرين وعندئذ نتأكد أن دجاج ضيعة سايس (٢) يبيض أحسن ببيض فى انجلترا ولم كانت قيادة

Pepys. (١)

Says. (٢)

القيصر لعربته بان دفاع نحو السور كارثة ؟ ويمكننا أن نحدس كيف كانت السيدة ايفيلين تنظف محتويات بيتها وتلمعها ؛ وكيف كان ايفيلين نفسه متبرما وكم كان يعتمد على اهتمامه بالشكليات ؛ لقد كان على استعداد دائما لاسداء النصيح ، وكان على استعداد كذلك ليقرأ أعماله بصوت مرتفع كان ودودا مريرا في حزنه ، ولكن بلا دموع ذلك ان الرجل بوجهه الطويل الحساس لم يكن من النوع الذي يذرف الدموع - ففي موت ابنه الصغير ريتشارد الذي كان آية في الجمال ، سجل كيف « بعد صلاة المساء دفن ابني الى جوار بقية اخوته من أبنائي الأعمام » انه لم يكن فنا ؛ ولا تبقى عباراته في العقل ؛ ولا تعيش أية فقرة من كتاباته في الذاكرة ، ولكن كطريقة فنية لها جاذبيتها فتسجيل المجريات اليومية بشيء من التفصيل ، والاشارة الى الناس اشارة عابرة لأنهم لن يرد لهم ذكر فيما بعد ، ثم السير نحو الازمات التي لا تقع ، وتقديم سير توماس براون لنا ولكن دون أن يتكلم ، كل هذا له سحره وعلى صفحات يومياته نرى رجالا طيبين ورجالا سييء السيرة معروفين ونكرات، يدخلون علينا الحجرة ويخرجون منها مرة أخرى اننا لا نكاد نلاحظ ضخامة العدد ثم يغلق الباب من دونهم ويختفون ولكن من آن لآخر فان رؤية طرف المعطف وهو يختفي يوحى بأشياء أكثر مما يمكن أن تقرره شخصية صاحبه لو أنها تكلمت وربما كان ذلك لأننا نفاجئهم على غرة لم يرد على خاطرهم أنهم سيذكرون بعد ثلاثمائة عام أو أنهم سيرون وهم يقفزون من فوق الباب أو وهم يلاحظون ، (مثلما لاحظ الماركيز أرجيل العجوز) - أن الحمام البري في البرج انما هو بوم وتتحول عيوننا بين صفحة وأخرى وعواطفنا ، نلتقى هنا وهناك بالكابتن راى (١) الحاد الطبع مثلا ، الغاضب دائما الذي كان يملك كلبا قتل عنزة ، والذي قتل صاحب العنزة ثم قتل حصانه عندما سقط في الهوة ثم نلتقى بالسيد صلاح الدين ، وبابنة صلاح الدين ، ويتلصق الكابتن « راى » فى جنوة لبيت ابنة السيد صلاح الدين حبه ؛ أما ايفيلين نفسه فقد تقدمت به السنون ، نراه وهو يسير فى حديقته فى ووتن ، وقد خفت حدة أحزانه وتعلق به حفيده ونسمعه وهو يلقي علينا باقتباسات من اللاتينية تخرج من بين شفثيه وقد تورقت شجيراته والفراشات تتباهى وتهيم بزهرات الداليا

ديفو (١)

ان الخوف الذى يراود مسجل التاريخ هو اكتشافه أنه انما كان يقيس أبعاد شبح وأنه كان مكرها على التنبؤ بقرب موته ، هذا الخوف لا وجود له فحسب عندما ندرس قصة روبنصون كروزو وانما كان مجرد التفكير فيه أمرا يستحق السخرية . وقد يكون حقيقيا أن عمر روبنصون كروزو كان سيكون مائتى عام فى الخامس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٩١٩ ولكن ما يثير التأملات المألوفة هو هل ما زال الناس حتى الآن يقبلون على قراءتها أو أنهم سيداومون على ذلك ، ان أثر القرنين يجعلنا نعجب أن روبنصون كروزو - القصة الخالدة - قد ظهرت فى الوجود فى مثل ذلك الوقت القصير ان الكتاب يشبه انتاجا دون اسم مؤلف انه انتاج جميل وليس من يراع كاتب بمفرده واذا كنا سنحتفل بذكره المئوية فكأننا نفكر فى الاحتفال بذكرى ستون هنج(٢) ذاتها وقد نعزو ذلك الى الحقيقة الواقعة وهى أن هذا الكتاب قرىء لنا ونحن أطفال وبذلك أصبحنا فى حالة عقلية تجاه ديفو وقصته تماثل نظرة الاغريق الى هومر . لم يخطر على بالنا مطلقا ان هناك شخصا اسمه ديفو ولم يخبرنا أحد بأن روبنصون كروزو انما هو من انتاج رجل رسمه لنا بقلمه ، ان مثل هذا الخاطر كان كفيلا بأن يحدث اضطرابا غير مقبول فى نفوسنا ولم يكن ليعنى شيئا على الاطلاق ان انطباعات الطفولة من النوع الذى يبقى طويلا ويحفر فى الذاكرة بعمق ولا زال يبدو كأن اسم دانييل ديفو ليس له الحق لأن يظهر الى جوار روبنصون كروزو على الصفحة الأولى واذا كنا نحتفل بمرور قرنين من الزمن على صدور هذا الكتاب فاننا بذلك نشير اشارة خفيفة لا لزوم لها الى حقيقة ضخمة واقعة كما لو كنا نقرر ان ستون هنج لا زالت باقية

Daniel Defoe (١)

Stonehenge. (٢)

ان شهرة الكتاب التي طبقت الآفاق لم تنصف مؤلفه فهي قد أعطته نوعا من المجد المجهول الذي أنقى ظلالاته على حقيقة وهي أنه ألف كتباً أخرى - والحق يقال - أنها لم تقرأ لنا ونحن أطفال وعلى ذلك لم نكن نستغرب عندما ناشد محرر « العالم المسيحي » (١) في عام ١٨٧٠ « أبناء وبنات انجلترا » ليقوموا تذكارا على قبر ديفو - الذي شوهته نزلة صاعقة وأن يطالب بأن يكون محفوراً عليه هذه الكلمات لذكرى مؤلف روبنسون كروزو مغفلين مول فلاندرز (٢) واضعين في الاعتبار الموضوعات التي تعرض لها في هذا الكتاب وفي روكسانا (٣) وكابتن سنجلتون (٤) والكولونيل جاك (٥) وبقية الكتب وان كان هذا النداء بهذا الشكل قد زاد من حنقنا لهذا الاغفال وقد نتفق مع مستر رايت (٦) - محرر سيرة ديفو - أن هذه ليست أعمالاً للتسلية حول المنضدة ، ولكننا لا نقبل أن نجعل من هذه القطعة الهامة من الاعمال محكما لا معقب من ورائه على الذوق فانه يجب علينا أن نأسف على الواقع وهو سطحية الأعمال المحسنة أو على أن الشهرة العالمية لروبنسون كروزو قد أدت بهذه الأعمال لأن تكون أقل انتشاراً في الشهرة مما هي جديرة به . وعلى أي تذكار - يستحق أن يعتبر تذكارا - يجب أن يحفر اسماً مول فلاندرز وروكسانا على الأقل عميقاً كاسم ديفو . فهما يقفان بين القصص الانجليزية القلائل التي يمكن أن نصفها بدون مجادلة أنها عظيمة وأن مناسبة القرنين اللذين مضيا على شقيقتهما الأكثر شهرة (روبنسون كروزو) قد تؤدي بنا الى أن نفكر أين تكمن عظمتاهما اللتان تشبهان كثيراً عظيمة ديفو

كان ديفو رجلاً كبير السن عندما أصبح قصاصاً ، سابقاً على ريتشاردسون (٧) وفيلدنج (٨) لعدة سنوات ، وكان واحداً من القصاصين الذين يشكلون القصة عن جدارة ويسيرونها في طريقها الصحيح ولكن ليس بالضروري أن نجهد أنفسنا لتقصي حقيقة أسبقيته باستثناء أنه

-
- | | |
|----------------------|-----|
| The Christian World. | (١) |
| Moll Flanders. | (٢) |
| Roxana. | (٣) |
| Captain Singleton. | (٤) |
| Colonel Jack. | (٥) |
| Mr. Wright. | (٦) |
| Richardson. | (٧) |
| Fielding. | (٨) |

بدأ فى كتابة القصة وهو متأثر بآراء معينة عن الفن ترجع بعض أسبابها الى كونه شخصيا واحدا ممن مارسوها فهو يرى أن على القصة أن تبرز وجودها بأن تقص علينا قصة حقيقية وتدعو الى روح صحيحة يقول فى بعض ما كتب « أما تقديم قصة من الخيال فهذا جريمة جد فاضحة وهو نوع من الكذب الذى يفتح ثغرة فى القلب تنفذ من خلالها الأكاذيب بعد استمرائها » وعلى ذلك نرى ديفو - سواء فى المقدمة او فى متن القصة يعانى وهو يصر على أنه لم يلجأ الى خياله أو الى الاختراع بل نراه يعتمد على الوقائع مؤكدا أن هدفه من وراء ذلك الرغبة السامية فى هداية العاصى وتحذير البرىء ومن حسن الحظ أن هذه المبادئ كانت تناسب تماما مزاجه الطبيعى وملكاته ان الوقائع قد خبرت نفسها فى داخله خلال الستين سنة التى قضاه فى حظ متعثر قبل أن يحول تلك الخبرة الى التأليف فقد كتب يقول « لقد لحصت منذ وقت مضى أحداث حياتى فى هذين البيتين من الشعر »

اختصنى الحظ القلب دون غيرى من البشر

فمن فقر الى غنى ثم الى فقر ثلاث عشرة مرة

لقد أمضى ثمانى عشر شهرا فى سجن نيوجيت (١) والتقى باللصوص والقراصنة وقطاع الطرق والمزيفين قبل أن يكتب مول فلاندرز ولكن ان تلقى اليك الوقائع بقوة دفع الحياة أو بالمصادفة فهذا شئ ، وأن تزدردتها بنهم ونستبقى انطباعاته عنها بحيث لا تمنحى فهذا شئ آخر انه ليس مجرد علم ديفو بوطأة الفقر أو أنه تحدث الى ضحاياها ، وانما الحياة المجردة تعترضها الظروف فتكره على التحايل لكى تبقى هى التى استهوته لكى يتخيل أنها المادة الصحيحة لفنه ففى الصفحات الأولى فى كل قصة من قصصه العظام نراه يخضع البطل أو البطلة لحالة من البؤس القاسى لدرجة أن استمراره فى الحياة معناه صراع مستمر وبقاء أبطاله وصمودهم انما هو نتيجة لحسن الحظ واجهاد النفس

ولدت مول فلاندرز من أم مجرمة فى سجن نيوجيت ، وخطف كابتن سنجلتون وهو طفل وبيع للغجر ؛ وعلى الرغم من أن الكولونيل جاك « ولد كريم المحتد فانه تتلمذ على يدي نشال » كما بدأت روكسانا حياتها تحت حماية أفضل ولكنها وقد تزوجت فى الخامسة عشرة فاننا

نرى زوجها وقد أفلس ثم هجرها ومعها أطفالها الخمسة في « حالة من البؤس والشقاء تعجز الكلمات عن التعبير عنها »

وعلى ذلك كان لكل هؤلاء الرجال والنساء عالم يواجهه ومعرفة يناضل فيها من أجل نفسه ان الموقف الذى خلق اذا يتلاءم كل الملاءمة مع ميول ديفو فمنذ ولادة مول فلاندرز - أو قد يمهلها ستة أشهر على الأكثر - يسيطر عليها - وهى أكثر شخصياته وضوحا - « أسوأ الشياطين وهو الفقر، لقد أكرهت على أن تكسب عيشها بمجرد أن أصبحت قادرة على الحياكة ، ثم نزحت من مكان الى مكان ، دون أن تطالب للمؤلف خالقها بأن يهيئ لها جوا مؤنسا كان عاجزا عن أن يمدها به ، ولكنها تتقرب منه ليضع فيها كل ما يعلمه عن غرباء الناس وعاداتهم فمنذ البداية وعبء اثبات حقها فى الوجود ملقى على عاتقها . فعليها أن تعتمد كلية على فطنتها وحكمها على الأشياء وأن تعالج كل ضرورة تصادفها بما لديها من براعة نفسية انصهرت فى رأسها . ان حيوية القصة انما تعود فيما تعود اليه الى حقيقة وهى أن مخالفة القوانين المألوفة فى سن مبكرة أعطاهها حرية الخروج على القانون ان الواقع المستحيل والوحيد هو استقرار مول فلاندرز وبقاؤها فى أمان كما انها منذ البداية تفرض عبقرية المؤلف الحارقة نفسها وتتجنب الخطر الواقع من قصة المغامرات فانه يجعلنا ندرك أن مول فلاندرز امرأة تعتمد على نفسها وليست مجرد مادة للأحداث والمغامرات . ولكى يبرهن على ذلك بدأت - كما بدأت روكسانا - بأن تقع متدلها فى الهوى وان كان حبا غير سعيد وأنها لا بد أن تهين نفسها لتتزوج شخصا غيره ثم تتلمس عن كسب تسوية أمورها ومطامحها وهذا ليس بالأمر الهين على عاطفتها وان هان عليها أن تلام على حقارة أصلها، ومثل كل نساء ديفو فهى انسانية عميقة الفهم ولما كانت لا تتورع عن اطلاق الكذب ما دام يحقق مصالحها فان صدقها - عندما تقرر الحقيقة - لا يكون محلا لانكار وليس لديها متسع من الوقت لتضيقه فى العواطف الشخصية المهذبة ، فلم يمهلها ديفو الا لكى تذر فدمعة واحدة، والا للحظة واحدة من اليأس ثم « يستمر فى القصة » لها روح تجعلها تهوى تصدر العاصفة وهى تجد لذة وهى تمارس قدراتها وعندما تكشف لها الحقيقة المروعة وهى أن الرجل الذى تزوجته فى فرجينيا انما هو أخوها اشمازت بعنف وصممت على الابتعاد عنه ولكن بمجرد أن نزلت فى

بريستول (١) « فكرت فى أن أسرى عن نفسى بالذهاب الى باث (٢) وذلك مادام لا يزال أمامى متسع من الوقت قبل أن يصيبنى الهرم فان نفسى المرحة استمرت فى مرحها حتى بلغت المنتهى » ولم تكن بلا قلب، ولا يمكن لأحد أن يتهمها بالطيش وانما الحياة نفسها تسعدها وهى بطلة تحيا حياتها وتأخذنا فى دوامتها فضلا عن ذلك فان مطامحها فيها شىء من الخيال الذى يضعها فى مرتبة العواطف النبيلة انها ذكية وعملية عندما يقتضى منها الموقف ذلك تملكها رغبة فى الغرام وتستحوذ عليها الصفة التى تجعل من الرجل - حسب ادراكها - سيدا لقد كتبت عندما ضللت قاطع طريق عن مقدار ثرائها - كتبت تقول « لقد كان فعلا رجلا شهما وهذا ما جعل الأمر أشد ايلاماً لى وأنه لما يثلج الصدر أن يغرر بى رجل كريم المحتد أفضل من أن يغرر بى رجل وضيع » وتمسكها بهذا المزاج جعلها تفخر بآخر شريك لها لأنه رفض العمل - عندما وصلا الى المزرعة - وفضل الخروج للصيد لدرجة أنها كانت تجد متعة وهى تشتري له الشعر المستعار والسيوف ذات المقابض من الفضة « لتجعله يبدو - كما بدا فعلا - أنه حقا رجل رفيع » وحبها الشديد للجو الحار أيضا كان يناسب هذا المزاج كما يناسب عاطفتها التى دفعتها لأن تقبل التراب الذى سار عليه ابنها ، وكذلك تحملها الكريمة لكل صنوف الأخطار طالما أن هذه الأخطار ليست « انحطاطا كاملا للروح ، أو مجرد سيطرة أو قسوة أو جعلها عديمة الرحمة عندما تكون لها اليد العليا ودينئة سافلة عندما تكون فى الحضيض » وبالنسبة لبقية العالم فليس لديها نحوه الا كل خير

طالما أن هذه قائمة الصفات والفضائل التى تتحلّى بها تلك العاصية المرحة التى لا تنتهى بأية وسيلة فاننا نفهم تماما كيف أن بائعة التفاح - التابعة لبورو (٣) - التى كانت تباع تفاحها على كوبرى لندن - لقيتها « ماري المباركة » وقومت كتابها بأثمن من جميع التفاح الذى تملكه ؛ وكان بورو نفسه يأخذ كتاب مول فلاندرز ويقبع داخل « المخزن » ويظل يقرأ حتى تؤلمه عيناه . ونحن نستند الى مثل هذه المعالم للشخصية للتدليل على أن خالق مول فلاندرز لم يكن - كما سبق أن أتهم - مجرد صحفى أو مسجل حرفى للوقائع دون فهم للطبيعة والنفوس حقا ان شخصياته

Bristol. (١)

Bath. (٢)

Borrow's apple-woman. (٣)

تأخذ شكلها ومادتها على طريقتهما الخاصة كما لو كانت قد وجدت رغماً عن المؤلف وأنها جميعاً لا تعجبه فهو لا يتوقف أو يركز على نقطة مميزة من فطنة أو شجن بينما يؤكد بجسارة كما لو كانت تلك الشخصيات قد جاءت دون علم منه لمسة من خيال كتلك اللمسة عندما يجلس الأمير الى جوار مهد ابنه وروكسانا تلاحظ كيف أنه يحب أن يرنو لىه عندما يكون نائماً » هذه اللمسة تعنى الشيء الكثير لنا أكثر مما تعنى بالنسبة اليه وطبقاً للرسالة الحديثة الغربية عن الحاجة الى الإفصاح عما يجول بالخاطر من أشياء هامة لشخص آخر لئلا نتحدث بها أثناء نومنا - كما فعل اللص في سجن نيوجيت عندما اعتذر عن انحرافه - يبدو أنه أخذ أفراد شخصياته بعمق في عقله حتى عاش معهم دون أن يدري كيف تم ذلك بالضبط وككل الفنانين الساهمين ترك ديفو كنوزاً في أعماله أكثر مما استطاع جيله ان يستخرج منها الى السطح

ان التفسير الذي يلقي الضوء على شخصياته يمكن أن يحيره هو فلقد وجدنا بأنفسنا معاني حرص ديفو على أن يخفيها حتى عن ذات عينيه . ومن هنا جاء اعجابنا بمول فلاندرز أكثر مما نعود عليها باللائمة اننا لم نصدق أن ديفو كان قد وطد العزم بالنسبة لتحديد مقدار ذنبها أو كان لا يدرك أنه عندما كان يقدر حياة المنبوذين أثار عدة تساؤلات عميقة وأشار - وان كان لم يقرر - الى اجابات مخالفة تماماً لمعتقداته ولما يؤمن به فمن الدليل المستمد من مقاله عن تعليم المرأة نعلم أنه كان يفكر تفكيراً عميقاً وسابقاً لعصره بكثير عن مدى قدرات النساء التي قدرها تقديراً عالياً وعن عدم الانصاف الذي وقع عليهن والذي تناوله بعنف

كنت دائماً أفكر أن هذه من أكثر العادات بربرية في العالم وباعتبار أننا دولة متحضرة متمدينة فكيف نفكر في حرمان المرأة من التعليم وكيف نغير الجنس كل يوم بالغباء وبالوقاحة ؟ واني لوائق أنهن اذا أتاحت لهن فرصة التعليم مثلنا فانهن سيكن أقل غباء ووقاحة منا »

ان المتولين حقوق النساء قد لا يهتمون أن يضيعوا مول فلاندرز وروكسانا من بين النساء القديسات ؛ ومع ذلك فانه من الواضح أن ديفو لم يتعمد أن يجعلهما يتحدثان عن مذاهب حديثة جداً في هذا الموضوع فحسب بل وضعهما في ظروف تكون فيها المصاعب التي صادقتهما غريبة معروضة بطريقة تثير عطفنا وقالت مول فلاندرز ان النساء ينقصهن الشجاعة والقدرة على الصمود للحوادث « ؛ وفي الحال قدمت عرضاً

عمليا عن الفوائد التي تنتج عن ذلك وتناقش روكسانا - وهي امرأة من نفس المهنة - بمهارة ضد عبودية الزواج فقال لها التاجر «انها بدأت شيئا جديدا في العالم» انها طريقة في الحديث تخالف العرف السائد» ولكن ديفو هو آخر كاتب يمكن أن ننتهجه بالوعظ المكشوف فقد استرعت روكسانا اهتمامنا لأنها لا تدرى - والحمد لله - أنها متخذة كنموذج لجنسها وبذلك فهي في حل لأن تكون مناقشاتنا على مستوى عال وهو في الواقع ما لم يكن يقصده ديفو بادىء الأمر على الاطلاق» ان معرفة نقط الضعف فيها والتساؤل الأمين عن دوافعها الذي يتولد عن هذه المعرفة، كان له الفضل في كونها متجددة مليئة بالانسانية بينما نرى أن شخصيات الكثير من القصص التي كانت تسمى بالقصص (١) ذات المشكلة انما هم شهداء ورواد ينكمشون ويتوارون فلا تبقى بعد ذلك الا الدعائم والأوتاد لمعتقداتهم النسبية

ان اعتماد ديفو على اعجابنا لا يرتكز على واقع ظهر بأنه شارك في بعض آراء ميرديث (٢) أو لأنه كتب فصولا كان يمكن أن تحول الى مسرحيات بمعرفة ابسن (وهذا الافتراض الغريب حدث) ومهما تكن آراؤه عن مركز المرأة، فان هذه الآراء جاءت نتيجة عارضة لفضيلة أساسية وهي أنه يتعامل مع الجانب الهام والدائم للأشياء وليس مع الجانب العابر أو التافه انه دائما جاد كئيب في امكانه تقليد الواقع الملموس بدقة الرحالة العالم حتى أننا لنعجب هل في استطاعة قلمه تتبع ما لم تقدر حجة الحقيقة على أن تلين من جفافه وهل في استطاعة عقله أدراك ذلك؟ انه يترك الطبيعة كلها وجانبها كبيرا من طبيعة البشر ويمكن لنا أن نقر بكل ذلك في الوقت الذي يجب أن نعترف فيه بعيوب خطيرة في كثير من الكتاب الذين نسميهم بالعظماء ولكن هذا لا يفسد القيمة الغريبة لما بقي وبتضييق مجاله وتحديد مطامعه منذ البداية حقق ديفو صدق السريرة التي هي أقل ندرة وأكثر استمرارا من حقيقة الواقع التي نجح

(١) انتشر في ذلك العصر كتاب قصصيون يعرضون في قصصهم الى مشكلة ويقدمون حلا لها ولذلك لم يكن الكاتب يكلف نفسه مشقة خلق شخصيات آدمية تنبض بالحياة، شخصيات من دم ولحم بل كان يخلق شخصيات جامدة يسخرها في حل المشكلة كما يراها هو ولذلك لم تخلد تلك الشخصيات مع الخالدين بل كانت تنكمش وتزول ولا تبقى الا المشكلة والحل الذي فرضه الكاتب « المترجمة »

Meredith. (٢)

في جعلها هدفه لقد زكت مول فلاندرز وأصدقائها أنفسهم لدى ديفولا لأنهم - كما يمكن أن نقول - شخصيات « بهيجة » ، ولا كما أكد هو أنهم أمثلة للشر الحى لكى يتعظ بها الناس بل لأن طبيعتهم الصادقة التى نشأت معهم فى حياة قاسية هى التى أثارت اهتمامه . ولم يكن لهم العذر ولا مأوى رءوم ليلقى الظلال على بواعثهم بل كان الفقر جلادهم ولم يعلن ديفو سقوطهم بأكثر من حكم شفوى بينما شجاعتهم ومعين صمودهم وتماسكهم أدخل السرور على نفسه فوجد مجتمعهم مليئا بالكلام المفيد والقصص السارة ، والايمان عند كل منهم ، ومغزى صنعته البيئية لكل منهم ان حظهم فى الحياة كان له الطابع المتقلب الذى صادفه واستطابه وأقام معه على عجب منه فى حياته نفسها . لقد كان لهؤلاء القوم رجال ونساء - قبل كل شىء - حركة الكلام المفتوح عن العواطف والرغبات التى حركت القدم منذ البداية ومع ذلك فلا زالوا يحتفظون بحيويتهم غير منقوصة ان العظمة توجد حيث توجد النظرة الصريحة الى كل شىء حتى الموضوع الوضيع - موضوع المال - الذى يلعب دورا هاما فى تاريخهم يصبح غير وضيع بل انه يصبح محزنا عندما يقف لا ليسهل الأمور وما يتبع ذلك من نتائج ، بل ليقف فى مواجهة الشرف والأمانة بل وفى مواجهة الحياة ذاتها فقد تعترض أن ديفو ممل أو عادى ولكن لا يمكن أن تعتبره مهتما بالأمور التافهة

انه ينتمى فى الواقع الى مدرسة الكتاب العظام الذين لا يتكلمون والذين شيدت أعمالهم على المعرفة لما هو دائم وليس فيها ما يعتبر مخادعا لطبيعة البشر ان منظر لنسدن من كوبرى هنجرفورد (١) مغبر جاد ومكتظ مليء بحركة المرور وحركة الأعمال يحكمها النظام ؛ ولولا مجموعة السفن والأبراج وقباب المدينة لكان منظرا مألوفا عاديا . هذا المنظر يعيده الى رشده والفتيات فى ملابسهن الرثة وهن يمسكن بالوشاح فى فى أيديهن وهن واقفات عند منعطف الطرقات والنساء اللاتى حط عليهن الدهر يعبثن بأعواد الثقاب فى صبر وانتظار أو وهن يعبثن بأربطة أحذيتهن متخذات من الأقواس مأوى لهن أولاء يظهرن كأنهن شخصيات من كتب ديفو انه من مدرسة كريب (٢) وجيسنج (٣) وليس عضوا ولا طالبا فى هذه المدرسة الجادة وانما مؤسس لها وناظر على تلاميذها

Hungerford. (١)

Crabbe. (٢)

Gissing. (٣)

أديسون (١)

فى يوليو ١٨٤٣ أعلن لورد ماكولى (٢) رأيه أن جوزيف أديسون قد زود أدبنا بتكوينات « سوف تبقى ما بقيت الانجليزية » • ولكن عندما أعلن اللورد ماكولى رأيه هذا لم يكن مجرد رأى وحتى اليوم وبعد مضي ستة وسبعين عاما لا زالت الكلمات تبدو وكأنها تخرج من فم الممثل الممتاز للشعب ويبدو كأنه ملك السلطة ، والاعلان الطنان ، والشعور بالمسئولية التى تدخل فى روعنا وكان رئيس الوزراء يصدر بيانا عن امبراطورية عظيمة أكثر مما هو بيان من صحفى يكتب عن رجل أدب متوفى كان يكتب لاحدى المجلات ان الفصل الذى كتبه عن أديسون هو فى الواقع مقال من مقالات قوية معروفة • مقال زاهر وفى نفس الوقت رصين تبدو عباراته وكأنها نقشت على ضريح فى ميدان زين باسراف بزهور الزينة التى تظلل أديسون مادامت أحجار «ويستمينستر آبى» (٣) باقية الواحدة فوق الأخرى ومع ذلك ، وعلى الرغم من أننا قد نكون قد قرأنا وأعجبنا بهذا المقال بالذات مرات لا تعد ولا تحصى (كما نقول عندما نقرأ أى شىء ثلاث مرات أو أكثر) ، فلم يحدث لنا ، للعجب ، أن صدقنا أن هذا صحيح • وذلك يمكن حدوثه للقراء المعجبين بمقالات ماكولى • فبينما تسرهم رشاقة المقالات وقوتها وتنوعها ويبدو لهم ان كل حكم فيها قاطع وسليم وفى محله فانه قلما يحدث لنا أن نربط بين تلك التصريحات الجزافية والأحكام المسلم بها وبين أى شىء دقيق مثل المخلوق البشرى

هكذا الحال مع أديسون • فقد كتب ماكولى يقول « اذا أردنا أن نجد شيئا أكثر حيوية مما فى تصورات أديسون العظيمة فعلينا أن نعود اما الى

(١) نشر هذا المقال فى عام ١٩١٩

(٢) Lord Macaulay.

(٣) Westminster Abbey.

شيكسبير أو سيرفانتس (١) « وليس لدينا أدنى شك لو أن أديسون كان قد كتب قصة على مجال أوسع لتفوق على كل ما لدينا من كتاب « مقالاته مرة أخرى « تؤهله لأن يكون في مصاف الشعراء العظام « ولكي نكمل البناء فلدينا فولتير (٢) أمير المهرجين ومعه سويفت (٣) فعليهما أن يدنيا من هامتيهما لكي يأخذ أديسون المرتبة التي تعلوهما ككاتب هزلي

وذاا فحصت أعمال أديسون منفصلة عن بعضها البعض لبدت مثل الحلى المنمقة غريبة الشكل وان كانت فى موضعها وهذه هى قوة التصميم المقنع ذلك انها جزء من الزخرفة نفسها تكمل الضريح وسواء دفن فيه أديسون أو غيره فانه ضريح جميل أما وقد مضى قرنان منذ أن وورى جثمان أديسون ليلا تحت ثرى كنيسة أبى فاننا - ودون فضل من جانبنا (نحن الذين لم نؤت من الفن والقدرة على اختيار وتنميق تلك المقبرة الخيالية وهى التى قد تكون خالية) قد أعطيناها نوعا من التكريم الظاهرى على مدى الستة والسبعين عاما ان تكوينات أديسون سوف تبقى حية ما بقيت الانجليزية، وما دامت كل لحظة تمر تأتى ببرهان أن لغتنا ممتلئة بالصحة والحيوية أكثر مما تبدو رزينة هادئة أو نقيية ظاهرة فعلينا اذا أن نقدر حيوية أديسون وليست الصحة ولا الحيوية صفة نستعملها لكي نعبر بها عن حالة مجلات تاتلر (٤) وسبكتيتير (٥) الآن واذا أجرينا اختبارا أوليا فانه من المحتمل أن نكتشف كم من الناس على مدار السنة استعاروا أعمال أديسون من المكتبة العامة وهناك مثال بالذات يمدنا بالمعلومات المثبطة وهو أنه خلال التسع سنوات استعار شخصان كل سنة الجزء الأول من الاسبكتيتير والجزء الثانى يطلب بأقل من الجزء الأول والتحقيق فى ذلك ليس سارا ومن بعض التعليقات المدونة على الهامش ومن العلامات التى وضعت بالقلم ندرك أن هؤلاء المخلصين انما يسعون وراء المقطوعات التى نالت الشهرة وكما هى عادتهم يؤشرون على مانعته بشجاعة أقل العبارات التى تستحق الاعجاب، واذا كان اديسون ما زال مرغوبا فى قراءة أعماله فهو ليس مرغوبا فيه

Cervantes.	(١)
Voltaire	(٢)
Swift.	(٣)
Tatler.	(٤)
Spectator.	(٥)

في المكتبات العامة انه يعيش في المكتبات الخاصة في عزلة عن العالم تظللها اشجار الليلاك وأصبحت كتاباته صفراء من القدم وكأنه لا يزال يتنفس بانتظام ووهن فاذا ما أراد رجل أو امرأة ان يتسلى اليوم بقراءة صفحة من أديسون قبل أن تغرب شمس يوم من أيام يونيو فان أديسون ينعم بمثل هذه العزلة

ومع كل فاننا على يقين أن هناك أناسا في أنحاء مختلفة من انجلترا ينشغلون بقراءة أديسون على فترات قد تكون متباعدة بصرف النظر عن السنة أو الفصل وذلك لأن اديسون يستحق القراءة بالفعل . ان الاغراء على قراءة ما كتبه بوب (١) عن أديسون أو ما كولى عن أديسون أو تاكارى (٢) عن أديسون أو جونسون (٣) عن أديسون فضلا عن قراءة أعمال أديسون نفسه ، هذا الاغراء يجب مقاومته وذلك لأنك سوف تجد اذا ما فحصت التاتلر والاسبكتيتتر وألقيت نظرة على مسرحية كاتو (٤) (مسرحية كتبها أديسون) ثم تصفحنا بقية الأجزاء الستة ذات الحجم المتوسط فسوف نجد أن أديسون ليس كما وصفه بوب أو أى شخص آخر وانما هو فرد مستقل بذاته لا زال قادرا على أن يصب لنفسه قالبا واضح المعالم من ناحية الوعى والعريضة وشروذ الفكر كما جاء فى كتاب (٥) ١٩١٩ حقيقة ان مصير الصفات الأخرى الأقل وضوحا غير مستقر دائما وذلك لأن مثل هذه الصفات تكون بكل سهولة مطموسة أو مشوهة وكثيرا ما يبدو أنه لا داعى للتغلغل فى عملية تقويم أعمال كاتب، وتحديد المعانى الانسانية فيها عندما نتعرض لكاتب من الدرجة الثانية الذى - بعد كل هذا - قد لا يكون لديه الا القليل مما يقدمه الينا لقد نصب معين أعماله وانمحت معالمها ، وقد لا تأتى فى قمة أحسن ما فى العصر وانما هى مجرد شقفة من قدر قديم وليست الصعوبة التى تصادف الكاتب الأقل شأنا - على أية حال - من ناحية المجهود فحسب وانما تكمن الصعوبة فى أن مستوياتنا قد تغيرت فالأمور التى كانت تستحوذ اعجابهم لا تعجبنا ؛ وما دام سحر كتاباتهم يعتمد على الذوق

Pope. (١)

Thackeray. (٢)

Johnson. (٣)

Cato. (٤)

(٥) نشر هذا الكتاب عام ١٩١٩ وهو الذى من أجله كتبت فرجينيا ودلف هذا

المقال تعليقا عليه

أكثر مما يعتمد على قوة الاقناع - فان تغييرا في آداب السلوك كاف جدا لأن يباعد بيننا هذا هو أحد الأسوار المزعجة التي تقف حائلا بيننا وبين أديسون انه يعطى أهمية عظمى لصفات معينة فله رأى دقيق فيما اعتدنا أن نسميه « اللطافة » في الرجل أو في المرأة انه مغرم الى أبعد حد بالدعوة الى أنه على الرجال ألا يكونوا ملحدين وعلى النساء ألا يرتدين قمصانا واسعة هذا لا يبعث فينا شعورا مباشرا بعدم الاستساغة بقدر ما هو احساس بالاختلاف ومن واجبنا أن نحمل أنفسنا على الخيال لكي ندرك الى أي نوع من القراء نوجه مثل هذه التعاليم . فقد نشرت التاتلر في عام ١٧٠٩ وصدرت الاسبكتيتر بعد ذلك بسنة أو بسنتين فماذا كانت عليه حالة انجلترا في ذلك الوقت بالذات ؟ لماذا كان أديسون حريصا على ضرورة وجود اعتقاد ديني محترم بهيج ؟ لماذا دأب يتعرض (وان كان برفق بصفة عامة) لنقط الضعف في النساء وكيف السبيل الى اصلاحهن ؟ لماذا كان عميق التأثير بشرور الحزب ؟ سوف يفسر أي مؤرخ كل ذلك ، وانما كان من نكد الحظ أن نلجأ دائما الى خدمات أي مؤرخ فالكاتب يمكن أن يقدم لنا حقيقة مباشرة ؛ والتفسيرات انما هي مزيد من الماء أضيف الى الحمر . والواقع أنه يمكننا أن نشعر أن ذلك النصيح موجه الى النساء اللاتي يستعملن الأطواق تحت ملابسهن والى السادة من الرجال الذين يرتدون الشعر المستعار ثم ينفض السامر ويتوجه كل لحال سبيله وقد حفظ الدرس ، كما انصرف الواعظ معهم اننا قد نبتسم وقد نتعجب من الملابس وقد نعجب بها .

وليست هذه هي الطريقة للقراءة أن نفكر أن الأموات يستحقون كل هذا اللوم ونعجب بتلك الأخلاق ونحكم على طلاقة اللسان التي نجدها باردة وهي رفيعة والفلسفة بالنسبة لنا قد تبدو سطحية وهي عميقة ، ولنحكم على سعادة جامع « الانتيكات » من واقع ما يشير اليه ما جمع ، أن معنى ذلك أن علينا أن نعامل الأدب كما لو كان قدرا قديما مكسورا لا ينكر عمره أحد وانما جماله محل شك ، كأننا نقف في خزانة خلف أبواب زحاحية . ان المتعة التي لا زالت تجعل من كاتو مسرحية مرغوبا في قراءتها هي من هذه الطبيعة ، عندما جهر سيفاكس .

هكذا حيث تمتد أرضنا البكر الجديدة وأرضنا البور
وعلى حين غرة ثارت الزوابع الهوج ،
تقذف بعجلة في الهواء وفي دوامة الاعاصير تدور ،
تثير الرمال وتكسح السهول والوديان ،

والمسافر بلا حول ولا قوة تملكه دهشة مروعة

يرى الصحراء بلا ماء وقد امتدت تحيط به ،

وتخمد أنفاسه فى اعصار مترب ثم يموت ،

ولا نملك الا أن نتصور الهزة فى المسرح المكتظ ، والريش على رؤوس السيدات يومئ ويميل الرجال للأمام وهم يدقون على عصيهم وكل منهم يعلن الى جاره عن عظمة التمثيل والسمو ثم يصيح «برافو» ولكن كيف ننفعل نحن من هذا؟ وكيف نتفق مع بيشوب هارد(١) ومذكراته و «ملاحظاته الدقيقة» و «دقته العجيبة سواء فى العاطفة أو فى التعبير» وثقته الهادئة لدرجة أنه عندما «تزول نوبة الشغف الحاضر بشكسبير» فسيأتى الوقت الذى تصبح فيه كاتو «هى المسرحية التى يعجب بها النقاد الصادقون المنصفون أيما اعجاب» كل ذلك انتاج مسل جدا وفيه خيال لطيف سواء بالنسبة لعقول أسلافنا الهزيلة الزهيدة وكذا بالنسبة لعقولنا نحن ذات الثروة الجسور ولكن هذا ليس بالاندماج المتكافئ فدع جانبا ذلك النوع من الاندماج الذى يجعل منا معاصرين للمؤلف ويدفعنا الى الايمان بأن هدفه انما هو هدفنا نحن أحيانا قد يلتقط الفرد فى مسرحية كاتو بضع سطور ليست مهجورة أو بطل استعمالها ، وانما بالنسبة لأغلب المأساة التى يعتقد دكتور جونسون(٢) أنها «بغير مناقشة أنبل انتاج لعبقرية أديسون» فقد أضحت مناسبة فقط لجامع الأدب

وربما تناول أغلب القراء المقالات كذلك بشيء من الحذر نتيجة للاختلاف بين عقليتهم وعقليّة العصر الذى يقرءون له ان السؤال الذى يجب أن يطرح هو ما اذا كان أديسون - كما هو متصل بمستويات معينة من الرقة والفضيلة والذوق - لم يصبح واحدا من هؤلاء الناس ذوى الأخلاق النموذجية واللطافة الساحرة الذين لا يسمحون بالخوض فى حديث أكثر اثاره من الحديث عن الجو اننا نشك قليلا فى أن الاسبكتيتر والتاتلر ليسا بشيء سوى حديث مكتوب فى انجليزية سليمة حول عدد الأيام الصحوة فى هذا العام بالمقارنة الى عدد الأيام المطيرة فى العام السابق ان الصعوبة انما هى فى الوقوف معه على نقط متكافئة تبدو

Bishop Hurd. (١)

Dr. Johnson. (٢)

فى القصة القصيرة التى قدمها فى أحد الأعداد الأولى من التاتلر عن « سيد شاب متوسط الفهم ذو حيوية متدفقة له نصيب ضئيل من المعرفة بالقدر الذى يجعل منه ملحدا أو مفكرا حرا وانما ليس فيلسوفا أو رجلا ذا منطق » وهذا السيد الصغير يقوم بزيارة لوالده فى الريف وتروى القصة « ليوسع من ضيق تفكير القرية وقد حقق فى ذلك نجاحا لدرجة أنه تبسط مع الساقى فى حديثه وهو جالس الى المائدة وتحدث مع أخته الكبرى وهو سكران يترنح حتى انه ذات يوم وهو يتحدث عن كلبه الحارس قال « انه ليتساءل هل سيبقى كلبه » ترى « (١) خالد الذكر كآى فرد من أفراد العائلة ، وفى حمى النقاش أخبر والده أنه من ناحيته فانه يتوقع أن يموت ميتة كلب » ومن جراء هذا القول ثار الأب فى انفعال صائحا عندئذ يا سيدى سوف تعيش عيشة كلب ، وتناول عصاه بيده وضربه بها ليبعده عن طريقه وكان لهذا الحادث وقع طيب عليه حتى انه منذ ذلك اليوم بدأ يقرأ الكتب القيمة ، وهو يعمل الآن محاميا لدى محكمة ميدل تمبل . ومن هذه القصة نجد كثيرا من صفات أديسون كرهه للمناظر المظلمة المضطربة واحترامه « للمبادئ التى هى دعائم السعادة والفخار بكل الجمعيات العامة ، كما هى كذلك بالنسبة للأفراد وقلقه على الساقى وإيمانه بقراءة الكتب القيمة وائتهاؤه بأن يصبح محاميا فى الميدل تمبل هى النهاية السليمة لشاب ممتلىء حيوية وقد تزوج هذا الأديسون من كونتيسة « وقدم أحكامه الصغيرة الخاصة بالأعيان وعندما أرسل فى طلب لورد وريك (٢) أبدى ملاحظته المشهورة عن كيف يمكن أن يموت مسيحيا بعد أن أخنى عليه الدهر حتى ان عواطفنا تحولت نحو المغفلين وربما نحو أمير صغير ذى لوثة أكثر مما نشفق على هذا السيد المتحجر الذى ذهب فى نوبة تشنج من السرور النفسى وهو على فراشه

دعنا نزيل مثل هذه القشور ما دامت نتيجة لصدأ اعتور فطنة بوب أو لرواسب من مناخات منتصف عصر فيكتوريا ثم ننظر ماذا تبقى لنا فى وقتنا فاننا نرى انه قد تبقى لنا - فى المقام الأول - الفضيلة التى تستحق الاجلال وهى التى لازالت قائمة رغم مضى قرنين من الزمان كانت خلالهما مقبولة القراءة . ويمكن لأديسون أن يطالب بذلك بحق ، ثم اندمج أديسون فى تيار النثر المنمق اللطيف وبهذا أضحى أسلوبه

Tray. (١)

Lord Warwick. (٢)

كالدوامات الصغيرة لمساقط المياه التي تتشكل على السطح الأملس الجميل فتضفى عليه التنوع وبدأنا نتعرف على الميول والخيالات والغرائب من جانب كاتب المقال التي تضىء أسلوب رجل الأخلاق المتأثق المعصوم من الخطأ والتي تقنعنا بأنه - على الرغم من أنه كان كثير الكلام عن الأخلاقيات فانه كان ذكيا ولم يكن سطوحيا على الرغم من كل هذا انه متيقظ الى أقصى درجة ولقد استرعى انتباهه الفراء الذى يستعمل لتدفئة اليدين ورباط الساق الذهبى والقفازات ذات الدانتيل انه يلاحظ ذلك بحدة وبنظرة خاطفة ولكن بغير عنف بل بنظرة مليئة بالبهجة أكثر منها مليئة باللوم كان العصر كله مليئا بالحماقات من غير شك فهنا مقاه مكتظة برجال السياسة الذين يتحدثون عن الملوك والأباطرة تاركين شئون أنفسهم تتدهور وفي دار الأوبرا يصفق النظارة للأوبرا الايطالية كل ليلة وهم لم يفهموا كلمة واحدة منها والنقاد يتناولون بالنقد الروابط الأدبية وهناك رجال يدفعون ألفا من الجنيهات ثمنا لحفنة من بذور التيوليب أما عن النساء أو «الجنس اللطيف كما كان يحب أن يسميهم أديسون فان حماقاتهن تفوق الحصر ولقد بذل أديسون كل ما فى طاقته لكي يعدها بدقة محببة كشفت عن ثقل ظل سويفت (١) ولكنه - أى أديسون - استطاع أن يعدد تلك الحماقات بأناقة ومنتعة طبيعية كما تكشف عنها الفقرة التالية

انى أعتبر المرأة حيوانا جميلا خياليا يمكن أن يحلى بالفراء والريش وبالآلىء والماس وبالتبر والحريير ويقدم الفهد جلده تحت أقدامهم لتصنع لنفسها منه غطاء للرأس ويسهم الطاووس والبيغاء والبجعة فى رباط ساقها أما البحار فيفتش فيها عن الأصداف وفى الصخور عن الأحجار الكريمة وكل جزء من الطبيعة يسهم فى تزيين مخلوق هو فى الواقع أروع عمل للطبيعة كل ذلك سوف أتقبله أما بالنسبة للقميص الذى أتحدث عنه فانى لست بمستطيع تحمله أو السماح به

فى كل هذه الأمور كان أديسون على جانب من الذكاء والذوق والتحضر أما عن الرابطة الأدبية الصغيرة فهى غالبا غير واضحة ومع ذلك فهى لازمة اذ انها توقف - فى كل العصور - حياتها لخدمة الفن

والأدب والموسيقى تلاحظ وتميز وتجسد سعادة في النقد وكان أديسون واحدا منهم متميزا . وللعجب كأنه معاصر لنا ويمكن للمرء أن يتصور أنه كان من المفيد جدا لو أننا أعطيناه مخطوطا لنتعرف على رأيه فيه وكم يكون هذا الرأي مفيدا بقدر ما هو شرف عظيم ورغم أنف بوب يمكن أن نتصور أن نقد أديسون كان يمكن أن يكون جيد الترتيب ، فهو واسع الإدراك كريم مع كل جديد فهو لا يصاب أنجديد بعداء لمجرد أنه جديد ومع ذلك فهو في أحسن صورته لا يتردى عن المستوى . ان شجاعته التي هي دليل قوته تظهر في دفاعه عن القصة الشعرية الكر (١) والفر لقد كما لديه فكرة واضحة عما قصده بعبارة «فيها شفافية ، وروحه روح كاتب رقيق اذا ما تبعتها في القصة الشعرية البربرية أو نعيد اكتشافها في «ذلك العمل المقدس» في الفردوس المفقود فضلا عن ذلك فلم يكن مدركا للجمال الساكت المستقر للأموات فحسب بل كان مدركا كذلك للحاضر وناقدا مرا لذوق « ذلك الحاضر الهمجي » ، ومتيقظا لحماية حقوق اللغة وشرفها ومؤيدا للبساطة والهدوء وهنا نجد أديسون في كتابات ويل وباتون (٢) أنه كان يجلس حتى ساعة متأخرة من الليل يحتسى من الخمر أكثر مما في صالحه ثم يتغلب على سكوته رويدا رويدا ويبدأ في الكلام . وعندئذ «يأسر انتباه كل فرد ويجذبه اليه» حوار اديسون « كما قال بوب » فيه كل شيء أكثر سحرا مما وجدت في أسلوب أي رجل آخر « ويمكن للمرء أن يؤمن بذلك لأن مقالاته في أسمى تحفظها فيها تجويد البساطة مع حوار رصين رائع انها تمسك الابتسامة قبل أن تتسع وتصير قهقهة عالية وتتحول الأفكار بعيدة عن الاستهتار ويمكن تلخيصها بسهولة والآراء تقفز براءة جديدة ، متنوعة تصدر تلقائية بغير كلفة أو جهد ويبدو أنه يفصح بلسانه عما يجول برأسه ولا يجد حرجا مطلقا في اعلان رأيه ولقد وصف نفسه في صورة العود أروع مما في استطاعة أي شخص آخر أن يصفه

ان العود شخصية تتعارض مباشرة مع الطبله فهو يخرج ألحانا رقيقة جدا بمفرده أو حينما يكون بين مجموعة صغيرة من الموسيقين ان أنغامه غاية في الحلاوة منخفضة جدا ومن السهل أن تتوه وسط العديد من الآلات ، وقد يتلاشى مع الفرقة الصغيرة ما لم توليه انتباها خاصا . يندر

Chevy Chase. (١)

Will and Button. (٢)

أن يسمع العود فى جماعة أكثر من خمسة بينما اطلبة تظهر نفسها فى مجموعة قوامها خمسمائة . وعلى ذلك فعازفى العود رجال ذوو عبقرية رقيقة ، فىهم تأمل غير عادى ، وفىهم لطف فائق ويقدرّون أشخاصا ذوى ذوق رفيع هم الحسكام حقا لمثل هذا اللحن الملىء بالسرور الذى ينساب فى ليونة »

لقد كان أديسون عازف عود وما لا شك فىه أن مديح لورد ماكولى لم يوفه حقه فهو فى وصفه له وهو فى أوج مقالاته - بالشاعر العظيم أو أن يتنبأ بأنه يمكن أن يكون « أعظم قصاص عندنا » لو أنه كتب القصة الطويلة لم يكن مبالغا انه يرتبك نو وضع مع الطبول والأبواق ، فليس هذا تجاوزا فى المديح وانما هو اغفال لما يستحقه ذلك الرجل . ولقد وصفه الدكتور جونسون فأوجز وأوفى ، وصف أسلوبه وصفات عبقرية أديسون الشاعرية بقوله

ان شعره أولا يجب أن يكون محل تقدير ، ويجب أن نقرر أنه ليس فيه جزالة اللفظ التى تضىفى على العواطف رونقا وليس فيه تدفق العاطفة التى تزكى الحرارة وان كان فيه قليل من الحمية والحدة التى تعبر عن العاطفة ، فيه ندرة من العظمة المروعة ، وأحيانا نجد جمال التوافق انه يفكر بانصاف ولكنه يفكر بضعف »

وأوراق سير روجر دى كوفرلى (١) أغلبها يشبه القصة فى مظهرها ولكن أهميتها تتكون من الحقيقة الواقعة وهى أنها لا تمثل شيئا ولا تؤدى الى شيء أو تجعلنا نتوقع شيئا انها موجودة ، سليمة ، كاملة متكاملة فى ذاتها فاذا قرأناها على اعتبار أنها محاولة أولى متهيبة تحتوى على بذور عظمة مستقبلية فاننا نفقد ما يميزها انها دراسات أتخذت من الخارج بمعرفة ملاحظ هادىء أما اذا قرئت كمجموعة واحدة فانها تكون صورة للسيد ومن يحيط به وكلهم فى مراكزهم الاجتماعية المتميزة . فواحد بعصاته والثانى بكلاب صيده وانما كل منهم يمكن أن ينفصل عن الباقين دون افساد للتصميم الكلى أو دون افساد لذاته . أما فى القصة حيث يكون الفصل امتدادا لسابقة أو ثميدا لما يليه ، فان هذا التجزىء يكون غير محتمل فى هذا العمل بل يشوه السرعة والتشابك والرسم . هذه الصفات المميزة هى التى ربما تفتقر اليها طريقة أديسون ومع ذلك فلهذه

Sir Roger de Coverley. (1)

الطريقة مزايها الجلييلة كل من هذه المقالات متكامل تكاملا تاما والشخصيات محددة في ترتيب متين وخطوط واضحة ولما كان مجال المقال ضيقا ضيقا لا مفر منه - وذلك لأن المقال ثلاث صفحات أو أربع فقط - فليس هناك مجال كاف للعمق الكبير وللمهارة المركبة ولدينا الاسبكيتر مثلا طيبا للأسلوب الفطن أو القاطع الذي كان يرسم به أديسون صورته ليملاً بها الاطار الصغير

« سومبريوس (١) واحد من أبناء الأسي انه يظن نفسه نكرة ومفروض عليه أن يكون حزينا يائسا فهو يعتبر الضحكة المفاجئة تصدعا في اليمين المقدس تفرعه الايماء البريئة كأنها الكفر اذا أخبرته أن شخصا يتقدم من لقب شرف رفع يديه وعينيه الى السماء في زهد واذا وصفت له احتفالا عاما هز رأسه استنكارا واذا عرضت عليه معدات المرح استعاذ بالله كل مباهج الحياة في نظره حتى التافه منها أبهة وغرور الفرح عنده فجور والذكاء كفر لقد كانت فضيحة بالنسبة اليه أنه كان مرحا في صغره ولعبوا في طفولته وهو يجلس في طقوس التعميد أو في احتفال زواج كما يجلس في جنازة ، ويتنفس الصعداء عندما تنتهي قصة مرحة ويقوم للعبادة عندما يستعد الآخرون للمرح - وعلى العموم فان سامبريوس رجل متدين وكان يمكن أن يعتبر تصرفه هذا مناسبا لو أنه كان معاصرا لعهد اضطهاد المسيحية »

ان القصة ليست تطويرا من هذا الطراز لسبب قوى هو أن التطوير مستحيل بين هذه السطور . أما في مثل هذه المقالات فان صورة الشخصية متكاملة ، وعندما نجد عددا من هذه الروائع متناثرة في الاسبكيتر والتاتلر وفيها هذه الخيالات والنكات بهذا الاسلوب فان بعضا من الشك في ضيق مثل هذا المجال يصبح حقيقة لا مفر منها ان شكل المقال يسمح فقط لائقانه الذاتي بالتحديد واذا ما أضحي الشيء متقنا فان الأبعاد بالذات لهذا الاتقان تصبح غير هامة وقلما يستطيع المرء أن يقرر بالاجماع تفضيل المقال على القصة اذ يمسى وكأنه يفضل قطرة المطر على نهر التيمز مع أن كلا منهما هام في ذاته وعندما قلنا كل ما يمكن أن يقال ضد المقالات - من أن كثيرا منها كئيب، والآخر سطحي والكتابة فيها

Sombrius. (١)

شاحبة والورع اصطلاح متفق عليه والآداب رثة - فلا زال الواقع باقيا هناك وهو أن مقالات أديسون انما هى مقالات كاملة متقنة ان فى ذروة أى فن تاتى دائما لحظة يكون فيها كل شىء يبدو وكأنه مسخر ليعين الفنان فيصبح فى انتاجه سعادة طبيعية من جانبه الذى يظهر للجيل القادم كأنه نصف واع لهذه السعادة الطبيعية وهكذا كان أديسون يكتب يوما بعد يوم والمقال تلو المقال عالما بالفطرة وبالذقة كيف يكتب المقال وسواء أكان ذلك عن شىء رفيع أم فى أمر وضع سواء أكانت الملحمة أكثر عمقا أم أن القصيدة الشعرية أكثر عاطفة فمما لا شك فيه أن الفضل يرجع الى أديسون فى أن النثر ظل نثرا ولم ينقلب شعرا - فالنثر هو الوسيط الذى يجعل تعبير الناس متوسطى الذكاء عن آرائهم ونقلها الى العالم ، أمرا ممكنا ان أديسون هو السلف المحترم لحلف لايحصون عددا فلنلتقط أول جريدة أسبوعية ولنقرأ فيها المقال عن مباحج الصيف « أو عن « تقدم السن » فلسوف يظهر تأثير أديسون وفى الوقت نفسه سوف يشير أيضا الى أننا - لولا اقتران اسم مستر ماكس (١) بربوم - كاتبنا الوحيد فى المقال - به - لكنا قد خسرنا فن كتابة المقال فعلى الرغم من وجهات نظرنا وفضائلنا وعواطفنا وأعماقها فان المقال - وهو كالقطرة الفضية التى تحوى داخلها السماء كلها وكثيرا من الرؤى البراقة عن الحياة البشرية فى وضوح - أصبح لا يحتوى الا على معلومات قد جمعت على عجل وحتى فى هذا فان كاتب المقال يبذل جهدا كبيرا ربما وهو لا يدري لكى يكتب مثلما كان يكتب أديسون

لقد أسعد أديسون نفسه فى طريقته المعتدلة أكثر من أى شخص آخر - بتأملات عن مصير كتاباته لقد كانت لديه فكرة عادلة عن طبيعتها وقيمتها فقد كتب « لقد أوضحت حديثا كل مراكز السخرية » ومع ذلك وبسبب أن كثيرا من نقده وجه نحو المباحج سريعة الزوال كالأزياء السخيفة والعادات المضحكة وأنماط الحديث المتكلف « فسوف يأتى الوقت - ربما بعد مائة عام على الأقل - عندما تصبح فيه مقالاته - كما تصور - « مثل قطع كثيرة من طبق قديم حينما يكون للوزن قيمته بينما يكون الشكل قد زال » مرت مئتا عام وأصبح الطبق هشاً والطابع كاد ينمحي ومع ذلك فالمعدن من الفضة الخالصة

حياة المغمرين

قد تحقق خمس شلنات اشتراكا مدى الحياة فى هذه المكتبة الذابلة المهجورة التى أصبحت لا تتفق مع العصر ، هذه المكتبة التى بمساعدة هيئة من قيمة الاشتراك تزود أساسا ، من أرفف أرامل رجال الدين وأعيان الريف اللائى يرثن من الكتب مالا قبل لهن على تنظيفها • فى منتصف الحجره البارحة الهاوية التى تطل نوافذها على البحر وتسمح بوصول صياح الرجال وهم ينادون على سمك السالمون الصغير للبيع فى الشارع العتيق - تعرض أوانى الزهور فى صف وفيها عينات من الزهور المحلية الذابلة وتحت كل منها كتب اسمها كما جلس المسنون الكسالى الذين ملأهم الضجر ينتقلون من جريدة الى جريدة وقد ثبتوا أعينهم على أعداد قديمة من جريدة لندن (١) المصورة وويليان كرونيكل (٢) لم يرفع أحد صوته بالكلام فى هذه الغرفة منذ افتتاحها عام ١٨٥٤ ان المغمرين راقدون على الأرفف وقد استند كل منهم على الآخر فى استرخاء كما لو كانوا من شدة نعاسهم لا يقدرّون على الوقوف • قد أهملت ظهورهم وتلاشت أسماؤهم ولماذا نقطع عليهم هدوء رقادهم ؟ لماذا يعيد الناس فتح تلك القبور المسالمة ؟ هذه هى الأسئلة التى يبدو أن أمين المكتبة يسألها وهو ينظر من خلال نظارته متبرما بواجبه الذى أصبح مضيئا ليعيد بين شواهد القبور هذه التى أصبحت بلا أسماء ، ليعيد أرقام ١٧٦٣ ، ١٠٨٠ ، ٦٠٦ الى أماكنها

لما كان المرء يجب أن يتصور نفسه محررا يتقدم حاملا المشعل أمام السنين الضائعة لينقذ من بين الأشباح الجانحة مسز بيلكنجتون (٣)

The Illustrated London News. (١)

Wesleyan Chronicle. (٢)

Mrs. Pilkington. (٣)

ونيافة هنرى اليمان(١) ومسز آن جيلبرت(٢) الذين طال انتظارهم وهم يستنجدون لأنهم منسيون فى هذا الظلام المتزايد وقد يسمعون شخصا قادما فاذا هم يجرجرون أذيالهم ويسوون من شأنهم ثم هم بعد ذلك يتعززون تتوارد الأسرار فتملاً أفواههم ويتوقعون الى الافضاء بمكنون أسرارهم حتى يشعروا بالراحة القدسية أزيل التراب وظهرت مسز جيلبرت ما أجمل الاتصال بالحياة ! انه مفيد على الفور ومهما كان عمل مسز جيلبرت فانها لم تكن لتفكر فينا فقد بعدت الشقة بها كلو شستر حوالى عام ١٨٠٠ كانت مستقرا ومقاما لآل تيلر(٣) الأبناء كما كانت كسنجتون(٤) جنة « أمهم وكان معهم آل سترات(٥) وهيل(٦) وستابلتون(٧) وكان هناك الشجر والفلسفة والنحت أما بالنسبة لشباب تيلر فقد أنشئوا على العمل الشاق ، حتى اذا ما انتهى العمل فى يوم طويل فى صور والدهم فانهم يأتلفون حول المائدة للعشاء مع آل سترات وهم محقون فيما يشعرون به من سعادة فقد حصلوا على جوائز لما قاموا به من كتب الجيب التى ينشرها دارتون وهارفى(٨) وقد كان أحد أفراد عائلة سترات يعرف جيمس موننجومرى ويدور الحديث بين تلك الجماعات الحزينة حول الزخارف المراكشية وحول القطط كوحدة زخرفية اذ كان « بن سترات » الشيخ شخصية غريبة فهو لا يتكلم ولا يسمح لبناته بأكل اللحوم ولهذا فليس بمستغرب أنهن كن يمتن بالسل وكان الحديث حول طبع مجلد يشترك فى كتابته أشخاص متعددون وسوف يعطى عنوان « الشعراء المؤتلفون » (٩) ويشترك معهم فيه جيمس ان لم يكن روبرت بنفسه وكان آل ستابلتون شعراء كذلك فقد كان مويرا وبيثيا(١٠) يتجولان حول أسوار المدينة القديمة فى بالكيرن هيل(١١) يقرآن الشعر تحت ضوء القمر وربما كانت حمى الشعر منتشرة أكثر من اللازم فى كولشستر عام ١٨٠٠ واذا ما نظرنا الى الوراء فى خضم حياة

Mrs. Ann Gilbert.	(٢)	Rev. Henry Elman.	(١)
Kensington.	(٤)	Taylors.	(٣)
Hills.	(٦)	Strutts.	(٥)
Darton and Harvey.	(٨)	Stapletons.	(٧)
Moira and Bithia.	(١٠)	The Associate Minstrels.	(٩)
		Balkerne Hill.	(١١)

الرخاء العميم نجد آن وهى تندب كثيرا من الأعمال الفاشلة وكثيرا من الوعود التى لم تتحقق ونرى كذلك أفراد عائلة وستابلتون يموتون صغارا وهم مشردون بائسون فيعقوب « بوجهه الأسمر الذى ينطق بالازدراء » قد أقسم أن يمضى الليل باحثا على سوار آن الذى فقدته فى الطريق فاخفى « وآخر ما سمعت عنه أنه يعيش بين أطلال روما وقد أصبح هو نفسه حطاما » أما عن آل هيل فان مصيرهم أسوأها جميعا فهم يعتبرون الحضور للتعميد العام عملا طائشا ولكن ماذا عن زواج ابنتهم من « كابتن م » ! لقد حذر كل فرد فانى هيم الجميلة من الزواج بالكابتن م ومع ذلك فقد رحلت معه فى مركبه الصغير وانقطعت أنبساؤها فلم يسمع عنها شئ خلال سنوات طويلة وذات ليلة - وكان آل يتلور قد رحلوا الى أونجار - وبينما السيد تيلور الشيخ وزوجته جالسان أمام الموقد سرح بهما الفكر - وكانت الساعة التاسعة والقمر بدرا كاملا وكانا قد تعهدا بأن ينظرا الى القمر ويفكرا فى أولادهما الغائبين اذ سمعا طرقا بالباب ، فذهبت الأم تيلور لتفتح للطارق ولكن من تكون تلك المرأة الحزينة ذات المظهر الرث الواقعة بالباب ؟ « ألا تذكرين آل سترات وستابلتون وكيف حذرتنى من الزواج من كابتن م ؟ هكذا همست فانى هيل اذ كانت هى الواقعة بالباب - مسكينة فانى هيل لقد تهالكت وذوى عودها مسكينة فانى هيل لقد كانت تمتلىء شبابا وحيوية انها تعيش الآن فى منزل منعزل ليس ببعيد عن منزل آل تيلور ، وهى مضطرة لأن تكذب وتشقى من أجل الانفاق على عشيقه زوجها اذ بدد الكابتن م جميع ثروتها وحطم كل حياتها

تزوجت آن من « مسترج » طبعا طبعا ان الكلمات ترن بالحاح من خلال تلك المجلدات الغامضة . وذلك لأن فى العالم الفسيح حيث يهيىء لنا كتاب المذكرات احساسا متجهما بشئ غير متوقع ، احساسا بأن الحياة مثل موجة تتجمع تحت مركب صغير وتحمله معها للأمام وهكذا كان يفكر القوم فى كولشستر عام ١٨٠٠ وهم يقرضون الشعر ويقراءون أشعار مونتيجمرى وهكذا بدءوا يتفرق آل هيل وستابلتون ويقراءون ثم يختفون كما يعلم كل واحد أنهم سوف يختفون ؛ ولكن ، هنا بعد سنين طوال لا زالت آن تكتب بغير اهتمام وفى النهاية أقام الشاعر مونتيجمرى بنفسه فى منزلها وهى ترجوه أن يكرس ابنها للشعر وذلك بمجرد حمله بين ذراعيه ثم يرفض هو ذلك (لأنه عذب) ويمسك بيدها فى جولة وعندما يسمعان الرعد تعتقد آن أنه قصف المدافع بينما يقرر مونتيجمرى

بصوت لن تنساه أبدا «بلى انها قصف مدافع السماء!» هذه هي احدى مباحج
المجهولين على كثرتهم وشهرتهم ، فبدلا من أن يحتفظ كل منهم بشخصيته
منعزلة عن الآخرين كما يفعل الناس المرموقون ، فانهم - على ما يبدو -
يندمجون الواحد في الآخر ، حتى لوحاتهم والصفحات التي تحمل أسماءهم
والمقدمات ، كل هذا يتلاشى وتذوب صفحاتهم العديدة في تلاحق السنوات
لدرجة أننا ونحن مستلقون على ظهورنا ننظر من خلال الغلالة الرقيقة
للحياة المتعددة الجوانب نجد أننا ننقل بلا صعوبات من جيل الى جيل
ومن حياة الى حياة . ان الرؤى هي التي تفصل بين بعضها البعض اننا
نرى مجموعات منهم . وها نحن نسير مع السيد المان الشاب وهو يتحدث
مع السيدة بيغين في برايتون . انها بلا ذراعين ولا ساقين ويحملها
رجل عند خروجها وعند أوبتها . وهي تعلم أخته رسم اللوحات الصغيرة .
ثم اذا به في العربة في الطريق الى أكسفورد ومعه نيومان ونيومان
لا ينطق بشيء والمان - بالرغم من ذلك - يعتقد أنه تعرف على كل العظام
من رجال عصره . ويسرح بفكره في الماضي ثم يثوب فيفكر في المستقبل
انه أخذ يقطع حقول ساسكس الحالدة سيرا حتى بلغ من العمر أزدله
وهناك يجلس في ابراشيته وهو يفكر في نيومان ، كما يفكر في السيدة
بيغين ويتخذ من صناعة حقائب الدوبار سلوته الكبرى ثم ماذا ؟ لنمشي
منقبين . لا شيء كثيرا يحدث ولكن الضوء الخافت ينبه العينين ولنرقب
الآنسة فرند وهي تحجل الى جانب والدها في شارع ستراند . ويقابلان
رجلا يشع الذكاء من عينيه فيقول السيد فرند « السيد بليك . » ثم
نرى كذلك السيدة داير وهي تصب لهما الشاي في حانة كليفورد
والسيد تشارلس لامب كان قد غادر الحجرة الآن ونحن نسمع السيدة
داير وهي تقول انها تزوجت من السيد جورج لأن المرأة التي كانت تغسل
له حاجاته كانت تخدعه للغاية كم كان يدفع جورج لقاء غسل
قمصانه ؟ انها تتساءل ؟ وبرقة وبجمال - كالسحاب في أمسية عاطرة -
تختفي السماء في الظلام مرة أخرى ظلام ليس فارغا انه ظلام ممتليء
بالنجوم الدقيقة لحياة تفوق الحصر وفجأة ينقلب الظلام فنرى سفينة
صغيرة بائسة تقلع من ساحل ايرلنده في منتصف القرن التاسع عشر
وها هو جو عام ١٨٤٠ الذي لا نخطئه حيث كانت تقف امرأة شابة
بمفردها على ظهر السفينة وهي ترتدى من القماش المانع للماء وغطاء الرأس
ما يجعل المرأة وكأنها وحش وشعرها مرسل خلف ظهرها تبدو وكأنها
شبح يتمايل على ظهر السفينة وقطرات المطر تتساقط من غطاء رأسها
لقد كانت تقف بمفردها تحملق في البحر وهي في هذا الجو الذي يعاملها

بغير عنف • لا ، لا ، لا ، انها لن تترك السطح بل سوف تبقى هناك حتى يخيم الظلام دامسا • « ان حبها الكبير للبحر يجذب هذه الزوجة وهي أم مثالية من آن لآخر وبقوة لا تقاوم بعيدا عن منزلها لا أحد يعرف أين تذهب الا زوجها ولم يعلم أبناؤها بذلك الا متأخرا فهي في هذه الظروف وعندما تختفي بلا مقدمات لبضعة أيام ، تقوم في رحلة قصيرة في البحر » وهي تكفر عن اثم اقترفته وذلك بالعمل لعدة شهور بين فقراء ميدلاند ثم ينتابها الحنين فتسر به الى زوجها على انفراد وتقلع مرة أخرى هذه المرأة هي أم سير جورج نيونز

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن البشر كانوا سعداء موهوبين وهم معصوبو العينين بالنسبة للقدر والمصير وهم على درجة كبيرة من الجلد والاهتمام في نشاطهم ، لولا تلك الصور المتكررة التي تحدجنا بنظراتها فجأة ، وكلها - في أحسن الظروف - تصر اصرارا باهتا على ألا يغمرها النسيان ، انهم رجال لم يصيبوا شهرة ، رجال لهم رغبة مستعرة للانصاف والترضية رجال أمثال هيدون(١) ومارك باتيسون(٢) ونيافة بلانكو هوايت (٣) • وفي جميع أنحاء العالم قد لا يوجد الا شخص واحد هو الذي ينظر مليا ثم يحاول أن يفسر نظرة التحديد والتلويحات الغاضبة باليد ، وذلك قبل أن ينصرف انتباه المرء للأبد - في زحمة شئون البشرية - عن بقايا الوجوه وأصداء الأصوات وذيول ملابس السهرة المتأرجحة وأربطة غطاء الرأس وهي جميعا تختفي في ممرات أيكة الحياة المتشعبة • ما هي مثلا تلك العجلة الهائلة - التي تربط مصائر الناس في بركشير (٤) في القرن التاسع عشر ؟ انها تدور بسرعة متزايدة ؛ وفجأة يقفز شاب بعيدا عنها ، وفي اللحظة التالية تهوى عند حافة حفرة من حجر الطباشير ثم تندفع حطاما • هذا هو ما يفعله ادجورث ونعني به ريتشارد لوفيل(٥) ادجورث(٦) نذير الشؤم

Haydon. (١)

Mark Pattison. (٢)

Rev. Blanco White. (٣)

Berkshire. (٤)

Richard Lovell. (٥)

Edgeworth. (٦)

وصل اليها هذا كله في مجلدين من الذكريات الرجل الذي ضايق بايرون (١) وصديق داي (٢) ووالد ماريا (٣) الرجل الذي اخترع تقريبا التلغراف واخترع بالفعل أدوات لقطع اللفت ولتسليق الجدران وكان يتعاقد لبناء الكبارى الصغيرة ورفع العجلات من على العوائق فى الطريق ، رجل كله كفاءة وانتاج متقدم ولكنه بقى - ونحن نفحص مذكراته - ثقيل الظل فلقد وهبته الطبيعة طاقة لا يقف دونها أى رادع أو وازع ان الدم يتدفق فى عروقه بسرعة أكثر من المعدل بعشرين مرة على الأقل وجهه أحمر مستدير ممتلئ بالحياة وعقله فى سباق ولسانه لم يتوقف عن الكلام تزوج أربع مرات وأنجب تسعة عشر طفلا من بينهم كاتبة القصة ماريا فضلا عن ذلك فقد عرف كل شخص وأتى كل شىء ان طاقته تفتح الأبواب السرية جدا على مصراعيها وتنفذ الى داخل المساكن الخاصة للغاية فكانت جدة زوجته مثلا ، تختفى فى ظروف غامضة كل يوم فاقتم ادجورث عليها خلوتها فوجدتها وخصلات شعرها الأبيض طائرة وعيناها تفيضان بالدمع فى صلاة خاشعة أمام المسيح لقد كانت كاثوليكية تابعة لكنيسة روما ولكن عن أى ذنب كانت تتوب ؟ اكتشف ادجورث بطريقة ما أن زوجها قتل فى مبارزة وأنها تزوجت بعد ذلك من الشخص الذى أرداه قتيلا ان ارتماها فى أحضان الدين هو السلوى التى تتساوى مع بشاعة فعلتها «

وأخذ ديك ادجورث يفكر فى هذه الذلة عندما زلت قدمه مرة أخرى . ثم كانت هناك المرأة الشابة الفاتنة تقيم فى قلعة وسط غابات دوفيني نصف مشلولة لا تقدر على الكلام الا همسا ، وكانت راقدة عندما اندفع ادجورث داخلا فوجدتها تقرأ ولاحظ ستائر الجوبلان تنسدل على جدران القلعة ؛ وآفا من الخفافيش « وحيوانات أخرى تنبعث منها الروائح الكريهة كراهة غير معقولة » ، تعيش فى مجموعات داخل الأقبية السفلى . ولا يدرك أحد من السكان كلمة واحدة قالتها تلك الفاتنة وانما كانت تتحدث الى الرجل الانجليزى ساعات وساعات عن الكتب وعن السياسة وعن الدين وهو يستمع ومما لاشك فيه أنه كان يتكلم معها وهو الآن جالس لا ينطق ولكن ما الذى يمكن أن يفعله شخص معها ؟ واحسرتاه لا بد من تركها راقدة غارقة بين أنياب الحيوانات المعلقة على الجدران

Byron. (١)

Day. (٢)

Maria. (٣)

والأقواس المهمة والشيوخ الذين يقومون على خدمتها وهي تقراً ولما كان ادجورث مكلفاً بتحويل نهر الرون عن مجراه فلا بد أن يعود الى عمله . وقد سيطرت على رأسه فكرة واحدة « لقد وطدت العزم على الاستمرار المنتظم في تحسين مداركى »

انه لا يبوح بشيء في المواقف الخيالية التي كان يجد نفسه فيها وكانت كل تجربة يمر بها تؤدي الى تقوية شخصيته لا غير فهو يفكر وهو يرقب ثم هو في النهاية يصلح من نفسه كل يوم . ولقد كان يلقن السيد ادجورث أبناءه بقوله في استطاعتك أن تصلح نفسك كل يوم من أيام حياتك « اعتاد أن يقول بأنه بالقدرة على اصلاح النفس يمكنهم - في الوقت المناسب - أن يصبحوا شيئاً مذكوراً ودون ذلك فانهم يمسون نكرات بمرور الزمن » وبفضل ما يتمتع به من ثبات الجأش والمثابرة وتزايد اصراره على الثقة بنفسه يوماً بعد يوم تكاملت فيه الأنانية وهو يكشف عن الشخصيات الهيابة التي تتوارى أو التي كان يمكن أن تختفى في الظلام بينما هو دائم في عمله أو وهو يضرب الأرض في مشيته فالعجوز التي قطع عليها خلوة كفارتها ما هي الا واحدة من كثير من الشخصيات التي ظهرت على هامش حياته ، تلك السيدة الصامته الغربية تكشف لنا بطريقة لم تخطئ حتى الآن امتعاضها من هذا الرجل ذى الشهرة الواسعة والذي يقتحم عليهن خلواتهن في دراساتهم ويقطع عليهن صلواتهن اننا نراه من خلال أعين تلك الشخصيات ، نحن نراه بينما لا يخطر على بالهن أنه يرى كم كان طاغية مع زوجته الأولى كم عانت فوق ما تحتمل ! ولكنها لم تشك أو تثن . انه ديك ادجورث الذي روى قصتها وهو لا يدري أنه يفعل ذلك يقول في ملاحظاته « لقد كانت هناك ميزة فريدة في شخصية زوجتى وهي أنها لم تبد عدم ارتياحها لصدائتى الوطيدة مع سير فرانسيس دي لافال كما لم تبد كرهها الشديد للسيد داى وليس هناك فى انجلترا من هو أكثر خطورة أو تضليلاً من أحدهما ولا من هو أكثر فضيلة وأحسن رفيقاً من الثانى انها فعلاً ظاهرة فريدة جداً » .

لقد كانت السيدة ادجورث بادية الأمر فتاة معدمة ابنة رجل ريفى خسر كل شيء وكان يجلس أمام المدفأة وكلما احترق الفحم رفعه من الموقد الى وعاء الرماد وهو يهمهم من وقت لآخر كما لو كان مشروعاً جديداً قد طرأ على ذهنه ليستعيد به ثراه . وهي لم تلق حظاً من التعليم وعلمها مدرس خط متجول كيف تكتب بضع كلمات . بينما لم يكن ديك

ادجورث قد تخرج بعد وبينما هو في طريق عودته من أوكسفورد وقعت في غرامه وتزوجته حتى تهرب من الفقر والبؤس والقذارة ويصبح لها زوج وأولاد مثل سائر النساء . ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ عربات ضخمة تهبط على سفح الجبل وفيها ابن البناء ومركبات بحرية تقلع وعربات ذات أربع عجلات متهالكة وآلات فاشلة لقطع اللفت وابنها الصغير يهيم في الريف - كابن أى رجل فقير - عارى القدمين ، غير متعلم والسيد دأى يحضر ويتناول الافطار ثم يبقى للعشاء وهو فى حديث مستمر لا ينقطع عن المبادئ العلمية وقوانين الطبيعة

وهنا تقابل واحدا من تلك الشراك لهذه الجولات الليلية بين الشخصيات الهامة ولكنها فى عالم النسيان انه من الصعب أن نتمسك - كما يجب علينا مع الأفاضل من الناس ذوى الثقة - بالوقائع . ولا يجوز أن نضع مناظر لهذه الحياة والتي لو عاد بنا الزمن الى الوراء لكأنت مناظر تحتاج الى دقة أكثر فمع شخصية مثل توماس دأى - بصفة خاصة - الذى جاوز فى حياته حدود المعقول نجد أنفسنا ننضح بالاشمئزاز ، كقطعة من الاسفنج امتصت أكثر مما يمكنها أن تحتفظ به بداخلها ، فبدأ يتساقط القطر بوضوح . ان لبعض من هذه المناظر سحرها الذى يعود الى فيض من الخيال أكثر مما يستند الى الواقع المعقول فمثلا نشاهد كل المأساة التى تمر بها السيدة ادجورث خلال حياتها اليومية : وحيرتها ووحدتها ويأسها وكيف كانت تعجب مما اذا كان هناك أى شخص فى حاجة الى أدوات لتسلق الجدران ، وأكدت لزوجها ولصديقه انه من الأفضل تقطيع اللفت بسكين وكيف وقد زجرها زوجها وأقنعها بأنها أخطأت خطأ فاحشا حينما اجترأت على أن تسمح لمثل هذه الأفكار أن تدور فى رأسها لدرجة أنها أصبحت تخشى الحضور اليومي للرجل الشاب الطويل القامة بوجهه المتباهى الحزين الممتلىء بآثار الجدرى وبشعره الأشعث الأسود الغزير ذلك الرجل المتأنق ذى الشخصية المتحذلقة والذى يتكلم بسرعة وبطلاقة ودون انقطاع لساعات متتالية عن الفلسفة والطبيعة وعن الاستاذ روسو لقد كان بيتها فكان عليها أن تعد له وجبات طعامه . وانه وان كان يأكل كما لو كان نصف نائم فان شهيته تفوق الوصف ووجدت الزوجة أن الشكوى لزوجها عديمة الجدوى فقد قال ادجورث « انها تنعى أشياء تافهة » واستطرد يقول « ان المرأة الدائبة الشكوى التى تعيش معها لا تحقق الهناء فى المنزل » وبعد ذلك وبكل صفاقة وبلادة حس يسألها ما الذى يضايقها . هل تركها وحدها ؟ ففى

السنوات الخمس أو الست وهى عمر حياتهما الزوجية لم ينم بعيدا عن المنزل أكثر من خمس مرات أو ست ويؤمن السيد داى على كلامه ان السيد داى يؤمن على كل شىء يقوله السيد ادجورث فهو يمد به بتجاربه . وهو الذى أقنعه أن يترك ابنه بلا تعليم وهو لا يعبأ قيد شعرة بما يقوله أفراد عائلة هنلى وباختصار لقد كان فى الدرك الأسفل من السخافات والتمادى مما جعل حياة السيدة ادجورث عبثا ثقيلًا عليها

ومع ذلك دعنا نختار منظرا آخر - مشهدا أخيرا مما يمكن أن ترى فيه الزوجة ادجورث فقد كانت عائدة من ليونز وكان برفقتها السيد داى - شخص فريد وهو واقف على سطح المركب الصغير الذى أقلهما الى دوفر ، فارع الطول معتدل القامة وهو يضع اصبعه فى صدر سترته والهواء يداعب شعره وملابسه سخيفة وان كانت من آخر طراز لقد كان متوحشا خياليا ومع ذلك كان ذا سطة وعظمة قلما يمكن تصورهما ؛ وهذا المخلوق الغريب الذى يكره النساء كان مسئولا عن امرأة على وشك أن تصبح أما كما تبنى فتاتين يتيمتين ووطد نفسه على أن يتزوج الأنسة اليزابيث سنيد فأخذ يقضى ست ساعات يوميا محاولا تعلم الرقص ومن آن لآخر يشير باصبعه باصرار قاس - ثم يفيق من الحلم الذى يرى فيه الغيوم الداكنة والمياه المتلاطمة وظل انجلترا فى الأفق وقد ألفت به بعيدا - ويعطى أمرا بطريقة مهذبة ومصطنعة لرجل حنكته التجارب وبنبرة متكلفة والبحارة تحمق ولكنها تطيع فقد كان فى أمره شىء من الاخلاص شىء متعال مخالف لما تأخذه عليه ، ثم شىء مريح فيه انسانية أيضا حتى ان الزوجة ادجورث من جانبها وطدت العزم على ألا تسخر منه مرة أخرى ولكن الرجال غريبو الطبع ؛ والحياة قاسية وبتنهيدة حائرة وربما بتنهيدة ارتياح نزلت السيدة ادجورث الى البر فى دوفر ووضعت بنتا ثم ماتت

وفى نفس الوقت يتقدم داى الى ليتشفيلد وقد رفضته اليزابيث سنيد بطبيعة الحال - فقد أفلتت منها صرخة مدوية - كما روى الناس - وصرحت بأنها أحببت داى الرجل النصاب ولكنها كرهت فيه الرجل المهذب ، ثم اندفعت خارج الغرفة ثم حدث شىء مروع ، وهكذا يستطرد الناس ، فالسيد داى وهو فى ثورة غضبه تذكر اليتيمة سابرينا سيدنى التى رباها لكى تكون زوجة له ؛ فزارها فى ساتون كولدفيلد وهاج غاضبا عند رؤيتها ؛ وأطلق مسدسا على « ملابسه » وصب شمعا مصهورا على ذراعها وجذب أذنيها وكان الناس كلما وصفوا هذا المنظر لايفتا

السيد ادجورث أن يكرر « أنا لم أكن لأفعل ذلك مطلقا » وكان كلما فكر في توماس داي حتى آخر يوم من حياته يظل ساكنا لقد كانت حياته عظيمة جدا عاطفية للغاية متناقضة غاية في التناقض ولذلك كانت حياته عبارة عن مأساة وكلما فكر ادجورث في صديقه بل أعز صديق له - فانه كان يبقى ساكنا

ان هذه تكاد تكون المناسبة الوحيدة التي تسجل فترات سكوت ادجورث فالتفكير والندم والتأمل صفات غريبة على طبيعته ولقد صورت زوجته وأصدقائه وأولاده بطريقة حية جدا عن طريق دائرة واسعة من الثروة التي لا حد لها فلم يكن لدينا أية خلفية سوى هذه الثروة لكي نجمع بها البقايا الدقيقة التي تكون صورة زوجته الأولى كما لم يكن لدينا الظلال ولا الأغوار التي تكون الشخصية المتقلبة فهي تارة مفعمة بالأحاسيس الانسانية وتارة أخرى تنطق بالشراسة وهي تقدمية تنطوي على الفيلسوف المتناقض توماس داي ولم تكن قدرات ادجورث قاصرة على الناس فحسب بل امتدت الى المناظر الطبيعية والجماعات والمجتمعات وتبدو هذه القدرات - كما يصفها هو - كأنها تنبع من أعماق نفسه لدرجة أنه في استطاعتنا أن نشعر بشخصيته حتى لو كانت تلك الامكانيات الذاتية تعرض علينا دون الاشارة الى صاحبها - كما نشعر بأنه هو الذي يقدمها لنا انها تبدو واضحة المعالم لأنه يرسمها بالتباين العجيب الذي تكشف عنه تعليقاته وتشير الى وجوده هذه الصورة تعيش في جمال غريب خيالي مهيب غامض متباين مع ادجورث نفسه الذي لم يكن يتصف بواحد من هذه الصفات كل ذلك يتضح وهو يقدم لنا بالذات صورة حديقة في شيشر وهي حديقة بيت راعي الكنيسة وهو وان كان بيتا قديما فانه مريح

ان المرء يدخل الى هذه الحديقة عندما يدفع بابا أبيض فيجد نفسه في فناء مغطى بالزراع الأخضر وهو فناء صغير يعنى به رغم صغره وتنمو الورود على الحواف وتتدلى قطوف العنب على الجدران * ولكن -ويا للدهشة- ماهي تلك الأشياء التي تقع وسط الحُضرة ؟ ففي غيوم ليلة من ليالى الحريف تلمع كرة أرضية كبيرة بيضاء * ومن حولها وعلى مسافات متباينة

منها توجد كرات أخرى في احجام مختلفة • انها الكواكب وتوابعها • ولكن من الذى وضع كل ذلك فى هذا المكان ولماذا ؟ فالبيت يخيم عليه السكون؛ والنوافذ مغلقة ، ولا أحد ينظر منها • وفجأة ظهر من خلف الستائر ولمدة وجيزة وجه رجل مسن ينظر خلسة ، وجه جميل رغم انه أشعث وكأنه وجه مجنون

ان الآدميين يحملون الطبيعة أوهاهمم بطريقة غير مفهومة • ولا بد أن السوس أخذ ينخر فى هذه الحديقة الصغيرة والطيور تطير فيها فى هدوء ولا بد أنه قد خيم سلام مقيم على كل شىء وفجأة عكر هذا السلام ريتشارد لوفيل ادجورث الثرثار الفضولى ذو الوجه الأحمر نظر الى الكرات وأقنع نفسه انها نموذج دقيق من تصميم انسان « وطرق الباب ثم عاد فطره ثانية ولا من مجيب وأخيرا وعندما بدأ صبره ينفد ، أزيح المزلاج ببطء وانفتح الباب رويدا رويدا ؛ وكان يقف من ورائه قسيس أشعث قد أهمل العناية بنفسه ومع ذلك فهو رجل وقور قدم ادجورث نفسه ثم دلفا الى حجرة جلوس ملأى بالكتب والأوراق المبعثرة والأثاث القيم الذى بدأ ينخر فيه السوس وفى النهاية وقد فقد ادجورث السيطرة على فضوله سأل عن ماهية الكرات التى فى الحديقة ؛ وفى الحال ظهر على القسيس القلق والانفعال العميقان ثم قال القسيس ان ابنه هو الذى صنعها ، لقد ولد هذا الابن عبقرى ، ولد ماهرا ، وقد تحلى بالفضيلة وبمكتسبات تفوق سنه ولكنه مات ثم ماتت أمه فحاول ادجورث أن يغير مجرى الحديث ولكن دون جدوى لقد اندفع الرجل المسكين فى انفعال فى حديث غير مترابط عن ابنه وعبقريته وعن وفاته وكتب ادجورث يقول « لقد صدمنى أن أحزانه قد أثرت فى قواه العقلية » وقد أحس بعدم الارتياح يتزايد عندما انفتح الباب ودخلت منه فتاة فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة وهى تحمل صينية الشاى بين يديها وكان دخولها سببا فى تغيير مجرى الحديث انها جميلة حقا ؛ وكانت ترتدى الملابس البيضاء ؛ ربما كان أنفها بارزا قليلا لا ! ان تقاسيم وجهها كانت متناسبة للغاية وصرح القسيس - بعد أن غادرت الفتاة الغرفة « انها طالبة فنانة » ولكن لماذا غادرت الحجرة ؟ ان كانت ابنته فلماذا لم تتصدر مائدة الشاى ؟ هل هى خلبلته ؟ من تكون ؟ ولماذا يبقى هذا المنزل على هذه الحال من الاهمال والصدأ ؟ ولماذا يبقى الباب الخارجى مغلقا ؟ ولماذا يبدو القسيس وكأنه سجين ؟ وما هى قصته الحفية ؟ بدأت هذه الأسئلة تتزاحم فى رأس ادجورث وهو جالس يرتشف الشاى ولكنه

لم يملك الا أن يهز رأسه ويتأمل للمرة الأخيرة « انى أخشى أن شيئاً ليس صحيحاً » قال ذلك وهو يغلق الباب الأبيض من خلفه ويترك فى هذا البيت المهمل وبين الكواكب وتوابعها ذلك القسيس المافون والفتاة الجميلة دون أن يجد جواباً لأسئلته

لايتيتيا بيلكنجتون (١)

دعنا نضايق أمين المكتبة مرة أخرى ولنسأله أن يصل الى الأعماق وينفض الغبار ويسلمنا الكتاب الصغير ذا اللون البنى من هناك ، مذكرات السيدة بيلكنجتون وهى ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد طبع بمعرفة بيتر هوى (٢) فى دبلن عام ١٨٢٦ ان الغموض الكثيف يخفى عزلتها . والتراب يتراكم على قبرها لقد أصبحت واحدة من لوحات هذا القبر المفككة بمعنى أنه لم يقرأ تلك المذكرات أى شخص منذ أوائل القرن الماضى فقد ترك قارىء - ويحتمل أن يكون ذلك القارىء امرأة عافت نفسها اما لبذائها واما لأنها أخذت مصعوقة بيد الموت - فتركت فى وسط المجلد قائمة بالسلع والبضاعة التى تود شراؤها من السوق لكى تشير الى المكان الذى انتهت فيه من قراءتها واذا كانت اية امرأة أرادت أن تصبح بطلة فهى لايتيتيا بيلكنجتون فمن تكون اذا ؟

هل يمكنك أن تتخيل تناقضا غريبا جدا بين مول فلاندرز وليدى ريتشى (٣) بين امرأة المدينة التى دارت وعركت الحياة وحنكتها الأيام وبين سيدة رقيقة أنبتت نباتا حسنا ؟ وكانت لايتيتيا بيلكنجتون (١٧١٢ - ١٧٥٩) شيئاً من هذا القبيل - تكتنفها الشبهات والحيل وامتلات حياتها بالمغامرات ومع ذلك فهى تشبه ابنة ثاكرى (٤) والآنسة ميتفورد (٥) ومدام دى سافيني (٦) وجين أوستن (٧) وماريا ادجورث

-
- | | |
|----------------------|-----|
| Laititia pilkington. | (١) |
| Peter Hoey. | (٢) |
| Lady Richie. | (٣) |
| Thackeray. | (٤) |
| Miss Mitford. | (٥) |
| Mame De Sevigine. | (٦) |
| Jane Austen. | (٧) |

لأنها مفعمة بتقاليد جنسها القديمة حتى انها كتبت كما تتحدث السيدات لتحقيق المتعة ومن خلال مذكراتها لا يمكن أن ننسى أنها انما كانت تكتب لرغبتها في الترفيه ولتندب مصيرها التعس وبينما هي تجفف دموعها وتتحكم في آلامها ترجونا أن نغفر لها خروجها البشع على الآداب العامة الذي لا يشفع لها فيه الا ما عانتها طوال حياتها من السيد ب.ن. الحبيث يسومها سوء العذاب ولا بد أنها قالت وما عانتها من مكائد الليدى س.ت. وذلك لأنه من يكون في استطاعته أن يعرف أحسن مما تعرفه ابنة حفيدة ايرل كيلمالوك (١) انه على المرأة أن تخفى آلامها وعلى ذلك تعتبر لايتيتيا في زمرة نساء انجلترا الأدبيات اللائي يحافظن على التقاليد من واجبه التسرية مع اخفاء غريزتها وعلى الرغم من أن غرفتها كانت بالقرب من وزارة الخزانة فانها كانت غرفة بالية والمنضدة مغطاة بورق الاعلانات بدلا من المفروش القماش والزبدة كانت تضعها في حذاء ، وعلى الرغم من أن السيد ورزدیل (٢) كان يستعمل قدر الشاي لاحضار قليل من البيرة في هذا الصباح فهي لا زالت تنصدر المائدة ولا زالت قادرة على المؤانسة وربما كانت لغتها خشنة ولكن من الذي علمها الانجليزية ؟ انه دكتور سويفت العظيم

وفي خلال جميع تجولاتها - وما أكثرها - وفي أثناء سقطاتها - وما أبشعها - فانها كانت تحن الى تلك الأيام الخوالي في ايرلندة عندما كان سويفت « يقرصها » ليدفعها الى حديث لائق وعندما كان يضربها لأنها كانت تتحسس وتفتش الادراج لقد لطح وجنتيها بسواد انفل المحترق ليثير أعصابها وكان يأمرها بخلع حذائها وجواربها لتقف الى الحائط ثم يقيس طولها وكانت ترفض بادىء الأمر ثم استسلمت بعد ذلك وقد تساءل العميد « لماذا هذا الرفض ؟ أظن أن جوربها مقطوع أو أن أصابع قدميها قدرة وفي كلتا الحالتين فاني سعيد بأن أضحك » وقد أعلن العميد ان طولها ثلاثة أقدام وبوصتان رغما عن أن لايتيتيا كانت تشكو من أن ضغط يد سويفت على رأسها قد جعلها تنكمش الى النصف ولكنها كانت غبية في شكواها فربما كان مرجع الألفة بينهما الى هذه الواقعة بالذات - وهي أنها كانت ثلاثة أقدام وبوصتين ليس

Earl Killmallock. (١)

Mr. Worsdale. (٢)

غير(١) لقد عاش سويث حياته بين العمالقة وهو الآن يجد السحر فى الأقسام ولقد أخذ المخلوقة الصغيرة الى مكتبه وقال لها « انى أحضرتك الى هنا لأريك كل ما عندى من مال منذ كنت أعمل بالوزارة ، ولكن حذار أن تسرقى منه شيئاً ، فأجابت « لن أفعل ذلك مطلقاً يا سيدى » وعندئذ فتح خزانة وأراها مجموعة من الأدراج الحاوية وهو يقول «رحمك ياربى لقد ذهب المال ، لقد كان هناك سحر فى تعجبها وسحر فى تواضعها كان يمكنه أن يضربها وأن يضايقها ، وأن يجعلها تصيح بينما هو أصم ، ويدفع زوجها الى شرب ثمالة النبيذ ، وأن يدفع أجرة العربة التى تقلهما وأن يضع الجنيئات داخل كعكة الزنجبيل ومن العجب أنه كان يرق - كما لو كان هناك شىء بشع يسعده عندما يفكر فى أن مثل هذه القزمة تحاول أن تكون لها حياتها ولها تفكيرها الخاص وذلك لأنها وهى مع سويث ، كانت على سجيتها ؛ وهذا أثر من آثار عبقريته انها كانت تخلع جواربها اذا ما طلب منها ذلك وعلى ذلك ، وعلى الرغم من أن سخريته قد أرعبتها وتبينت أن تناول العشاء فى منزل العميد ليس فيه أية سعادة وهى تراه وهو يرقب - فى المرأة الكبيرة المعلقة أمامه - الساقى وهو يسرق البيرة الى جوار خزانة أدوات المائدة ، فى الوقت الذى كانت ترى أنه شرف كبير أن تسير معه فى حديقته ؛ وأن تسمعه يتحدث عز بوب (٢) ويقتبس من هوديبراس (٣) ثم يهرع الى البيت تحت المطر ليوفر أجر العربة ثم تجلس فى قاعة الاستقبال تتجاذب مع السيدة برنت مدبرة المنزل أطراف الحديث حول شنوذ العميد واحساناته وكيف أن البنسات الستة التى وفرها من أجر العربة وهو يهرع الى بيته تحت المطر أعطاهما للرجل العجوز الأعرج الذى يبيع كعكة الزنجبيل عند منعطف الطريق بينما يندفع العميد نحو الدرج الأمامى ونحو الحلف بعنف حتى انها كانت تخشى أن يسقط ويؤذى نفسه

ولكن ذكريات الرجال العظام ليست منزهة عن الخطأ فى تفاصيلها أن هذه الذكريات تلقى أضواء على مجرى الحياة كما يلقي الفئار أشعته فتتير الظلام ان تلك الذكريات تبرق وتتلألأ وتصدم وتكشف الستر ثم تتلاشى لقد كان فى تذكرها لسويث بعض النفع بالنسبة للايتيتيا عندما تراكمت عليها المشاكل وناءت تحتها . لقد تركها السيد بيلكنجتون

(١) ألف سويث قصته رحلات جاليفر الى بلاد تخيل أهلها عمالقة - فبدأ جاليفر وكأنه قزم صغير (المترجمة)
 (٢) Pope.
 (٣) Hudibras.

هي ووالدها جريا وراء أرملة تدعى و رر ن ثم مات أبوها
وأهانها عسكر الشريف وهجرت في منزل خاو ومعها طفلان لتكلفهما
ان صندوق الشاي مغلق وباب الحديقة مقفول والفواتير لم تدفع وهي
ما زالت صغيرة السن جذابة مرحة وعاطفة متأججة في قرص الشعر بسرعة،
ونهم لا يمكن تصديقه في قراءة الكتب وكان هذا النهم في القراءة هو
السبب في القضاء عليها اذ كانت تقرأ كتابا وكان هذا الكتاب فاتنا
والوقت متأخرا ولم يقبل صاحب الكتاب اعارتها اياه وانما قرر أنه
سوف ينتظرها حتى تنتهي من قراءته . وهكذا جلسا في حجرة نومها
ولم يكن هذا التصرف ليبقى سرا في طي الكتمان . وفجأة اقتحم الغرفة
عليهما اثنا عشر من رجال الشرطة عن طريق شبك المطبخ ، وظهر السيد
بيلكنجتون وقد ربط حول رقبته منديلا من الحرير . ودارت معركة
بالسيوف أما عن تفسيرها للموقف بأنه لمجرد قراءة كتاب جميل فهل
كان في استطاعة أحد أن يتوقع تصديق هذا التفسير وهل كان في امكان
السيد بيلكنجتون ورجال الشرطة الاثنى عشر تصديقها ؟ هل كان
وحدوما معا بقصد القراءة ليس غير !؟ هل مجرد الجلوس هكذا في ساعة
متأخرة لم يكن الا لمجرد أن تنتهي من قراءة كتاب جديد ! بل لقد فسّر
السيد بيلكنجتون ورجال الشرطة الموقف بالصورة التي يمكن أن يفسرها
الرجال . وانما عشاق القراءة - كما أقنعت نفسها - سوف يفهمون
ميلها للقراءة وينكرون تلك النتيجة السيئة

والآن ماذا تفعل ؟ لقد أوردتها القراءة موارد الهلاك ولكن في امكانها
الكتابة فمنذ وقت بعيد وهي قادرة على كتابة الخطابات ، حقيقة لقد
كتبت - في سرعة لا يمكن تصديقها وعلى درجة كبيرة من الاتقان - قصائد
وخطابات، وكتابات مختصرة للأنسة هودلى والى مسجل دبلن والى الدكتور
ديلفيل في الريف .

« سلام الى ديلفيل السعيد والمقر الهنيء ! » « هل يوجد رجل
ذو نظرة ثابتة دائبة ؟ »

وهكذا تستمر القصيدة عن أتفه مناسبة في سهولة ويسر دون
تعثر ثم رحلت الى انجلترا وأقامت بها وأصدرت اعلانا عن استعدادها
لكتابة أية خطابات في أي موضوع فيما عدا القانون ، مقابل اثني عشر
بنسا والمدفوع فورا ولا تقبل الودائع واتخذت لنفسها سكنا في مواجهة
مصنع هوايت للشيكولاتة ، وهناك في المساء وبينما كانت تروى زهورها
في حوض النافذة كان الرجل النبيل واقفا بالنافذة المقابلة في المنزل
على الجانب الآخر من الطريق فشرب نخب صحتها ثم أرسل إليها

زواجه من بيرجاندی وبعد ذلك سمعت الكولونيل الشيخ - وهو يصيح « حرکها من بعدی ياربى ، حرکها من بعدی » وهو يردد « د - د » فى م . . ل ب ه وهو يصعد درج بيتها المظلم هذا السيد الحبوب ، الذى يشرف رتبته بارتدائه الملابس العسكرية قبلها وهنأها وفتح حافظته وترك لها ورقة مالية من فئة الخمسين جنيها لتكتب عن سير فرانسيز تشايلد مثل هذه العطايا كانت تشحذ قلمها عن تفجيرات عجيبة للانتاج كاعتراف بالجميل ولكن من ناحية أخرى اذا رفض رجل أن يدفع أو لمحت سيدة عن عدم لياقة كتاباتها فان هذا القلم الزاهر نفسه يلتوى وينحرف فى كراهية لاذعة وعتاب مرير اذا قلت ان والدك مات كافرا بالله ، هكذا بدأت احدى اتهاماتها ولكن بقية الرسالة لم تطبع سيدات عظيمات كن متهمات بكل صنوف الفجور ورجال الدين - ما لم يكن تذوقهم للشعر لاغبار عليه - فانهم سوف يعانون تأديبا عنيفا فهى لم تنس أن السيد بيلكنجتون - زوجها - كان من رجال الدين وبيطء ولكن بكل تأكيد بدأت حفيذة ايرل كيلمالوك تهبط فى مستواها الاجتماعى فبعد أن كانت تعيش فى شارع سانت جيمس بفضل محسنيه من النبلاء نزلت الى شارع جرين لتقيم مع خادم اللورد ستير وزوجته التى كانت تحترف مهنة غسل ملابس ذوى الجاه من الناس انها - وهى التى كانت ذات يوم تداعب الدوقة - كانت تسعد وهى تجالس هؤلاء القوم وترقص الرقصة الرباعية مع السائيس والغسالات وكتاب شارع الصحافة الذين يعبون البيرة عبا ويرشفون الشاي الأخضر ويدخنون التبغ وهم يقصون قصصا غاية فى البذاءة عن ساداتهم وسيداتهم ويضعون على حديثهم من التوابل ما يخفف من هول ما يقولون لوضاعة أخلاقهم ومن هؤلاء التقطت لايتيتيا تلك الحكايات الخاصة بالعظماء واطلعت على أسرارهم مما كان مادة تنثرها على صفحاتها عند الهجوم كما كانت هذه الأسرار تخدم أغراضها عندما ينضب معينها أو عندما تزداد صاحبات البيوت وقاحة عند مطالبتهن لها بالايجار . انها فى الواقع حياة قاسية فهى تسير حتى شيلسى تحت الثلوج المتساقطة وهى لا ترتدى الا الخفيف من الملابس وبعد ذلك يقصها سيرهانس سلون كما يقص المتسولات بعد أن ينفجها شلنين ونصف ثم تسافر سيرا على الأقدام الى شارع أورموند وتتحصل على جنيهين من الدكتور ميد الكريه ومن فرط سرورها وسعادتها تقذف بالجنيهين الى أعلا فى الهواء ومن نكد حظها يقع الجنيهان على الأرض ويختفيان فى شق من الشقوق . انها حياة قاسية يهينها فيها السائيس ؛ وكانت تجلس أمام قدر الماء وهو

يغلي لأنه لا يصح أن تظن صاحبة المنزل أن « تلقيمة » الشاي أبعد من أن تصل إليها امكانياتها ثم حاولت الانتحار مرتين في الليالي القمرية وهي تسير في حديقة سانت جيمس بين أشجار الليمون العابقة بأزهارها وذلك بأن تلقى بنفسها في بركة روزاموند وحدث ذات مرة أن أغلق من دونها باب مقبرة ويستمينستر آبي وهي هائمة بين المقابر واضطرت إلى أن تمضى الليل في المنبر وقد لفت جسمها بسجادة كانت على منضدة القرايين لتحمي نفسها من هجمات الفيران « كم أتمنى الموت وكم تتوق أذنأي إلى سماع ترانيم الملائكة » ولكن مصيراً آخر كان يتربص بها فعلى الرغم من أن السيد كولي كير والسيد ريتشاردسون كانا يمدانها بالورق ذي الحافة المذهبة لتكتب عليه بادئ الأمر ثم أخذوا يمدانها بعد ذلك بورق اللف فان صاحبات البيوت وهن شياطين في صور نساء وبعد أن كن يحتسين الخمر ويتناولن فاخر الطعام على مائدتها أيام عزها وكن لا يمشطن شعورهن سنوات وسنوات من فرط قذارتهن نجحن أخيراً في أن يسقن صديقة سويقت وابنة حفيدة إيرل إلى السجن مع المدينين في سجن مارشالسي

لقد استمطرت اللعنات على زوجها بمرارة فهو الذي تسبب في أن يجعل منها سيدة ملأت حياتها بالمغامرات وهي التي تربت « لتكون سيدة بيت وديعة كالحمامة » وكلما كانت تضيق بها الحياة كانت تفتش في ذاكرتها وتنقب في عقلها عن حكايات وذكريات وعن فضائح وعن مشاهد من طبيعة البحر الذي لاقرار له ، وعن مشاهد من طبيعة الأرض المشتعلة - تنقب عن أي شيء تملأ به صفحة مقابل جنيه تقيم به أودها تذكرت أنها كانت تأكل مع سويقت بيض الزقازق - وكان يقول لها هذه يا هاسي بيضة زقزوق لقد كان الملك ويليام يدفع شلنين ونصف مقابل بيضة منها « لقد تذكرت كذلك أن سويقت لم يكن يضحك مطلقاً بل كان يمص شدقيه بدلاً من الضحك ماذا يمكنها أن تتذكره كذلك فهناك كثير من السادة وكثير من السيدات وكيف اندفعت النافذة مفتوحة عندما مات أبوها وكانت أختها تهبط على الدرج حاملة معها علبة السكر وهي تضحك تذكرت كل ذلك في مرارة وفي صراع فيما عدا حبها لشيكسبير وأنها كانت تعرف سويقت في يوم من الأيام وأنها كانت تحتفظ خلال كل هذه التقلبات والظلال التي خيمت على حياة أجهدها المغامرة كانت تحتفظ بروح مرحة و ببعض من نشأة مترفة وشهامة جعلتها حتى آخر حياتها القصيرة تطلق النكتة وتستمتع بالحياة والموت يملأ قلبها وتورق الديون مضجعتها

(١) جين أوستن

كان من المحتمل - لو أن الأنسة كاسندرا أوستن نجحت فى تنفيذ رغبتها - أننا ما كنا لنحصل من جين أوستن الا على قصصها وحدها فلم تكن تكتب بحرية الا لأختها الكبرى ، واليهما وحدها كانت تفضى بآمالها ، ولو صدقت الشائعات فان جين أوستن تكون قد أفضت الى أختها بخيبة الأمل الكبرى الوحيدة فى حياتها ، ولكن عندما أصبحت الأنسة كاسندرا أوستن عجوز أو ازدادت شهرة أختها تصورت أنه قد يأتى الوقت الذى يتفحص فيه الغرباء ويدرس التلاميذ كل ما له علاقة بالكاتب أحرقت كاسندرا كل خطاب كان يمكن أن ينقع غلة المتعطين ولم تبق الا ما اعتقدت أنه من التفاهة بحيث لا يثير اهتمام أحد .

لذلك فقد استقيننا معلوماتنا عن جين أوستن من الشائعات ومن قليل من الخطابات ومن كتبها أما عن الشائعات - الشائعات التى ظلت حية واضحة - فانها لا تستحق الازدراء وباعادة ترتيبها قليلا فانها تصبح ملائمة لهدفنا بصورة عجيبة ومن أمثلة ذلك أن جين لم تكن جميلة على الاطلاق وانما كانت متأنقة جدا على خلاف فتاة فى سن الثانية عشرة وكانت هوائية غريبة الأطوار بل متكلفة هكذا وصفتها ابنة عمها فيلاديلفيا أوستن وعندنا بعد ذلك السيدة ميتفورد التى عرفت الأختين أوستن منذ الصغر والتى كتبت تقول « انهما أطف وأغبي صائدات أزواج متكلفات عرفتهما فى حياتى » وتأتى بعد ذلك صديقة الأنسة ميتفورد المجهولة الاسم التى تزورها الآن وتقول انها تجمدت كقطعة دقيقة متصلبة ، قطعة صامتة للغبطة الفردية اذا كان يمكن أن توجد ، وأنه - حتى ظهر كتاب «الكبرياء والتحامل» (٢) أى جوهرة ثمينة كانت مخبوءة فى ذلك الغلاف الذى لا يلين - لم يكن المجتمع يرى فى جين أوستن أكثر من امعة (لم تكن فى نظر المجتمع الا تلك القطعة من الحديد التى يقلب

Jane Austen. (١)

Pride and Prejudice. (٢)

بها النار في المدفأة) ولكن أصبحت القضية مختلفة الآن تمام الاختلاف ثم تمضى السيدة الطيبة فتقول «انها لا زالت ذلك المحرك للنار - ولكنه محرك يخشاه كل فرد ان لجين أوستن ذكاء الفنان الذى يرسم الشخصيات والذى لا يتكلم ومع ذلك فهو مرهوب فعلا ! » وهناك من الناحية الأخرى - بالطبع - آل أوستن وهم قلما يقرظون أو يمتدحون أنفسهم ، ولكنهم على أية حال قالوا ان اخوتها كانوا معجبين بها فخورين . وكانوا متعلقين بها لعبقرياتها وطهرها وسلوكها الحميد وأحب كل منهم - فيما بعد أن يتخيل الشبه بين بنات العمومة أو بناتهم وبين الأخت العزيزة جين التى لا يتوقعون أن يجدوا لها مثيلا مطابقا كانت جذابة ولكنها مستقيمة « محبوبة بين الأهل مهابة الجانب بين الغرباء لسان لاذع وقلب رقيق وليست هذه المتناقضات بأى حال من الاحوال متناقضة فى حياتها فعندما نرجع الى القصص فاننا سنجد أنفسنا نتعثر أيضا فى هذه العقد فى الكاتبة

ولنبدا بالفتاة الصغيرة المتأنقة التى رأت فيها ابنة عمها فيلاديلفيا أنها تخالف فتاة الثانية عشرة هوائية متكلفة، هذه الفتاة سرعان ما أصبحت مؤلفة قصة عجيبة بعيدة كل البعد عن عبث الأطفال «حب وصدقة» (١) والذى يبدو غير قابل للتصديق أنها كتبتها فى سن الخامسة عشرة من عمرها وأن هذه القصص كتبت لتسلى تلميذات المدرسة وأهديت احدى تلك القصص الى أخيها بشيء من السخرية الهادئة وقامت أختها برسم صور قصة أخرى بالألوان المائية . كل هذه نكات يشعر الفرد أنها عائلية ، كانت هجمات من الهجاء تتناسب مع الجو العائلى اذ ان أخوات أوستن كانوا يسخرون علنا من السيدات المرهفات اللائى يشهقن ثم يغمى عليهن على الأريكة

ولابد أن الأخوة والأخوات قد ضحكوا عندما قرأت عليهم جين آخر لدعاتها عن الرذائل التى كانوا جميعا يكرهونها

« اننى أموت شهيدة الحزن والأسى لفقدى أوجستن اغمساء واحدة كانت القاضية اذ كلفتنى حياتى حذار من الاغماءات يا عزيزتى لورا افعل ما شئت من لوثات الجنون كما يحلو لك ولكن حذار أن يغمى عليك »

وهكذا اندفعت بقدر ما أسعفتها الكتابة وبأسرع مما تستطيع كتابة الكلمات لتحكى مغامرات لورا وصوفيا التي لا يمكن تصديقها ومغامرات فيلاندر وجوستافوس ومغامرات السيد الذي يقود عربة بين أدنبره وستيرلنج يوما بعد يوم وعن سرقات الثروة التي كانت مودعة درج المنضدة تكتب عن الأمهات اللائي تضورن جوعا وعن الأبناء الذين قاموا بتمثيل دور ما كبث ومما لا شك فيه أن القصة لا بد قد أثارت ضحك تلميذات المدرسة ومع ذلك لاشيء أكثر وضوحا من أن هذه الفتاة ذات الخمسة عشر ربيعا كانت تجلس في ركنها الخاص من حجرة الجلوس وتكتب لا لتثير ضحك الاخوة والأخوات ولا للاستهلاك المحلي في محيط العائلة وانما كانت تكتب لكل شخص لا لشخص معين بذاته وانما كانت تكتب لجيلنا كما كانت تكتب لجيلها وبمعنى آخر - حتى في هذه السن المبكرة - كانت جين أوستن تكتب ويحس كل فرد بذلك من وقع أسلوبها ورشاقتة وقوة تعبيرها

لم تكن أكثر من شأبة لينة الجانب مدنية بطبعها مجاملة ومن تكن تلك خصالها لا نملك الا أن نحجبها ومع ذلك فلم تكن الا موضع الازدراء قصد بمثل هذه العبارة أن تبقى لمدة قصيرة محددة مليئة بالحياة، سهلة، كلها مرح، تميل دون قيد الى مجرد العبث - حب وصدقة كتاب فيه كل هذه الصفات، ولكن ما هي تلك الملاحظة التي لا تندمج مع بقية الملاحظات والتي لها صدى واضح تتخلل الكتاب بأكمله؟ انها صوت الضحك - ان فتاة الخمسة عشر ربيعا تضحك من ركنها الخاص على العالم.

ان فتيات الخمسة عشر ربيعا يضحكن دائما فهن يضحكن عندما يستعمل السيد بنى الملح بدلا من السكر ويكدن يقعن من الضحك عندما تجلس السيدة تومكينز العجوز على القطة ولكنهن يبكين في اللحظة التالية وليس لهن موضع ثابت يرين منه أن هناك شيئا في الطبيعة البشرية يثير الضحك دائما صفات في الناس رجال ونساء تثير دائما سخريتنا انهن يجهلن أن ليدي جريفيل التي تأمر وتنهى دائما وماريا المسكينة التي هي محط ذلك الأمر والنهى هما عينتان من شخصيات كل حفلة رقص ولكن جين أوستن عرفت ذلك منذ ولادتها - وكان احدي الجنيات اللائي يحطن بمهد الطفولة قد طارت بها وجابت بها الآفاق عقب ولادتها مباشرة وعندما أعيدت الى مهدها لم تكن تعلم كيف يبدو العالم فحسب بل كانت قد اختارت مملكتها وقد تعهدت بأنه اذا ما كان عليها أن تحكم ذلك الاقليم فانها لن تطمع في غيره وعلى ذلك وهي في سن الخامسة عشرة كانت لديها صور في خيالها عن بقية الناس وهي لا تدري

عن نفسها شيئا وكانت تدرك أن كل شيء سوف تكتبه لن يتغير ، فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الصحف لا بالنسبة للأشخاص فحسب وإنما بالنسبة للعالم كله . انها لا تتحدث عن نفسها وهي لذلك غامضة . وعندما تضع جين أوستن الكاتبة في أعظم جزء من كتابها جزءا من مناقشة ليدي جريفيل فلا أثر للغضب في زجرها الذي تلقته من قبل جين أوستن ابنة رجل الدين انها تشير بوضوح الى الملاحظة ونحن نعلم بالضبط موضع هذه الملاحظة من خريطة الطبيعة البشرية . ونحن نعلم ذلك لأن جين أوستن التزمت بعهدا ولم تتعد حدودها على الاطلاق ولم تقترف من الانفعال العاطفي ما يخجل ، حتى وهي في سن الخامسة عشر ربيعا . وأنها لم تتنازل عن سخريتها مجاملة لأحد ، ولم تطمس معالم شيء في صورة شعرية غامضة . ان الانفعالات والصور الشعرية - وكأنها تقول وهي تشير مؤكدة بعصاها - لا وجود لها في عملها فالفواصل محددة المعالم في وضوح . ولكنها من ناحية أخرى لا تنكر وجود القمر والجبال والقلاع ولم يعتلج قلبها بعاطفة الا مرة واحدة نحو ملكة اسكوتلاندة اذ كانت - بحق - تعجب بها كثيرا . وكانت تقول عنها « انها واحدة من أولى الشخصيات في العالم ، أميرة ساحرة لم يكن لها الا صديق واحد هو دوق نور فوك الذي لم يكن له من أصدقاء سوى السيد هوايتيكر والسيدة ليفروي والسيدة نايت وأنا » وبهذه الكلمات وصفت عاطفتها وغلفتها في ابتسامة . وانه لمن دواعي الغبطة أن نتذكر هنا أي عبارات كتبتها أخوات برونتيس (١) الصغيرات اللاتي كتبن بعد جين أوستن بوقت ليس بالطويل عن شخصياتهن من الشمال وعن الدوق ويلنجتون .

نمت الفتاة المتأنقة الصغيرة وأصبحت « الطف وأغبي صائفة أزواج وأكثرهن تكلفا » يمكن أن تذكرها السيدة ميتفورد . وعرضا كتبت المؤلفة قصتها في السر وأسمتها « كبرياء وتحامل » (٢) وبقيت دون نشر عدة سنوات . وبعد ذلك بقليل قيل انها بدأت في كتابة قصة أخرى « آل واطسون » ولم تتمها لأنها لم تكن راضية عنها لأسباب في نفسها ثم جاء بعد ذلك عملها الأكثر نضوجا وهو يستحق القراءة لأنه يهيء أجمل نقد لكاتبة عظيمة في روائع القصص فقد أخذت مشاكلها تتكشف وأصبحت الطريقة التي سلكتها للتغلب على تلك المشاكل أقل غموضا من الناحية الفنية . فنجد أولا صلابة وسفورا في الفصول الاولى وبذلك تبرهن

Brontes. (١)

Pride and Prejudice (٢)

على أنها واحدة من هؤلاء الكتاب الذين يضعون الوقائع دون تزويق الى حد ما فى بادىء الأمر ثم بعد ذلك تعود اليها مرارا وتكرارا لتكسو تلك الوقائع وتخلق الجو الملائم كيف كان يمكن عمل هذا بذلك القدر وبأى الوسائل من الحذف والادماج والحيل الفنية ؟ فلسنا بقادرين على تبين ذلك . ولكن المعجزة كانت يمكن أن تتحقق لو أن التاريخ البغيض للسنوات الأربع عشرة فى الحياة العائلية كان قد تحول الى سنوات براءة ومقدمات سهلة واضحة ، ما كنا لنتوه فى درب من الحدس عن ماهية الصفحات التى فيها أرغمت جين أوستن قلمها لأن يسطر كفاحها الاول وفى هذا المقام فاننا ندرك أنها لم تكن مشعوذة رغم كل هذا ، وكأى كاتب آخر عليها أن تخلق الجو الذى فيه يعطى نبوغها الغريب ثماره وهى فى ذلك تتسكع وتجعلنا ننتظر - وفجأة حققت ماتريد ، وأصبحت الأمور تجرى على الصورة التى تريد لها أن تجرى فيها ان آل ادوارد ذاهبون الى المرقص - وعربة توملينسون تمر ، ثم هى تستطيع أن تخبرنا بأن «تشارلس قد زود بالقفاز وطلب منه أن يبقيه معه » ، ثم تخبرنا بأن توم موشجرريف ينسحب الى مكان قصى ومعه كمية ضخمة من المحار وأنه قد ذاعت شهرته . وهكذا نرى أن عبقرية أوستن قد انطلقت وامتلات حيوية - وألهبت حواسنا دفعة واحدة ، وتملكتنا غزارتها النادرة التى تستطيع جين أوستن وحدها انتاجها . ولكن مم تكون كل ذلك ؟ هل من حفلة رقص فى القرية ، أم من تجمع عدد قليل من الأحباب فى غرفة يمسك كل زوجين يدي كل منهما ؟ أم من التقاء حول موائد الطعام والشراب ؟ أم هل وقعت الكارثة ونهرت سيدة صغيرة ولدا مرة ثم عاملته مرة أخرى باحسان . فلا مأساة ولا بطولة ؟ ومع ذلك - ولأسباب - يتحرك المنظر الصغير بعيدا عن كل تناسب نحو جدية سطحية ولكننا أجبرنا على رؤية كل ذلك عندما قامت اما Emma فى صالة الرقص ، ونتساءل كيف استوعبت جين أوستن كل ذلك ، وكيف كانت دقيقة ملهمة بكل مشاعر الاخلاص وكان من الممكن أن تكشف عن نفسها فى تلك الأزمات المحزنة فى الحياة والتى - كما كنا نراقبها - تأتى حتما أمام أعيننا ؟ كانت جين أوستن بذلك أستاذة ذات انفعالات أكثر غورا مما يبدو ظاهريا فقد نبهتنا الى أن نتزود بما لم يكن موجودا فى هذا الظاهر . وواضح أن ما تعطيه شىء بسيط ، ومع ذلك فهو يتكون من شىء ينمو ويزيد فى عقل القارئ على الصورة الأكثر احتمالا ، شىء يتكون من صور الحياة التى تبدو فى الظاهر كأنها تافهة . ويكون الاهتمام دائما فى كتب جين أوستن منصبا على الشخصيات . واننا لنعجب كيف تتصرف اما Emma عندما حضر لورد أوزبورن وتوم موشجرريف فى الساعة الثالثة الا خمس

دقائق في نفس اللحظة التي تحضر فيها ماري الصينية وعلبة السكاكين ؟
انه لوضع شاذ للغاية - فقد اعتاد الشابان أن يكونا على قدر من الرقة أكثر
من ذلك ويمكن أن نعتبر أن اما Emma قد أنشئت تنشئة سيئة
وشرسة ، هي والعدم سواء ان اللف والدوران في الحوار يجذبنا ويشدنا
الى أن نشغف به والى توزيع انتباهنا مناصفة بين الحاضر والمستقبل
وعندما تتصرف اما Emma في النهاية بصورة تحقق أقصى ما يمكن أن
نأمله فيها فاننا نثور كما لو كنا شهودا في حادث على غاية كبيرة من
الأهمية وفي هذه القصة الناقصة والأقل جودة في أساسها نجد جميع
عناصر عظمة جين أوستن ومكوناتها ففيها الصفات الدائمة للأديب اذا
استبعدنا الحيوية الظاهرية ، والتشابه بالحياة ، فان ما يتبقى يقدم سعادة
أعمق لأنه تمييز عظيم للقيم البشرية واذا أبعدها هذا أيضا عن فكرنا
فانه يمكن للفرد أن يحيا في منتهى السعادة على الفن المطلق المتغير الانفعال
والنسب في منظر قاعة الرقص وهو أمر يستمتع به الفرد لذاته
- استمتاعه بالشعر - وليس باعتبار أن هذا الفن المطلق حلقة توجه
القصة هذه الوجهة أو تلك

ان الاشاعة تقول ان جين أوستن كانت «مستقيمة» رقيقة صامته
«انها ذلك المحرك للنار الذي يرهبه كل فرد» ولهذه الصفات آثارها
فهي من الممكن أن تكون قاسية الى حد كبير ، وانها واحدة من أكثر الكتاب
تهكما في الآداب كلها ان تلك الفصول الأولى من كتاب « آل واطسون »
ثبتت أن قدراتها ليست عبقرية خصبة ، فهي ليست كاميلي برونتي بمجرد
أن تفتح الباب يحس بها الجميع . ولكي يتكامل عش الفن كانت جين أوستن
تجمع بتواضع وسعادة لباليب الأغصان والقش وترتيبها معا في عناية
وكانت هذه اللباليب والقش جافة بعض الشيء أو عليها قليل من الأتربة .
فكان هناك البيت الكبير والبيت الصغير وحفل الشاي وحفل العشاء
ورحلات من آن لآخر وكانت تحدد معالم الحياة باتصالات قيمة وبايراد
كاف من المال ، وبالطرق الموحلة ، والاقدام المبتلة ، واتجاه نحو شعور
السيدات بالتعب ومبدأ بسيط يساند تلك الحياة مع نتيجة
مستخلصة والتعليم الذي يصيبه عادة أعالي القوم من الطبقة المتوسطة
التي تعيش في الريف - وتركت خارج تلك الحدود الرذيلة والمغامرة
والعاطفة ولكنها بهذا النثر وبهذه الأمور الصغيرة لم تتفاد شيئا أو
تشوّهه بل بصبر وبدقة أخذت تحكي لنا كيف «أنهم لم يتوقفوا في أي
مكان حتى بلغوا نيوبري حيث نالوا طعاما هنيئا واتصل بهم العشاء الى
وقت متأخر وانطوت متع اليوم وآلامه » ولم تدفع ضريبة التقاليد حتى

بمجرد التكريم اللفظي وان كانت تؤمن بتلك التقاليد فضلا عن تقبلها لها فعندما تصف رجل دين مثل أومند برترام أو بحارا بالذات فانها تبدو وكأن قدسية محل عمله قد منعتها من استعمال وسائلها الرئيسية بحرية - وهي عبقريتها الساخرة- وقد تصبح عرضة لأن تنجرف في المديح اللائق أو في الوصف الواقعي ولكن هذه الأمور استثنائية اذ أنها في أكثر حالاتها تستعيد قول المرأة المجهولة «ان لجين أوستن ذكاء الفنان الذي يرسم الشخصيات والذي لا يتكلم ومع ذلك فهو موهوب فعلا ! وكانت لا ترغب لا في اصلاح الواقع ولا في القضاء عليه فهي صامته ، وهذا أمر مخيف فعلا ثم أخذت تخلق شخصياتها الواحدة تلو الاخرى من الاغبياء والمغرورين ومحبي العلم أمثال السيد كولينسس وسير والتر اليوت والسيدة بينت وكانت تحركهم بعبارات كلهيبي الشياطين وكانت - وهي تدور حولهم - تحدد معالم شخصياتهم الى الأبد ولكنهم بقوا هناك، ولا عذر لهم ولا رحمة أثرت نحوهم فلم يبق شيء من جوليا وماريا برترام عندما انتهت جين أوستن منهم أما ليدي برترام فقد تركت جالسة تنادى على «بيج» لتبعده عن أحواض الزهور بصورة قاطعة وهي تحقق العدالة المقدسة في كتاباتها فبينما بدأ دكتور جرانت غرامه بالاوز المطهو جيدا «انتهت حياته بالسكتة القلبية عقب ثلاث ولائم نقابية للعشاء في أسبوع واحد» ويبدو أحيانا أن مخلوقاتها قد خلقت لمجرد ادخال السرور على جين أوستن وهي تجوب في عقولهم وهي بذلك راضية ، مطمئنة ولم تحول من مظهر شخصياتها ، ولم تغير موضع حجر من مكانها ولم تحرك حتى من نصل الحشائش الخضراء في عالم يحقق لها مثل هذه السعادة الغامرة

ولا نطالبها نحن بهذا التغيير ذلك لأنه حتى وان كانت الوخزات والغرور المتزايد وحمى الحنق المعنوي تقتضى منا أن نعدل عالما مليئا بالحقد والمخازي والغباء فان هذا العمل فوق طاقتنا فالناس على هذا النحو وقد أدركت فتاة الخمسة عشر ربيعا كل ذلك ، وأثبتته وهي امرأة ناضجة وفي هذه اللحظة التي تحاول فيها ليدي برترام أن تبعد «بيج» بعيدا عن أحواض الزهور فانها تهيبء الجو لتشابمان لكي يقابل الأنسة فاني على انفراد ان التفرقة واضحة جدا والسخرية واجبة وحقة وعلى الرغم من استمرارها فاننا لا نكاد نلاحظها ولا يخرجنا من تأملاتنا وصف المخازي ولا التلميح بالحقد والضعينة ، بل تمتزج النشوة بنواحي التسلية امتزاجا غريبا وذلك لأن رأس مال الأغبياء هو الجمال

وتتكون صفة المراوغة هذه من جوانب متعددة تحتاج الى عبقرية فذة

لكي تجمع تلك الجوانب معا . وان مهارة جين أوستن تضم الى جانبها ذوقا سليما . فالغبي في قصصها هو الغبي والمغرور ليس الا مغرورا لأنه قد ابتعد عن نموذج العقل والمنطق الذي تحتفظ به في مخيلتها وتنقله اليها - بلا أدنى خطأ - حتى وهي تضحكنا . ولم يسبق أن استفاد روائي من احساس لا يخطيء بالقيم الانسانية أكثر من جين أوستن . وان ابرازها لكل مايتفرع عن الطيبة والصدق والاخلاص - وهي جميعا من بين أكثر الصفات المحببة الى النفس في الادب الانجليزي - هذا الابراز يتفق مع قلب لا يخطيء وذوق لا يشط وخلق صارم . انها ترسم شخصية ماري كراوفورد في خليط من المحاسن والمساوىء مستعينة بتلك الوسائل - القلب والذوق والخلق الصارم - وتترك لها العنان لتنتقل في حديثها ضد القسيس ، أو تتحدث في صالح بارون ذي الدخل الذي يقدر بعشرة آلاف من الجنيهات سنويا بكل سهولة وبكل حيوية ممكنة ، ولكنها بين الحين والآخر تلقى بملاحظة من عندها في هدوء ، وفي نبرة سليمة ، وسرعان ما تبدو ثرثرة ماري كراوفورد - على الرغم من أن هذه الثرثرة ممتعة - لا معنى لها خالية من التعبير . وهنا يكمن السر في عمق مناظرها وجمالها وتعقيدها . ومن هذا التناقض يبرز الجمال رزينا متميزا لا كذكائها فحسب وانما هو جزء لا يتجزأ منه . وقد قدمت لنا في قصة «آل واطسون» نموذجا من هذه القدرة فجعلتنا نعجب كيف يصبح عملا ذو فعل رقيق مليء بالمعاني رغم أنها وصفته بأنه عادي . وفي روايتها نجد أن نفس الموهبة قد بلغت الكمال ، وليس في هذا خروجا على المؤلف ، فمثلا وصفت تقول «الوقت ظهر في نور تامبتون شاير ، وشاب ثقيل يتحدث الى امرأة صغيرة ضعيفة جدا على درجات السلم وهما يصعدان الى حجرتهما ليرتديا ملابس العشاء ، بينما تمر عليهما خادمتا المنزل وكان الحوار بينهما تافها عاديا وعلى حين فجأة تصبح كلمتهما مليئة بالمعاني وتصبح تلك اللحظة بالنسبة الى كل منهما من اللحظات التي لا تنسى في حياتهما لحظة مليئة مضيئة متألقة وتظل أمامنا عميقة ، مضطربة ، هادئة فيها صفاء لفترة وجيزة ، ثم تعود الخادمة مرة أخرى وينهار كل شيء في نفس هذه اللحظة التي تجمعت فيها كل السعادة في الحياة برفق وهوادة لتعود الحياة كما كانت في مدها وجزرها ، تعود الى وجودها العادي »

هل هناك أكثر طبيعية من جين أوستن حينما تكتب عن التفاهات ولها مثل هذه النظرة الثاقبة في أعماق شخصياتها الموجودة في كل يوم عن الحفلات ، وعن الرحلات ، وعن الرقص في الريف ، ولم يكن هناك أية « اقتراحات لتعدل من أسلوبها في الكتابة » - من الأمير ريجنت الى

الاستاذ كلارك - يمكن أن تغريها ، ولا يمكن لأى قصة غرام أو أية مغامرة أو للسياسة ومكائدها أن تلقى ضوءا على الحياة فى الريف كما صورتها جين أوستن على درج السلم فى كتاب «آل واطسون» حقيقة ان الامير ريجنت وأمين مكتبته لا يجدان طريقهما لكى يظهرأ فى عالم جين أوستن فقد كانا يجاهدان ليتحرشا بضميرهما السليم الذى لم يفسد أو ليقطعا على بصيرتيهما النفاذتين هدوءهما فالطفلة التى شكلت عباراتها بهذه الرقة عندما كانت فى الخامسة عشرة لم تكف عن هذا الاسلوب ولم تكتب للأمير ريجنب أو لأمين مكتبته ، وانما كتبت للعالم قاطبة . وقد عرفت أين تكمن قدراتها ولأى مادة تصلح تلك القدرات لان تتناولها كأحسن مايتداولها كاتب على مستوى فنى رفيع جدا . وهناك انطباعات تمتد الى ما وراء محيطها ، وعواطف لا تتناسب مع أسلوبها أو مصادر وحيها ولا تستطيع أن تتناولها فمثلا ليس فى امكانها أن تجعل فتاة تتكلم بحماسة عن الاعلام والكنايس - وليس فى امكانها أن تلقى بنفسها وبكل قلبها فى لحظة غرام وهى تملك من الحيل على اختلاف أنواعها ما يمكنها أن تتحاشى المواقف الغرامية ولها طريققتها الخاصة المطولة لتتحدث عن الطبيعة ومواطن الجمال فيها . وهى تستطيع أن تصف ليلة جميلة دون أن تشير ولو مرة واحدة الى القمر . ومع ذلك وبينما نحن نقرأ العبارات القليلة التقليدية عن «جمال ليلة تقشعت عنها السحب وجمال التباين بين ألوان الخضرة فى الغابات كلما توغلنا فيها» ، نجد أن الليل قد أصبح دفعة واحدة « مهيبا يبعث الهدوء والحب » لأنها قالت لنا بمنتهى البساطة أن الليلة هكذا .

ان توازن مواهبها سليم جدا . ولا يوجد من بين قصصها قصة واحدة فاشلة ، كما لا يوجد بين فصول قصصها الكثيرة الا القليل من هذه الفصول الذى يمكن أن يعتبر بوضوح أقل من مستوى الفصول الاخرى . وبعد هذا كله فقد توفيت فى الثانية والاربعين ، ماتت وهى فى أوج عظمتها وهى ما تزال محلا للتطور الذى يجعل عادة آخر مراحل حياة الكاتب أكثر أهمية . كانت نشطة لا يمكن كبح جماحها ، موهوبة ذات حيوية فياضة فى الابتكار ومما لا شك فيه أن انتاجها كان سيزيد لو طال بها الأجل وهناك من الدلائل ما يغرينا بأن نتوقع أنها كانت سوف تغير من طريققتها أو أنها كانت ستكتب بطريقة مختلفة حقيقة ان الحدود بالنسبة لها معينة ، القمر والجبال والقلاع التى تقع على الجانب الآخر ولكن ألم تحدثها نفسها بأن تتعدى تلك الحدود ولو للحظة واحدة ؟ ألم تبدأ فى نوبة مرح ولحظة صفاء أن تفكر فى رحلة قصيرة لتكشف ما وراء تلك الحدود ؟

لنأخذ كتابها «اقناع» (١) وهو آخر قصة كتبتها كاملة لنرى في ضوءه الكتب التي كان من الممكن أن تكتبها لو لم تدركها المنية ففي هذا الكتاب ، اقناع نجد جمالا غريبا وكآبة غريبة كذلك الكآبة من النوع الذي يميز عادة فترة الانتقال بين مرحلتين مختلفتين في حياة الكاتب فنرى جين أوستن في هذا الكتاب ضجرة نوعا ما لقد تعودت أكثر من ذي قبل على مسالك عالمها الذي تكتب عنه ولم تعد تشعر بالسعادة التي كانت تشعر بها عندما كانت تلاحظ تلك المسالك لأول مرة ولهذا نلاحظ الخشونة في هزلها تلك الخشونة التي توحى بأنها لم تعد تستمتع بغرور سير والتر أو بعنجهية الأنسة اليوت كما أصبحت سخريتها جافة والنكته فجة ولم تعد بعد مهتمة بالمتع في الحياة اليومية أو تشعر بجدتها ولم يعد فكرها مركزا على موضوعها ولكن وعلى الرغم من أننا نشعر أن جين أوستن قد فعلت ذلك من قبل وعلى وجه أفضل ، فإننا نشعر الآن أنها إنما تحاول أن تأتي بما لم تأت به من قبل ويبرز عنصر جديد في كتابها اقناع ربما تكون الجودة التي دفعت دكتور هويويل (٢) لأن يتحمس ويصمم أن هذا الكتاب «أجمل أعمالها» فقد بدأت تكتشف أن العالم أكبر وأنه أكثر غموضا وأكثر عاطفية مما افترضته وتحس أنها صادقة في التعبير عن نفسها عندما تقول عن أن « لقد أرغمت أن تكون حذرة منذ الصغر - فتعلمت الحب عندما كبرت وهو النتيجة الطبيعية لبداية غير طبيعية » ثم تعتاد العيش على جمال الطبيعة وكآبتها في الخريف وهي التي كانت تعيش في الربيع أبدا ثم نراها تتحدث عن «التأثير كم هو جميل وكم هو مؤلم في أشهر الخريف في الريف وتشير الى « أوراق الشجر السمر والأسوار الجافة الذابلة » ثم تلاحظ « ان المرء ليس بمستطيع أن يحب مكانا أقل مما كان يحبه لأنه تألم فيه » ولكننا لا نستنتج التغيير في الاحساس الجديد نحو الطبيعة فحسب بل ان اتجاهها في الحياة نفسها قد تغير كذلك فهي ترى الحياة الآن في جزء كبير من كتابها من خلال عيون امرأة هي نفسها تعسة - تشفق اشفاقا خاصا على سعادة الآخرين وتعاستهم ذلك الاشفاق الذي تضطر - حتى نهاية الكتاب - أن تعلق عليه في صمت وعلى ذلك تكون الملاحظة - على غير العادة - هي ملاحظة وقائع أقل واحساس أعمق وهناك انفعال عاطفي واضح في منظر حفل الموسيقى وأثناء الحديث المشهور عن ثبات المرأة ومثابرتها ، هذا الانفعال يثبت - على خلاف ما جاء في تاريخ حياتها - أن

Persnasion. (١)

Dr. Whewell. (٢)

جين أوستن قد أحبت ذات يوم ولكن الواقع الفنى أنها لم تعد تخشى أن تصرح بهذا الحب ان التجربة اذا كانت من النوع القاسى فانها تترسب فى الأعماق ولا تتأثر بمرور الزمن على الاطلاق ، فقد كانت تسمح لنفسها - من قبل - بأن تتناول التجربة فى كتاباتها ولكن الآن وفى عام ١٨١٧ تصبح على استعداد أن تقدم على ذلك ليس غير وظروفها فى مظهرها الخارجى تشير الى أن تغييرا كان على وشك الوقوع ان شهرتها تكونت ببطء وقد كتب السيد أوستن لى (١) « انى أشك فيما اذا كان من الممكن أن نذكر مؤلفا آخر ذا مكانة كان غموض شخصيته على هذه الصورة من التكامل » فلو أنها امتدت بها الحياة سنوات قليلة آخر لتبدل كل شيء وتغير فربما أقامت فى لندن ، وتناولت وجبات طعامها خارج البيت وقابلت مشاهير القوم ، وجدت أصحابا ، وقرأت وسافرت ثم عادت الى المنزل الريفى الهادىء ومعها كنز من الملاحظات تجتريها فى أوقات فراغها

وما هو تأثير كل ذلك ؟ وما الذى كان يمكن أن يحدث لمؤلفات جين أوستن ، التى لم تكتبها ؟ انها لن تكتب عن الجريمة أو عن الحب أو عن المغامرة وما كانت لتضطر لأن تعيش دون اهتمام بمظهرها وبملابسها أو تعيش فى جو من عدم الاخلاص ، جو النفاق نتيجة لالحاح الناشرين ومديح الأصدقاء بل لتعلمت كثيرا ولاهتز احساسها بالأمان ولعانت سخريتها من الألم ولقل اهتمامها بالحوار ولزاد الاهتمام بالتأمل والتفكير لتعطينا صورة عن شخصيتها . (كل هذا يمكن ادراكه فى كتاب اقناع)

ان الكلمات القليلة الرائعة التى تجمعها فى حديث يستغرق دقائق هى كل ما نريده لكى نتعرف على كل ما يتعلق بالأدميرال كروفت أو السيدة مسجروف وان هذا الاقتضاب وطريقة « مرة تصيب ومرة تخيب » التى تشتمل على فصول من التحليل وعلم النفس ، كان يمكن أن يظل فجا عاجزا عن أن يسيطر على ما كانت ستدركه من عقد الطبيعة البشرية ، إذ كان من الممكن أنها ستتوصل الى طريقة واضحة مرتبة كالعادة أكثر عمقا وأكثر مفعولا فى نقل - لا كل ما يقوله الناس فحسب - وانما نقل كل ما لا يقولونه فى أحاديثهم نقل لاهمهم عليه - وانما ماهى عليه الحياة نفسها ولكانت قد وقفت بعيدا عن شخصياتها حتى تراهم كمجموعة لا كأفراد ولقللت شيئا من تهكمها المستمر وهى تكتب . وفى نفس الوقت كان يمكن أن تكون هذه السخرية أشد قسوة وأكثر ايلاما . كان يمكن أن

تكون بشيرا بمقدم هنرى جيمس (١) وبروست (٢) لكن كفى لا طائل
من وراء تلك التأملات أنها أكثر الفنانات أصالة بين النساء ماتت
الكاتبة ذات الكتب الخالدة « فى نفس الوقت الذى بدأت تشعر فيه بالثقة
فى نجاحها » •

Henry James. (١)

Proust. (٢)

الرواية الحديثة

عند اجراء أية دراسة مستوعبة للرواية الحديثة ، حتى ما كان أكثرها تحررا أو أكثرها تحللا - نجد أنه من الصعب ألا نعتبر - دون تحفظ - أن ممارسة الفن الحديث للقصة انما كان تطورا للتقديم . ويمكن القول بأن فيلدينج (١) قد أبدع وأن جين أوستن كانت أكثر ابداعا ، رغم امكانيتهما البسيطة ومادتهما البدائية . ولكن اذا ما قارنا بين فرصتهما وفرصنا ! سنجد أن روائعهما كانت ذات جو غريب من البساطة . مع أن الموازنة بين الأدب والخلق ، ولنختر مثلا - صناعة السيارات - فقلما يؤدي هذا المثل الغرض منه أكثر من مجرد اللمحة الأولى . ومن المشكوك فيه أننا أ عبر القرون - وعلى الرغم من أننا تعلمنا الكثير عن صناعة الآلات لم نتعلم شيئا عن صناعة الأدب وذلك لأن الاستمرار في الصناعة يؤدي الى الاتفاق ، أما الأدب فهو موهبة . فلم نصبح قادرين على كتابة أفضل ، وانما كل ما يمكن أن نكونه هو أننا دائبو الحركة تارة في هذا الاتجاه وتارة أخرى في الاتجاه الآخر مع الاحتفاظ بالحركة الدائرية حتى يكون مجال الحركة كله منظورا من قمة عالية علوا كافيا . ولسنا في حاجة لأن نقول اننا لسنا - ولو لمجرد لحظة - في مركز أفضل . في السهول ، ووسط الزحام ، والأبصار لا تكاد ترى من التراب الذي أثارته المعركة فاننا ننظر الى الوراء ونغبط هؤلاء المحاربين السعداء ، الذين كانوا يكسبون معاركهم والذين حققوا أمورا عظيمة حتى اننا لنهمس في خفوت بأن المعارك لم تكن قاسية على هؤلاء الغابرين بقدر ما هي قاسية في نظرنا الآن . وعلى مؤرخ الأدب أن يقرر ما اذا كنا في أول الطريق أم في نهايته أم أننا لازلنا في منتصف العصر العظيم للرواية النثرية ، وذلك لأننا في غمرة الانشاء لا يكاد يظهر لنا ما يمكن أن يحدد به الموقف . وكل ما نعلمه أن الاعتراف بالجميل وبالعداوات هي التي تلهمنا ، وأن بعض المسالك توصلنا الى الأرض

الخصبة ، والبعض الآخر يوردنا مورد الفناء ويفضى بنا الى الخرائب وعلى ذلك ربما يحتاج الأمر أن نعمل نه حسابا

وإذا فصراعنا ليس مع الأدب التقليدي وإذا كنا نتحدث عن الشجار مع ويلز (١) وبينت (٢) وجالسويرذى (٣) فان ذلك يرجع بعضه الى أن عملهم لا يعيش لمجرد أنهم احياء ، بل أعماهم هذه تتنفس كل يوم مما يعطينا الحق لمهاجمة عدم الدقة كيفما نشاء ولكن بينما نشكرهم على آلاف النفحات فاننا - حقا - نحفظ بالاعتراف بالجميل - بغير تعفظ - لهاردى (٤) ولكونراد (٥) ويأتى بعدهما هدرسون (٦) الذى كتب الأرض الأرجوانية (٧) والبيوت الخضراء (٨) وأخيراً الأمد البعيد (٩) والمضى السحيق . ولقد أثار ويلز وبينت وجالسويرذى الكثير من الآمال ثم دأبوا على خيبتها حتى ان عرفاننا بالجميل كان فى معظمه على صورة شكر لهم على ما بينوا لنا ما كان عليهم أن يحققوه وان لم يفعلوه وما لا نستطيع - بحق - أن نقوم به ولكنه فى الوقت نفسه مالا نرغب أن نؤديه وان البيان ليعجز عن أن يصف المسئولية أو الأسى الذى نبديه تجاه انتاج عظيم ضخم فى حجمه يتضمن قدرا كبيرا من صفات العظمة ونقيضها . فاذا حاولنا أن نعبر عما يجيش فى نفوسنا من معان فى كلمة واحدة فانما ينبغى أن نقول ان هؤلاء الكتاب الثلاثة ماديون وذلك لأنهم لا يهتمون بالروح بل يهتمون بالجسد لدرجة خيبت آمالنا ، وتركونا وقد تسلط علينا شعور بأنه كلما سارعت الرواية الانجليزية فأشاحت عنهم - برفق كما ينبغى - حتى ولو كان ذلك الى الصحراء كان ذلك أجدى لروح القصة . وطبيعى لا يوجد لفظ واحد يصيب مراكز ثلاثة أهداف منفصلة ففى حالة ويلز فان الملاحظة تنطبق انطباقا ملحوظا ومع ذلك فانها تشير معه بالذات - وفقا لطريقة تفكيرنا - الى مزيج النحاس فى عبقريته تشير الى نضوب معينه الذى اختلط مع صفاء وحيه بينما قد يكون بينت أسوأ الثلاثة جرما مع أنه أقدرهم صناعة فانه فى استطاعته أن يقدم كتابا محكم

-
- | | |
|------------------------|-----|
| Wells. | (١) |
| Bennett. | (٢) |
| Galsworthy. | (٣) |
| Mr. Hardy. | (٤) |
| Mr. Conrad. | (٥) |
| Mr. Hudson. | (٦) |
| The Purple Land. | (٧) |
| The Green Mansions. | (٨) |
| Far away and Long Ago. | (٩) |

البناء متماسكا في صناعته حتى ليتعذر على أقدر النقاد أن يجد منفذا أو متسربا ينفذ من خلاله فاطر الشباك محكم ولا يسمح بنفاذ أى تيار من الهواء ولا يوجد باللوح الزجاجى أى شرح ومع ذلك فماذا يحدث لو أن الحياة أبت أن تعيش فى هذا العمل ؟ وتلك هى المخاطرة التى تمكن بينت - مؤلف كتاب حكاية الزوجات العجائز(١) وراسم شخصية جورج كان(٢) وادوين كلايهانجر(٣) وكثير من شخصيات آخر - من أن يتغلب عليها فشخصيات بينت تحيا حياة رغدة بدرجة غير واقعية ولكن يبقى لنا أن نتساءل كيف يعيشون ولأى هدف يقصدون ؟ وتبدو لنا الشخصيات وكأنهم يهجرون « الفيلا » البديعة الانشاء فى المدن الخمس ليمضوا وقتهم فى عربة قطار بالدرجة الأولى ذات المقاعد الوثيرة يضغطون أزرارا وأجراسا لا حصر لها ، وتصبح غاياتهم التى يسافرون من أجلها فى بذخ سعادة دائمة تزداد يوما بعد يوم يتمتعون بها فى أفخم فنادق برايتون وكذلك من الصعب القول بأن ويلز مادي بمعنى أنه يتغالى فى صلابه خاماته ، وأن ذكاه فياض بالعواطف حتى انه ليقضى الوقت الطويل فى خلق أشياء تتخذ شكلا وكيانا ملموسا فهو مادي بطبيعة قلبه الطيب، يحمل على عاتقه العمل الذى كان يجب أن يضطلع به موظفو الحكومة ومن غزارة أفكاره والوقائع فانه قلما يجد متسعا من الوقت ليدركها أو ينسى أنها ذات أهمية ، أو ليحس ببداية شخصياته وغلظتها ومع ذلك ما هو مدى الضرر الذى ينتج عن نقد كل ما يصوره من عالم دنيوى وجنات عدن ، أكثر من أن هذه العوالم يجب أن تعيش فيها شخصياته مثل جونز وبيترز ؟ أليس فى نقص طبيعتهم ما يطغى على أى أنظمة أو قيم يمكن أن يمنحها لهم خالقهم بسخاء ؟ ولا نجد ما نريد على صفحات جالسويردى رغم احترامنا العميق لكماله وانسانيته

فاذا لصقنا بطاقة واحدة تحمل كلمة «ماديات» فاننا نعنى بذلك أنهم انما يكتبون عن أشياء تافهة ، وأنهم قد استنفذوا قدرا كبيرا من قدراتهم الفنية وقدرا كبيرا من طاقاتهم فى خلق الترهات والزائل من الأمور حتى لتبدو وكأنها حقيقة دائمة

وعلينا أن نعترف أننا ندقق وأكثر من ذلك فاننا نجد من الصعوبة بمكان أن نبرر عدم رضانا عندما نبين ما الذى نسعى الى تحديده اننا

The Old Wives Tale. (١)

George Canon. (٢)

Edwin Clayhager. (٣)

نشكل سؤالنا على صور مختلفة على مر الأيام ولكنه يظهر مرة أخرى أكثر اصرارا كلما تنفسنا الصعداء عندما ننتهي من قراءة رواية والسؤال هو هل تستحق هذه الرواية كل هذا العناء؟ ما هو المغزى؟ هل يمكن أن يكون بينت - كنتيجة لواحدة من تلك الانحرافات التي تقتربها النفس البشرية من حين لآخر - قد انحدر الى الدرك الأسفل بجهازه العظيم ليصور الحياة متخذا سبيلا منحرفا قليلا عن الطريق السوي؟ وهكذا تفر من تصويره الحياة، وربما دون الحياة لا يستحق شيء الذكر انه تسليم بالغموض للاضطرار الى الاستفادة من مثل هذه الصورة، ولكن من الصعب أن نصلح الأمور بالكلام عن الواقع كما يميل الى ذلك النقاد.

ان الاعتراف بالغموض الذي يؤلم كل نقاد الرواية يجعلنا نخاطر بالفكرة التي هي في نظرنا عنوان الوقت الحاضر بأن تكون الرواية في شكلها الشائع الذي كثيرا ما يضيع الشيء الذي نبحث عنه أكثر مما يحققه. وسواء أطلقنا على ما نبحث عنه اسم الحياة أو الروح، أو الحقيقة أو الواقع فانه - وهو الشيء الجوهرى - يشتت ويثور ويأبى أن يحتويه ذلك العمل الفنى غير الملائم كما تقدمه. وعلى أى حال فاننا نسير دائبين وبضمير حتى نخلق الاثنين والثلاثين فصلا على صورة أصبحت لا تشابه الرؤيا التي فى أذهاننا وهذا المجهود الشاق الضخم لاثبات التماسك وتقليد الرواية للحياة ليس مجهودا ضائعا فحسب بل هو مجهود فى غير موضعه يؤدي الى الابهام والى الغموض ويعتم الفكرة ويذهب بنورها ويبدو الكاتب وكأنه ملزم لا بارادته، لحره بل كأن هناك طاغيا قويا غير عابىء يستعيده لى يقدم تصميميا للقصة ليكون هزلا أو مأساة أو غراما فى جو من الواقعية يخيم على كل شيء، طاغيا معصوما من الخطأ لدرجة أنه لو قدر لشخصيات الرواية أن يبعثوا أحياء فسيجدون أنفسهم غاية فى التألق يرتدون آخر أزياء الساعة. ويطاع ذلك الطاغى وتخرج الرواية طبقا لخطه موضوعة ولكن يحدث فى أحيان كثيرة كلما تقدم الزمن أن ينتابنا الشك ونثور كلما وجدنا الصفحات مليئة بهذه الطريقة العادية هل الحياة هكذا؟ هل يجب أن تكون الرواية على مثل هذه الصورة؟

إذا نظرنا الى أعماق النفس البشرية نجد أن الحياة أبعد عن أن تكون «هكذا» اختبر عقلا عاديا فى يوم عادى نجد أن العقل يتلقى آلاف من الانطباعات بين التافهة والخيالية وبين الزائلة والباقية المحفورة بعمق تأتي جميعها من كل اتجاه كسيل منهمر من ذرات لا تحصى ولا تعد، وأثناء تراكمها وتشكلها فى الحياة لا فرق بين يوم وآخر - يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء - انما الاستجابة تختلف اليوم عن سابقه، واللحظة الهامة ليست

الماضى بل الحاضر ، حتى يتحرر الكاتب من نير السيطرة ويكتب ما يختار وليس ما يجب عليه أن يكتب ، فاذا استطاع أن يؤسس عمله على شعوره واحساساته وليس على أساس العرف ، ما كان هناك داع للتقيد بتصميم الرواية وما كان هناك هزل أو مأساة أو حب أو كوارث فى الشكل المقبول وربما لم تأت الصورة مفتعلة التأنق فليست الحياة مجموعة من المصايح ذات تصنيف متماثل ، بل الحياة هالة ساطعة ، هى غلاف نصف شفاف يحيط بنا ابتداء من الادراك حتى النهاية . أليس من مهمة القصاص أن يسرد هذا التباين ، وأن يظهر هذه الروح التى لم تؤت من العلم لكى ندرك كنهها ، أو نحيط بها مهما اختلت وضلت أو بدت معقدة ممتزجة بأقل قدر ممكن من الظروف الخاجية أو غير المألوفة ؟ اننا لا نتوسل لمجرد الشجاعة أو الاخلاص ، بل اننا نقترح أن تكون مادة الرواية مخالفة بعض الشيء لما جعلتنا العادة والعرف نؤمن به

اننا - على أى حال - نحاول فى مثل هذا النمط من الأسلوب - أن نحدد الصفات التى تميز أعمال كثير من صغار الكتاب الذين يتميز من بينهم جيمس جويس عن سلفه ، فلقد حاولوا أن يقتربوا من الحياة وأن يحفظوا بأمانة كل ما يهمهم ولو استبعدوا - فى سبيل تحقيق ذلك - أكثر ما تألف عليه الناس ويحرص القصاصون عليه ولنسجل الذرات كما تتراكم على العقل بالترتيب الذى تسقط به ولنتتبع الشكل - مهما بدا غير متصل أو غير متآلف الشكل الذى يحز كل مشهد منه أو واقعة فيه ، فى الضمير ودعنا لا نسلم بأن الحياة توجد أكثر تكاملا فى كل ما يعتبر كبيرا لا فى كل ما يعتبر صغيرا ان من قرأ صورة الفنان رجلا صغيرا (١) أو قرأ « عولص » (٢) تلك القصة التى تبشر بأن تكون عملا مجددا والتى تصدر الآن فى المجلة الصغيرة (٣) يجد أنها محاولة جريئة لتطبيق نظريات القصة كما تعمدها جويس ومن ناحيتنا - وأمامنا مثل هذه الأجزاء فانها جراءة أكثر منها تأكيدا ، ومهما يكن مغزى القصة ككل فانه يمكن ألا نثير أى تساؤل الا أنها غاية فى الاخلاص والنتيجة - سواء كانت صعبة أو غير سارة كما يمكن أن نحكم - فانها - دون شك هامة وبالمقارنة مع من سميناهم بالماديين فان جويس روحانى اذ يهتم - مهما كان الثمن - بكشف خلجات ذلك الملهب، فى الأعماق الذى تومض اشاراته فى العقل وانه فى سبيل المحافظة عليه لا يهتم - بكل شجاعة - بما يبدو عرضيا

The Portrait of The Artist As young Man. (١)

Ulysses. (٢)

Little Review. (٣)

في نظره ، سواء أكان احتماليا أم حقيقيا أم أي شيء آخر من أمثال هذه الأسس التي كانت تقوم بمعاونة القارئ على التخيل على مر الأجيال المتعاقبة عندما يستلزم الأمر أن يتصور القارئ ما لا يستطيع أن يلمسه أو يراه ومثال ذلك المشهد في المدافن - بما فيه من بهاء واشمئزاز وتفكك ، ومغزاه الذي يومض فجأة - بغير شك يلمس شغاف القلب لدرجة أنه عند القراءة الأولى لا يمكن إلا القول بأنها إحدى الروائع . فاذا كنا نبغي الحياة كما هي فهذه بكل تأكيد الحياة واننا في الواقع نجد أنفسنا مترددين في شيء من الارتباك اذا ما حاولنا أن نصرح بماذا نريد خلاف ذلك ولأى الأسباب يتخاذه عمل على مثل هذه الدرجة من الجدية عند مقارنته - ويجب أن ننتقي أمثلة على مستوى عال - برواية الشباب أو عمدة كاستربريدج عندئذ نرى أنها فاشلة لسبب بسيط وهو نضوب عقل الكاتب ويمكن أن نقرر ذلك ببساطة وينتهي الأمر ولكن يمكن أن نؤكد قليلا ونعجب ، ما اذا كنا من المحتمل ألا نشير الى منطقنا ونتساءل هل بقاؤنا آمنين في غرفة ضيقة ولكنها مضيئة أفضل من الانطلاق الحر دون أن نتقيد بالطرق الموضوعية للكتابة وبقيود المنطق ؟ هل هذه الطرق المتفق عليها هي التي تمنح القوة الخلاقة ؟ وهل يرجع اليها عدم احساسنا بالمرح أو بالنخوة أو بالشهامة وهل التركيز في الذات - على الرغم من الشعور بالرجفة - لا يمكن من احتقان ما هو خارج الذات وما وراءها أو خلفها ؟ هل يعتمد تركيز الموضوع - ربما حسب التعاليم على الفضائح التي تسهم في التأثير في الأشياء المنعزلة أو التي لها زوايا خاصة ؟ أو أن مجرد أي مجهود مبتكر يكون أكثر سهولة - وبالذات بالنسبة للمعاصرين - لأن يحسوا بما ينقصهم أكثر من تحديد ما يعطونه ؟ وعلى أي حال فانه من الخطأ أن نظل على الهامش ونفاضل بين الطرق المختلفة فآية طريقة صحيحة ، مادامت تعبر عما يجيش في نفوسنا وما نريد الافصاح عنه اذا كنا كتابا والتي تقربنا من غرض المؤلف اذا كنا قراء تقربنا هذه الطريقة لما نحن متفقون على تسميته بالحياة نفسها ألم تثبت لنا قراءة عولص مقدار ما نخلفه وراء ظهورنا من الحياة أو مقدار ما أهملناه منها ؟ ألم تحدث قراءة تريسترام شاندي (١) أو حتى بندنس (٢) صدمة لمظاهر الحياة الأخرى الأكثر أهمية التي طرحتها الروايتان جانبا دون أن تتناولها

Tristram Shandy. (١)

Pendennis. (٢)

ومهما تكن المشكلة التي يواجهها قصاص العصر الحاضر - كما نتصور أنها واجهت من قبل قصاص العصر الماضي - فإنه يجب عليه أن يبتدع الوسائل التي تجعله حراً في تسطير ما يختار كما أنه يجب أن يتحلى بقدر من الشجاعة يمكنه من أن يقرر أن « هذا » الشيء لم يعد يهمه بعد بقدر ما يهمه « ذاك » ، ويبنى على « ذاك » وحده أعماله إذ أن هذه الأشياء الجديدة التي يهتم بها المحدثون هي التي قد تكون قابضة في أعماق النفس وعندئذ يختلف الاهتمام ببعض النقط عنها في البعض الآخر وقد يصبح التركيز على شيء كان مهملاً ، ونتيجة لذلك يتطلب هذا التركيز أسلوباً معيناً وصورة تختلف في أطوارها بحيث يصعب علينا استيعابها كما كان يصعب على أجدادنا ادراكها

لا يمكن لأحد غير معاصر أن يشعر بأهمية الموقف الذي حوله تشيكوف إلى قصة قصيرة سماها يوسف ففي هذه القصة استلقى بعض الجنود الروس المرضى على سطح السفينة التي تعود بهم إلى روسيا ويعطينا مقتطفات من أحاديثهم وأفكارهم ثم يموت أحدهم ويؤخذ بعيداً والحديث يستمر بين الآخرين لفترة من الوقت حتى يموت يوسف نفسه ثم يلقي به إلى البحر كما يلقي الجزر أو الفجل ويحدث التركيز على أماكن لم يكن أحد يتوقع التركيز عليها في بادئ الأمر ، وكما نكيف العين نفسها عند الغروب حتى نتمكن من ادراك أشكال محتويات الغرفة نرى كيف كانت القصة متكاملة ، وكيف كانت عميقة وكيف كان تشيكوف صادقاً لرؤياه في اختياره لهذا الموضوع وبهذا التكامل والعمق ومزجها سوياً تمكن من خلق شيء جديد ولكن يصعب القول بأن « هذه القصة هزلية » أو أن « تلك القصة مأساة » ، ولسنا متأكدين إذ تعلمنا أن القصة القصيرة يجب أن تكون قصيرة متكاملة سواء كانت هذه القصة الغامضة التي لا نهاية لها يمكن تسميتها قصة قصيرة على الإطلاق أو لا يمكن تسميتها كذلك

إن أكثر التعليقات الأولية على القصة الإنجليزية الحديثة لا يمكن أن تغفل التأثير الروسي وعند ذكر الروس فإن المرء ليشعر بأن كتابة القصة - لغير الروس - مضيعة للوقت ومجازفة إذا كنا نبغى فهماً للروح والقلب فأين نجدها - بعمق ملحوظ - في غير أعمال الروس ؟ إذا كنا قد سئمنا من ماديتنا فإن أقل اهتمام للقصاصين الروس يرجع - بحق الميلاد - إلى الاحترام الطبيعي للروح الآدمية « تعلم لتجعل نفسك متجانساً مع الناس ولكن لا تجعل هذه الشفقة مجرد فكرة في العقل وإنما اجعلها نابعة من القلب وبالحب نحو الناس لأن الشفقة كفكرة في

العقل أمر سهل ميسور « واننا ندرك - فى كل عمل روسى عظيم - معالم شخصية القديس عندما يحتاج الموقف الى الموازنة لآلام الآخرين ، وللحُب والتفانى لبلوغ بعض الأهداف التى تستحق أكثر المطالب الروحانية دقة والتى تكون القدسية انها القدسية فيهم هى التى تحيرنا بالشعور بتفاهاتنا اللادينية والتى تحول كثيرا من قصصنا المشهورة الى زيف وخداع . واستنتاجات العقلية الروسية الشاملة والعاطفية هى بغير شك فى أعلى درجات الحزن والأسى ولو توخينا الدقة أكثر من ذلك لقلنا انه الشعور الذى ليس له جواب ، واذا درسنا الحياة بأمانة نجد أنها تثير لنا السؤال تلو السؤال - بعد أن تنتهى القصة - يطن ويلح فى استفهام حائر ، ويملأنا بياس عميق وقد يملؤنا بالحلق والسخط . قد يكونون على حق وبغير شك فانهم يرون أبعد مما نرى وبدون عوائق الرؤيا التى عندنا ولكن ربما أننا نرى شيئا قد فاتهم والا فما سبب ذلك الصوت المعارض يمتزج بكآبتنا ؟ ذلك الصوت المعارض انه صوت حضارة آخرين قديمة يبدو أنها ولدت فينا غريزة المتعة والقتال أكثر من الألم والفهم وتحمل الرواية الانجليزية والقصة منذ ستيرون الى ميريدث الشاهد على انشراحنا الطبيعى فى المزاج والفكاهة وفى جمال الأرض وفى أوجه النشاط المختلفة للذكاء ، ومباهج الجسد ولكن أى استنتاجات يمكن أن نصل اليها عند مقارنة بين طرفى نقيض ، بين الرواية فى الأدب الروسى وبين الرواية فى الأدب الانجليزى انها استنتاجات خصبة الا عندما تفيض علينا بوجهة نظر الامكانيات اللانهائية للفن وتذكرنا بأنه ليس هناك حدود للأفق وأنه لا شىء محظور أو أن هناك « وسيلة » أو خبرة مهما كانت بدائية يمكن أن تكون محظورة الا أن تكون كاذبة غير صادقة . « المادة الصالحة للقصة » لا وجود لها ، فكل شىء هو المادة الصالحة للقصة ، وكذا الشعور ، وكل فكرة ، وكل صفة للعقل والروح يمكن العمل بها ، ولا يمكن أن يصبح أى ادراك غير لائق . واذا تصورنا أن فن القصة يمكن أن تدب فيه الحياة فيقف معنا ووسطنا - لأمرنا هذا الفن بغير شك - أن نحطمه وأن نشاغبه كما نشرفه ونحبه فهذا كله يتجدد شبابيه ويتأكد سلطانه .

جين اير ومرتفعات ويندنج (١)

وفي خلال الأعوام المائة التي مضت منذ ولادة شارلوت برونتي (٢) التي كانت موضوعا للأساطير ومثلا للاخلاص ورمزا للأدب عاشت شارلوت ٣٩ عاما . وانه لغريب أن نتصور كم كانت تختلف تلك الأساطير لو أن الحياة كانت قد امتدت بها لمداها الطبيعي فقد كان من المحتمل أن تصبح - ك بعض المشاهير من معاصريها - شخصية مألوفة يلتقى بها في لندن أو في أى مكان آخر ، شخصية هي موضوع لصور أو لقصص عديدة ، كما كان يمكن أن تكون كاتبة لعدد كبير من القصص وربما كاتبة لمذكرات، ولكنها انتزعت منا مع ذكريات منتصف العمر وهي في أوج شهرتها العظيمة . ولو امتد بها العمر لربما أصبحت غنية وربما نعمت بالرخاء ولكنها لم تصب غنى ولم تنعم برخاء وعندما نفكر فيها علينا أن نتصور شخصا لا مكان له في العالم الحديث وعلينا أن نعود بعقولنا الى الخمسينيات من القرن الماضي الى بيت منعزل لراعى كنيسة في مروج يوركشير البرية وفي هذا البيت وبين تلك المستنقعات ظلت شارلوت في مخيلتها للأبد وحيدة تعسة في فقرها وفي مجدها

هذه الظروف - كما أثرت في خلقها - ربما كان لها آثارها على عملها فعلى القصاص - كما نتصور - أن يقيم بنيانه بمواد سريعة التحول يبدأ بتزويد ذلك البنيان بالحقائق ثم ينتهى بخلطه بالنهايات فعندما نفتح كتاب جين اير مرة ثانية لانستطيع أن نخفى توقعنا فى أننا سوف نقابل دنيا عتيقة من صنع خيالها دنيا منتصف عهد فيكتوريا لاتتفق والعصر الحديث ، فالبيت فى المروج ، فى مكان لا يزوره الا الفضوليون ويخيم عليه التدين والورع وما أن ننتهى من قراءة صفحاتين من جين اير حتى ينقشع كل شك خيم على عقولنا .

Jane Eyre. (١)

Charlotte Bronte. (٢)

« طيات من الأقمشة القانية على اليمين وعلى الشمال ألواح الزجاج الصافية تحميني ولكنها لا تفصلني عن يوم موحش من أيام نوفمبر وكنت أفكر وأتمعن في مظاهر عصر هذا اليوم من أيام الشتاء من آن لآخر وأنا أقلب صفحات كتابي وبعد ذلك خيم ضباب وتجمعت سحب بيضاء وعن كذب كانت المروج المبتلة ترى وأحواض الشجيرات ومطر لا ينقطع يغمر المكان بعنف قبل قصفة رعد طويلة كثيبة »

ليس هناك شيء أسرع ذبولا من المروج نفسها أو أكثر موضوعية للإشارة الى الحديث عنها من « قصفة رعد طويلة كثيبة » وحتى هذه البهجة التي تحدثها فينا القراءة قصيرة العمر انها بهجة تدفعنا الى أن ننتهي من قراءة الكتاب كله دون أن تعطينا فرصة للتفكير أو التردد ولا تسمح لنا بأن نرفع أعيننا عن صفحاته وهكذا نستغرق في القراءة لدرجة أنه اذا تحرك أحد في الغرفة فان هذه الحركة تبدو كأنها ليست في غرفتنا بل هناك في يوركشير ان الكاتبة تمسك زمامنا بيديها وتدفعنا الى السير في طريقها لا نرى الا ما تراه هي ، ولا تتركنا لحظة ، ولا تسمح لنا بأن ننساها وفي النهاية نجد أننا قد اندمجنا مع عبقرية شارلوت برونتي ومع فوريتها ومع سخطها تقدم لنا وجوها متميزة وشخصيات محددة المعالم وملامح عابسة تومض وتطل علينا أثناء مرورها ولكننا ما رأيناها جميعا الا من خلال عينيها حتى اذا ما ذهبت فانه يصبح من المتعذر أن نجد تلك الشخصيات أو أن تبقى تلك الملامح واذا فكرنا في روشستر فانما نفكر في جين اير واذا تذكرنا المروج فانما نتذكر جين اير واذا سرحنا بخيالنا في حجرة الجلوس أو حتى في « السجاجيد البيض المخططة بأكاليل الزهور اليانعة أو « رف الموقد البارباري الباهت بما عليه من أكواب بوهيميا العتيقة » و « المزيج من الجليد والنار » فهل هذا كله الا جين اير ؟

ان عيوب جين اير لا يصعب اكتشافها فكون البطلة مربية أطفال تهيم حبا بسيدها انما هي حدود خطيرة في عالم مليء - بعد كل هذا - بأناس هم ليسوا واحدا من هذا أو ذاك ان شخصيات جان أوستن أو تولستوى لها آلاف الواجهات بالمقارنة مع شخصيات شارلوت برونتي الذين يعيشون ويتعقدون تبعا لتأثيرهم في مختلف الناس الذين يظهرون مع كل نواحي شخصياتهم فهم يتحركون هنا وهناك سواء كانوا تحت رقابة خالقهم أو بعيدين عنها وتبدو لنا الدنيا التي يعيشون فيها كما

لو كانت عالما آخر يمكن أن نزوره وكاننا خلقناه بأنفسنا ويبدو توماس هاردى ندا لشارلوت بروننتى فى قوة شخصيته وضيق مجال الرؤيا ومع ذلك فاختلفهما شاسع فاذا ما قرأنا قصة **جود الغامض** لتوماس هاردى فاننا لا نتعجل النهاية بل نتأمل ونفكر ونشط بعيدا عن النص فى سلسلة حية من الأفكار التى تحيط الشخصية بجو من التساؤل والافتراض لا ندرى عنه شيئا واننا لنضطر أن نواجه - الفلاحين البسطاء كما هم - بأعظم المصير والتساؤل حتى لتبدو وكأن أكثر شخصيات - قصص هاردى - أهمية هم أولئك المجهولون الذين لا اسم لهم وفى هذه القوة وفى هذا التأمل الفضولى لا نجد أى أثر لشارلوت بروننتى فانها لم تحاول أن تحل مشكلة الحياة البشرية انها لا تدرى حتى بوجود مثل هذه المشكلات فكل قوتها وعظمة الحكمة - فى تأكيدها « انى أحب » « انى أكره » « انى أتعذب »

والكتاب الانطوائيون أو ذوو الحدود الذاتية قوة تنكرها العقول الجامعة ذات الأفق الواسع وتتجمع انطباعاتهم وتتدافع بين حواجزهم الضيقة فلا يصدر شئ عن تفكيرهم ما لم يكن قد دمغ بانطباعاتهم فهم يتعلمون القليل من غيرهم من الكتاب ولا يتقبلون ما يقتبسونه ويبدو أن كلا من هاردى وشارلوت بروننتى قد بنيا أسلوبهما على صحافة جامدة ولكنها مناسبة فقوام نشرهما غريب ولكنه ممتنع اذ خلقا لنفسيهما نثرا يأخذ بالألباب وذلك بالعرق والجهد والمثابرة وبالفكر المضنى حتى يسخر الألفاظ لتعبر عن المعانى التى يريدان التعبير عنها هذا النثر يتميز بالجمال الذاتى وبالقوة وبالخفة ولا تدين شارلوت بروننتى - على الأقل - بشئ الى قراءتها لكثير من الكتب فلم تتعلم اطلاقا رشاقة الكاتب المحترف أو تقتبس قدرته على ملء لغته أو التلويح بها حسبما يختار فقد كتبت تقول « أنا لا أستطيع أن أبقى على اتصال مع عقول قوية مهذبة سواء أكانت عقول رجال أم عقول نساء » وهكذا كانت تكتب فى الجريدة المحلية كآى كاتب متزعم للكتابة ولكن سرعان ما امتزج الدفء بالسرعة فى صوتها الحقيقى « حتى اجتزت الاطار الخارجى للتحفظ العرفى وتخطيت عتبة الثقة وفزت بمكان فى بيت القلوب » فهى اذا قد اتخذت لها مقعدا هناك انه اذا وهج النار المتأججة المتقلبة فى قلبها هو الذى كان يضىء صفحات كتاباتها وبعبارة أخرى فاننا نقرأ لشارلوت بروننتى لا للملاحظة النفسية للشخصيات فان شخصياتها قوية بدائية ولا للمرح فشخصياتها عابسة وخام ولا للنظرة الفلسفية للحياة فشخصياتها

شخصيات فتاة ريفية وابنة راعي كنيسة وانما نقرأ لشاعريتها وربما يكون هذا هو الحال بالنسبة لبقية الكتاب الذين لهم - كما لها - شخصية قوية عارمة ، حتى أنهم - كما نقول في الحياة الحقيقية - ما عليهم الا أن يفتحوا الباب حتى يشعر بهم الجميع اذ تجيش في صدورهم قوة وحشية في حرب مع الأوضاع المتفق عليها التي تجعلهم في رغبة ملحة للخلق السريع بدلا من مجرد التأمل وهذه الحمية ترفض المواقف المتميزة والدوافع الأخرى الصغيرة بل تحلق بطريقة لا تهتم بالسنوك اليومي للناس العاديين وانما تتخذ موقفا معاديا لانفعالاتهم الغامضة وانها تخلق منهم الشعراء أو كتابا للنثر اذا اختاروا ذلك وهي صارمة في أحكامها وشروطها ولذلك نجد كلا من اميلي وشارلوت تتلمسان دائما المعونة من الطبيعة انهما تشعان بالحاجة الى المزيد من مظاهر الطبيعة ترمزان بها الى مشاعر البشرية الراقدة وهذه المظاهر أكثر قوة من تعبير الكلمات أو الأفعال فقد أنهت شارلوت قصة « فيلييت » - وهي أروع قصة لها بوصف عاصفة « تلبدت السماء وامتلات بالظلمات وزمجرت الرياح من الغرب وأخذت السحب تشكل نفسها في صور غريبة » وهكذا لجأت الى الطبيعة لتصف حالة عقلية وما كان يمكن أن يكون اللفظ أكثر تعبيرا من ذلك ولكن أيا من الأختين لاحظ الطبيعة بدقة وارهاف كما فعلت دروثي وردزورث أو كما رسمها بدقائقها تنيسون فقد أدركنا تلك الصور من الأرض التي تشبه الى حد كبير ما شعرت به نفساهما أو نسبتها لشخصياتهما وعلى هذا جاءت عواصفهما ومروجهما وأماكنهما المحببة في الصيف لا على انها من الزخارف لتزركش صفحة ثقيلة أو لتعرض قدرات الكاتب على الملاحظة ، وانما جاءت لتعبر عن الانفعالات أو لتلقى الضوء على معاني الكتاب

ان معنى الكتاب - الذي لا يرتبط ارتباطا مباشرا بالأحداث التي تقع كما هو بعيد عن حوار شخصيات القصة وان كان له علاقة ببعض الأمور المتباينة لدى الكاتب - هو بالضرورة أمر يصعب الوصول اليه وخاصة عندما يكون الكاتب - كما هو الحال في آل بروننتي - شاعريا تتوارى المعاني التي يقصدها في كلماته التي غالبا ما تكون أقرب الى الحالات النفسية منها الى ملاحظات أو تأملات وان تفهم كتاب هرتفغات ويندنج لأصعب، من كتاب جين اير وذلك لأن اميلي كانت أكثر شاعرية من شارلوت فعندما كتبت شارلوت كانت تقول في فصاحة وبلاغة وعاطفة « انى أحب » ، « انى أكره » ، « انى أتألم » فتجربتها - على الرغم من

عمقها - فى مستوى تجربتنا ولكن ليس هناك « أنا » فى مرتفعات
ويدرنج فلم يكن هناك مربية أطفال ولم يكن هناك مخدمون هناك
حب ولكنه ليس بحب رجال ونساء ان الفهم العام هو الذى ألهم اميلي
ولم يكن الدافع لها على الخلق هو آلامها أو جراحها ؛ وانما لأنها نظرت
الى العالم فوجدته متفككا وغير متجانس ورأت فى نفسها القدرة على توحيد
فى كتاب ويمكن الاحساس بهذا الطموح والرغبة العظيمة من خلال
الرواية بأنه كفاح نصف معطل ولكنه اقتناع راسخ لتقول شيئا على
لسان شخصياتها ولكن ليس مجرد « انى أحب » « انى أكره بل
نحن الجنس البشرى » « وأنت ياذا القدرة الأبدية » وتظل الجملة
غير مكتملة وليس بغريب أن تظل هكذا بل ان الغريب أنها استطاعت
أن تجعلنا نشعر بما يجول فى خاطرها وبما تريد الافصاح عنه انها
تموج فى كلمات كاثرين ايرنشو التى لم تنطقها « اذا زال كل شىء سواه
وبقى هو فانى أستمر فى البقاء واذا ما بقى كل شىء عداه وذهب هو
فستتحول الدنيا بأسرها الى غريب جبار ولن أكون جزءا منه » ثم تنفذ
مرة أخرى فى حضرة الموتى « انى أرى سكونا لا تستطيع الأرض ولا حتى
الجحيم أن يمسه وانى أشعر بأن الأبدية حق وبانعدام الظل بعد الموت
وبالدار الآخرة التى يأوى اليها الأموات حيث الحياة لا ترتبط أو تتقيد
بأجل ولا يتعلق الحب بالشفقة ولا المرح بتكامله » وان هذا الايحاء
بالقوة الذى يكمن وراء مظاهر الطبيعة البشرية ويرفعها الى مصاف العظمة
هو الذى أعطى الكتاب مكانته العظيمة بين القصص الأخرى فانه لم يكن
ليكفى أن تكتب اميلي برونتى بعض الأناشيد أو لتطلق صيحة تعبر عن
عقيدة ولقد فعلت ذلك مرة واحدة هى الأولى والأخيرة فى قصائدها
وربما تعمر قصائدها أكثر من قصتها ولكنها كانت كاتبة قصة كما
كانت شاعرة ولا بد أنها حملت على عاتقها عبئا ثقيلًا وواجبا كئيبا فعليتها
أن تواجه واقع وجود الآخرين وعليها أن تؤمن كذلك بحركة الأشياء
الخارجية وأن تبني - على الأشكال المتعارف عليها - المزارع والمنازل
وتسجل كلمات وتخطب الرجال والنساء الذين يوجدون مستقلين عنها .
وعلى ذلك فاننا نصل الى ذروة الانفعال لا بالثرثرة أو بترنيمه وانما بسماع
فتاة تغنى لنفسها أغاني قديمة وهى تتأرجح بين أغصان الأشجار وبمراقبة
المحاصيل فى المروج وبالانصات الى صوت النسيم يداعب الحشائش
فأمامنا الحياة فى الريف بكل ما فيها من سخافات ومتناقضات وقد
أعطينا الفرصة للمقارنة بين مرتفعات ويدرنج وبين عزبة حقيقية وكذا
المقارنة بين هيثكليف وبين رجل حقيقى - والى أى حد يمكننا أن نتساءل

هل كان هناك أكثر واقعية أو أكثر رقة في الانفعالات بين رجاء ونساء الرواية الذين يتشابهون قليلا جدا بمن نراهم بأنفسنا ؟ ومع ذلك اذا ما تساءلنا فاننا نجد في هيثكليف الأخ الذي تراه أخت عبقرية موهوبة . اننا نقول انه مستحيل أن يوجد في الواقع ومع ذلك لا يتمتع شاب في الأدب بذلك الوجود النابض الذي يتمتع به هيثكليف وكذلك بالنسبة للأختين كاثرين فاننا نقول انه لا يمكن أن تشعر امرأة بما شعرا أو تتصرف كما تصرفا ومع ذلك فانهما أكثر نساء محبوبات في الرواية الانجليزية ويبدو كما لو أنها قد مزقت كل ما تعرف عن الآدميين ثم ملأت هذه الشفافية التي لا يعترف بها بنفحة من حياة فأصبحت حقيقة واقعة وهنا تكمن عظمتها الفذة النادرة في الامكانيات والقدرات انها تستطيع أن تحرر الحياة من اعتمادها على الوقائع وبلمسات طفيفة تقدم لنا روحا لوجه بحيث نصبح في غير حاجة الى جسم ؛ وعندما نتحدث عن المروج تجعل الريح تقصف والرعد يزمجر

جورج اليوت

ان قراءة جورج اليوت بامعان يؤدي الى ادراك القارىء بأن ما يعرفه عنها جد قليل كما ندرك الى أى مدى كانت سليمة الطوية لدرجة لا يمكن - لو أمعنا النظر - أن نصدق سلامة الطوية هذه والتي بمقتضاها قبلنا - ونحن نصف واعين مع قليل من سوء القصد أحيانا - تحليل العصر الفيكتورى الأخير « لامرأة مضللة تعرضت بحرية الى موضوعات أكثر منها تضليلا وانه لمن العسير أن نؤكد فى أى وقت وبأية وسيلة أن تعويذتها قد تحطمت ويعزى بعض الناس ذلك الى نشر قصة حياتها وربما كان جورج ميرديث - بعبارة عن « نشاط رجل العرض الصغير (١) » و « المرأة التائهة » (٢)، فى مكان العرض - هو الذى شحذ أطراف السهام وسممها لآلاف من الناس الذين هاجموا جورج اليوت وهم عاجزون عن دقة التصويب ولكنهم يسعدون بترك تلك السهام تنطلق وبذا أصبحت جورج اليوت محطا لسخرية الشباب وهدفا ورمزا واضحا لمجموعة من الناس الجادين الذين كانوا جميعا متهمين بنفس الوثنية ويمكن لفظهم بنفس الازدراء وقد قال اللورد أكتون « انها أعظم من دانتي » ، واستثنى هربت سبنسر قصصها - كما لو كانت ليست بقصص - عندما قاطع تزويد مكتبة لندن (٣) بالقصص . فقد كانت فخرا ومثلا لبنات جنسها وفضلا عن ذلك فان تاريخها الخاص لم يكن أكثر خداعا من حياتها العامة ولما سئل راوى

(١) mercurial little showman.

(٢) errant woman.

(٣) مكتبة لندن ، مكتبة خاصة بآثار كبار الكتاب والمؤلفين والفلاسفة ولاتقبل عضوية أى فرد فيها الا بشروط خاصة عسيرة - وقد كان لهذه المكتبة فضل كبير على المترجمة - بعد قبولها عضوا بها للحصول على المراجع النادرة - والمؤلفات التى نفذت من السوق الخاصة برسالة الدكتوراه التى تقدمت بها الى جامعة لندن

القصة أن يصف أمسية في بريوري فانه يقول أن ذكريات أمسيات الأحد الجادة هذه تثير فيه روح الدعابة وانه ليفزع كثيرا من السيدة الرصينة الجالسة على كرسيها المنخفض وانه ليود أن يشير اليها بقوله هذا « الشيء الذكي ومن المؤكد أن الحديث الذي خاضته وهي في مكانها كان جادا كما شهدت بذلك ورقة في اليد الدقيقة للقصاصه العظيمة وكانت مؤرخة صباح الاثنين اتهمت نفسها بأنها تكلمت بغير وعى عن ماريغو بينما كانت تعنى كاتبها آخر ولكن المستمع اليها قد قام بتصحيح الخطأ وان ذكرى الحديث عن ماريغو الى جورج اليوت بعد ظهر يوم من أيام الآحاد ليست بالذكري العاطفية اذ تلاشت العاطفة مع مرور السنين ولم تعد قوية أو زاهية جذابة

وفى الحقيقة لم يكن فى مقدور أحد أن يتهرب من الايمان بأن الوجه الطويل الصارم الجاد قد فرض نفسه وسيطر على عقول الناس الذين يذكرون جورج اليوت حتى كأنها تتطلع اليهم من خلال صفحات كتبها وقد وصفها مستر جوس (١) أخيرا عندما رآها تقود عربتها القديمة فى شوارع لندن وصفها بأنها مشعوذة ضخمة ساكنة هائمة ذات ملامح كبيرة بشعة اذا نظرت اليها نظرة جانبية وتضع على رأسها قبعة كبيرة غير متلائمة أو متجانسة وان كانت على أحدث طراز من باريس وكانت تحلى عادة فى تلك الأيام بريشة نعام كبيرة « وبنفس الطريقة وصفتها الليدى ريتشى (٢) فى حياتها الخاصة تجلس بجوار المدفأة فى رداء أسود من الساتان الجميل وبجوارها مصباح ذو غطاء أخضر على المنضدة حيث كنت أرى كتبها الألمانية ومطبوعات وفتاحة الورق العاجية كانت هادئة وعظيمة وذات عينين صغيرتين ثابتتين ، وكان صوتها حلوا وعندما نظرت اليها شعرت بأنها صديقة - ليست صديقة شخصية وانما شخص ودود ذو قلب عظيم » • وقد سجل لها حديث وهي تقول « يجب أن نحترم تأثيرنا فى الغير - فاننا نعلم بخبراتنا الى أى مدى يؤثر فى حياتنا الآخرون، وعلينا أن نذكر أنه - بالتالى - لابد أننا نؤثر فى الآخرين » انه وان كان هذا التسجيل محفوظا بعناية لكى يزكى الغيرة والذكريات فاننا يمكن أن نتصور - اذا ما استعدنا المنظر وكررنا نفس الكلمات - أننا نجد أنفسنا ولأول مرة ننفجر ضاحكين

Mr. Gosse. (١)

Lady Ritchie. (٢)

فى كل هذه التسجيلات يشعر المرء أن هؤلاء الذين سجلوا هذه الذكريات وهم معاصرون لها كانوا متباعدين عنها بأجسامهم وبأفكارهم ولم يقرءوا قصصها بعد ، ومع ذلك فهم يستعيدون فى أذهانهم شخصية حية جميلة محيرة تداعب أعينهم ففى كتابتها للقصة حيث الشخصيات الكثيرة تكشف عن شخصيتها هى فاننا نلحظ اختفاء السحر والجمال من بطلاتها بصورة واضحة مما جعل نقادها - الذين كان معظمهم من الرجال - ينفرون من عدم وضوح شخصيتها مما ترتب عليه اختفاء السحر وهو الجانب المعروف عنه أنه مرغوب للغاية فى النساء والسبب فى ذلك يرجع الى أن جورج اليوت لم تكن جذابة ، ولم تكن ذات أنوثة ، ولم يكن بها انحراف أو شذوذ ولم تكن متقلبة الأهواء الأمر الذى نشاهده فى كثير من الفنانين مما يسبغ عليهم بساطة الطفولة المحببة بل يحس المرء - كما وصفت ليدى ريتشى احساسها « ليست صديقة شخصية وانما شخص ودود ذو قلب عظيم » واذا ما درسنا هذه الصورة بامعان نجد انها صورة لامرأة كبيرة مشهورة ذات رداء أسود من الساتان وتقود سيارتها العتيقة نجد فيها امرأة خاضت معركة حياتها وخرجت منها وهى أشد ما تكون رغبة فى تحقيق النفع للآخرين ، وانما بغير الحاح فى التقرب اليهم الا فى دائرة ضيقة ممن عرفوها ابان شبابها - شبابها الذى لا نعرف عنه الا القليل ؛ وانما نعرف أن الثقافة والفلسفة والشهرة والتأثير ، كل هذا قد قام على أساس متواضع - فقد كانت جورج اليوت حفيذة نجار

ان أول مرحلة فى حياتها كانت مرحلة فريدة فى آلامها . ففى خلالها نراها تنشئ نفسها على التأوهات والكفاح فى مجتمع محلى وضيق غير محتمل ، ومشحون بالملل والقلق (فقد اقترب أبوها فى حياته من الطبقة المتوسطة لذا كانت حياته أقل ازدهارا من حياة تلك الطبقة) وخرجت هى من كفاحها لتكون مساعدة محرر فى احدى مجلات لندن الثقافية ورفيقا مرموقا عند هيربرت سبنسر وكانت خطوات تلك المرحلة مؤلمة كما أفصحت عن ذلك فى نجواها الحزينة لنفسها عندما أخرجها الأستاذ كروس فأجبرها على أن تتحدث عن نفسها فقد كانت فى شبابها المبكر مقيدة فى نادى معونة حيث وعدت بالحصول على وظيفة ولما فشلت أسهمت فى جمع المعونات لترميم كنيسة وذلك عن طريق عمل ميثاق عن تاريخ تلك الكنيسة الدينى ؛ وتبع هذا العمل فقدانها لايمانها الذى أفزع والدها فزعا شديدا حتى انه رفض أن يقيم معها ثم جاء بعد ذلك كفاحها

فى ترجمة شتراوس الذى كان يمكن - على ما فيه من شؤم وكآبة على النفس - أن يكون أقل تأثيرا لولا ما كانت تقوم به كامرأة من أعباء ادارة البيت ورعاية شئون والدها المشرف على الموت ولكن اقتناعها المؤلم واستسلامها الحزين - وهى المرأة التى تؤمن بالعاطفة - بأنها عندما أصبحت امرأة فقدت احترام أخيها وفى هذا كانت تقول « كنت أهيم كبوم مما زاد فى ازدراء أخى » حتى أن أحد الأصدقاء كتب عنها وهى تجاهد فى ترجمة شتراوس وتضع تمثال المسيح الى جوارها ياللمسكينة اننى أشفق عليها فعلا فى بعض الأحيان وهى تحمل وجهها مريضا شاحبا يعاودها صراع مروع فضلا عن قلقها على والدها « ومع ذلك لا يمكننا قراءة قصة حياتها دون أن نشعر بأننا كنا نتمنى من أعماقنا أن تكون مراحل حياتها هينة سهلة ان لم تكن أكثر اشراقا اذ كان تصميمها العنيد لارتقاء صرح الثقافة يسمو بشعورنا عن الاشفاق عليها - وكان تطورها بطيئا جدا وعجيبا جدا بل كان وراءه قوة دافعة لا تقوى على مقاومتها هى الطموح النبيل المتغلغل فى أعماقنا فكانت تذلل كل عقبة تقف فى طريقها بعد أن عرفت كل شخص وقرأت عن كل شىء وانتصر نشاطها الفكرى العجيب ثم ولى الشباب ولى الشباب الملىء بالآلام وفى الخامسة والثلاثين وبينما هى فى أوج قوتها وفى انطلاقتها الكامل اتخذت لنفسها قرارا كان عميق الأثر فيها هاما بالنسبة اليها اذ قررت أن تذهب بمفردها الى ويمر مع جورج هنرى لويس

تشهد كتبها - التى أصدرتها بعد معاشرتها لجورج هنرى لويس - بصورة واضحة بالتححرر الكبير الذى أصابها وبالسعادة الشخصية . كانت تلك الكتب فى ذاتها كنزا زاخرا ومع ذلك نجد فى أول حياتها الأدبية انطباعات تشير الى عودة عقلها الى الماضى الى القرية الى هدوء ذكريات الطفولة وبساطتها وجمالها بعيدة عن نفسها وعن حاضرها والدليل على ذلك أن أول كتبها كان **صور من الحياة الكنائسية** (١) وليس **ميدل مارش** (٢) . ثم أمدتها معاشرتها لجورج هنرى لويس بالعاطفة ولكن من وجهة نظر الظروف والتقاليد فقد أحاطتها بسياج عزلها عن المجتمع فقد كتبت عام ١٨٥٧ أريدها واضحة أننى لا أدعو أحدا لزيارتي مالم يطلب هو دعوته لذلك وقالت مرة أخرى لقد انقطعت عما يسمى بالدنيا ولكنها لم تكن نادمة ولما أصبحت مرموقة - نتيجة لظروفها الشخصية

Scenes of Clerical Life. (١)

Middle March. (٢)

بادىء الأمر ثم لشهرتها ككاتبة فيما بعد - فقدت القدرة على الحركة بسهولة من غير أن يشعر بها احد من بنات جنسها وهذه الحسارة امر خطير بالنسبة لكاتبة قصة ولكنها نعمت فى شهرة كتابها « صور من الحياة الكنائسية » لاحساسها بعقل ناضج يفرض نفسه بشعور فياض من الحرية فى ماضيها البعيد وعلى ذلك يصبح الكلام عن فقدان الحركة فيما بعد غير ذى موضوع فكل ما يفكر فيه هذا العقل الآن مغنم بعد أن ترسبت الخبرات فى فهم واستيعاب لتنعكس فى غنى ودسامة وكل ما يمكن أن يقال ، فى تحديد اتجاهها فى الكتابة - عن طريق القليل الذى نعرفه عن حياتها - أنها تلقت مؤخرا دروسا عاطفية معينة - ان كانت قد تعلمتها والتي من بينها ما كان أكثر تسلطا عليها وهو فضيلة التحمل الحزين اذ كانت مشاعرها مع عامة الشعب وتتجاوب فى سعادة مع مآسى الحياة المنزلية وأفراحها ولم يكن لها التركيز العاطفى الذاتى المتعلق بالشخصية ، والذى لا يمكن التخفيف من حدته أو استبداله اذ يفرض نفسه بقوة على العالم أين التركيز العاطفى فى حب « وآلام رجل الدين الكهل الذى يحلم من خلال ما يشربه من الويسكى أو ما يتعاطاه من النشوق - كما وصفته جورج اليوت - بأناية جين اير المتقدمة كما وصفتها شارلوت برونتى ؟ ان جمال هذه الكتب الأولى **صورة من الحياة الكنائسية وآدم بيد (١) والطاحونة فى برادى فلوس (٢)** جمال رائع جدا ومن المستحيل تقدير قيمة عائلة بويزر وعائلة دورسون وعائلة جيلفيل وبارتون والآخرين بكل ما يحيط بهم وما يتصل بهم لأنهم تجسدوا دما ولحما وعشنا معهم تارة فى ملز وتارة أخرى فى اشفاق ولكن فى جميع الحالات لم نكن نملك الا أن نتقبل أفعالهم وأقوالهم دون مناقشة، كما نفعل مع العظماء النادرين

ان فيضان الذكريات والمرح الذى تصبه جورج اليوت تلقائيا فى شخصية واحدة فى منظر تلو الآخر حتى تعيد الى ريف انجلترا القديم - حيث تجرى فيه أمور طبيعية - ما كان عليه حتى لا يكون فيه بعد ذلك مجال لناقد بل نتقبل كل شئ ، نتقبل الدفء الجميل والانطلاق الروحى الذى لا يستطيع أحد غير كبار الكتاب أن يحققه لنا ولما نعود الى الكتب بعد انقطاع سنوات عنها نجد أنها تفيض - على عكس ما نتوقع - بنفس مكنونات النشاط والطاقة حتى أننا لنرغب - أكثر من أى شئ آخر -

Adam Bede. (١)

The Mill on The Floss. (٢)

فى أن ننع بدفء تأثيرها كما ننع بدفء الشمس تتسلل من بين أغصان الاشجار فى بستان جميل وحتى اننا لنفكر فى وسيله لنهجر كل شى ونستمتع بدعابات فلاحى ميدلاند وزوجاتهم وهذا التفكير صادق عندما نعاود قراءة الكتب ونتقبل كتاباتها حتى انه يصبح من النادر أن نجد الرغبة فى تحليل ما نجده فى كتاباتها الشامله التى تتصل بأعماق الانسانية وعندما ندرك مدى بعد هذا العالم عن الماضى - عالم شيرتون وهائسلوب وعندما ندرك أن عقلية الفلاحين والعمال الزراعيين بعيدة عن قراءة جورج اليوت - فاذا ما أدركنا كل ذلك كان فى الامدان ان نعزى السهولة والسرور عندما نتجول من منزل الى دكان الحداد ومن فناء الدار الى حديقة الابراشية نعزى ذلك كنه الى أن جورج اليوت تشركنا فى حياتهم ، ليس بروح من التنازل أو من قبيل حب الاستطلاع وانما بروح العطف والمشاركة فجورج اليوت ليست بالكاتبة الساخرة والعمليات الفكرية عندها من البطء والتعقيد ما يبعدها عن أن تندمج فى الفكاهة وان كانت تجمع فى ادراكها الواسع بالطبيعة البشرية مجموعة من عناصرها وتجمعها ببساطة وبمقدرة سليمة وفهم واضح وهذا هو الذى يمكن ملاحظته عند معاودة قراءة كتبها مما لا يجعل شخصيتها دائما متجددة ومتحررة فحسب بل يجعلها تتحكم دون أن نشعر فى ابتسامتنا وفى دموعنا ومن هذه الشخصيات مسز بويزر المشهورة فى قصة آدم بيد فقد كان من الممكن أن تستغل فطرتها الى النهاية ولكن جورج اليوت جعلت منها - فى الصورة التى صورتها عليها - شخصية تضحك دائما من الآخرين ولكن تعيد لنا الذاكرة - بعد أن ننتهى من قراءة الكتاب - تفاصيل ومهارات كانت خابية الى جوار الصفات البارزة التى لم ندركها أو نلاحظها أثناء القراءة واننا نعلم أن صحتها لم تكن طيبة وكانت هناك مناسبات لم تتحدث عنها اطلاقا لقد كانت هى الصبر نفسه مع طفل مريض وكانت مشغوفة لذكرى الطفلة توتى ولذلك يجد المرء نفسه يتأمل ويتمعن فى شخصيات جورج اليوت العديدة حتى ليلحظ فى النهاية الفجوة والمسافة حيث تكمن تلك الصفات التى لم تشأ جورج اليوت أن تكشف عنها الغموض

وفى وسط هذا العطف والتحمل يوجد فى كتبها الأولى لحظات أعظم أهمية فقد أظهرت قدرتها على الدعاية بحيث امتدت الى آفاق بعيدة فشملت مغفلين وفاشلين وأمهات وأطفالا وكلابا وحقولا يانعة وفلاحين عقلاء وسكارى ، تجار خيول وأصحاب حانات ، قسسا ونجارين

– خيم عليهم كلهم جو من خيال معين وهو الخيال الوحيد الذى سمحت به جورج اليوت لنفسها ، انه خيال الماضى ان كتبها مشوقة للغاية وليس فيها أثر للأبهة أو المظاهر وانما بالنسبة للقارىء الذى لديه المام سابق بكتبها الأولى فان سحب الغموض تنقشع . وقدرتها على الكتابة لا تتناقص وانما تبلغ ذروتها فى كتابها الناضج « **ميدل مارش** » ذلك الكتاب الرائع الذى – على الرغم مما به من مأخذ – فهو أحد الكتب القلائل فى القصة الانجليزية التى انما كتبت للناضجين من الناس فلم تعد دنيا الحقول والمزارع تشفى غليلها فهى فى الحياة الواقعية قد نقتبت عن حظها بعيدا عن الحقول والمزارع ، وعلى ذلك لم يكن الالتفات الى الماضى الا طلبا للهدوء والعزاء ، ولهذا تلحظ فى كتبها الأولى لمحات لهذه النفس المضطربة ، تلك اللمحات التى تحدد وتلح ثم عطلت الحاضر الذى هو جورج اليوت نفسها .

فى كتابها **آدم بيد** نجد اشارة الى نفسها فى شخصية دينا ثم تكشف عن نفسها كلية وبوضوح أكثر فى شخصية ماجى فى كتابها **الطاحونة فى برادى فلوس** ثم هى جانبى فى قصة **توبة جانيت** (١) ورومولا ودوريتيا وهما تبحثان عن الحكمة وتجدان أنه من النادر أن يدرك المرء ما فى الزواج من شخصية « **لادزلو** » وانما نميل الى الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يصمون جورج اليوت بالدناسة انما حكموا عليها بهذا من خلال بطلاتها وهذا الاعتقاد سليم لأن بطلاتها – من غير شك – تكشف عن أسوأ ما فى جورج اليوت وتجعلها تكشف عن مخازى حياتها وتجعلها دائما تحس بنفسها وهى تارة معلمة وشرسة تارة أخرى ومع ذلك ان استطعت أن تجذب الحيط الذى يصل بينها وبين شخصياتها فان ما دون ذلك يكون تافها وناقصا ولو أنه تكامل فنى مليء بالبهجة والراحة ولتعليل فشلها – اذا كان يمكن تسمية ذلك فشلا – يجب أن نذكر أنها لم تبدأ فى الكتابة الا فى سن السابعة والثلاثين فلما بدأت تفكر فى هذا السن كان تفكيرها مزيجا من الألم والتحفظ وبقية مدة طويلة تفضل ألا تفكر فى نفسها بالمرّة ولكن عندما تلاشت الدفعة الأولى للخلق واستعادت ثقتها بنفسها بدأت تكتب عن نفسها وفعلت ذلك دون أن تهجر طفولتها ونلاحظ شعورها واحساسها بنفسها عندما تجرى على لسان بطلاتها ما كانت تتمنى أن تقوله هى عن نفسها وكانت تخفى معالم بطلاتها بكل وسيلة ممكنة كما منحتهن جمالا وثراء وزادتهن ميلا لشرب البراندى وانما الحقيقة

المحيرة والدافعة بقيت كما هي وهي أنها اضطرت بقدرة عبقريتها أن تتقدم بشخصها نحو المنظر الريفى الهادىء

ان الفتاة الجميلة النبيلة التى صممت جورج اليوت أن تجعلها تولد فى برارى فلوس « لأوضح مثل على بطة تحيط من حولها الأطلال وتغمرها روح الفكاهة وتجعلها محبوبة دائما طالما بقيت صغيرة ويمكن أن ترضى بقصص الهرب مع الفجر وتدق المسامير فى عروستها ولكن تتطور وقبل أن تدرك جورج اليوت ماذا حدث كانت أمام امرأة اكتمل نموها تطالب بما لا تستطيع أن تمنحه الفجريات ولا العرائس ولا القديس أوج. فقدمت أولا فيليب واكم ثم بعد ذلك ستيفن جيست وكان النقاد يشيرون دائما الى ضعف الأول وخشونة الثانى وكلاهما سواء فى الضعف أو الحشونة لا يدلان على عدم قدرتها على تصوير شخصية الرجل وانما عدم التأكد والاهتزاز والتردد الذى كان يرعش يديها عندما كانت تضطر لخلق الرفيق المناسب لبطلاتها فقد أبعدت فى بادىء الأمر عن عالم البيت الذى تعرفه وتحبه ثم أجبرت على ولوج صالونات الطبقة المتوسطة حيث يغنى الشباب أغانى الصيف الصباحية وحيث تجلس الفتيات يطرزن طواقى للأسواق فأحست أنها غريبة عن هذا المجتمع كما أيد ذلك تنديدها الفظ بما أسمته « المجتمع الطيب »

« للمجتمع الحسن نبیذه وسجاجيده المخملية وله التزاماته وولائمه وأوبراته ومراقصه الخيالية ، يستمد عمله من فارادای وديانته من القسيس الأعظم الذى يستقبل فى أحسن البيوتات فكيف اذا يحتاج هذا المجتمع الى الايمان أو الاقتناع »

لا نجد فى هذا الكلام أثرا للدعابة أو للدراك بل نجد أحقاد التعصب الذى نشعر أن مرده أسباب شخصية ولكن نظامنا الاجتماعى له فروض مروعة على مشاعر كاتب الرواية وادراكه واحساساته حتى ليشرذ كلما خرج من محيطه وأسوأ ما فعلته ماجى توليفر أنها أخرجت جورج اليوت من محيطها الطبيعى فقد ألحت عليها أن تقدمها فى المشهد العاطفى العنيف فهى لا بد أن تعشق ولا بد أن يصيبها اليأس وهى فى النهاية لا بد أن تغرق وهى ممسكة أباها بيديها وكلما ازددنا فحفا للمشاهد العاطفية العنيفة توقعنا مزيدا من العصبية فى تلاقى السحب وتجمعها حتى لتندر بوابل من خيبة الأمل والهراء والسبب فى ذلك يرجع الى أن

قدرتها على الحوار - عندما لا يكون دارجا - ضعيفة كما يرجع الى أنها تتراجع وتنكمش كالعجوز التي تخشى المجهود نتيجة للتركيز والمجهود العاطفي الذي تبذله فهي تجعل بطلاتها تثرثر كثيرا وأسلوبها ليس بالسلس وينقصها التذوق الماهر الذي يمكنها من اختيار جملة واحدة ثم تركز المشهد وتجعله يدور في محيط هذه الجملة المنتقاة

- « مع من سترقصين » ؟ هكذا تساءل السيد ناتيلي في الحفل الراقص في ويستن - « معك ان طلبت ذلك » كان جواب اما Emma

وفي ذلك ما فيه الكفاية في حين أن السيدة كازابون كانت تتحدث في هذا المجال ساعة كاملة وكنا عندئذ ننصرف عنها

ومع ذلك اذا أهملنا بطلات جورج اليوت بلا رحمة ، وحددنا عالمها بالعالم الزراعي لماضيها السحيق ، فاننا لا نقضى على عظمتها فحسب بل نفقد تذوق رواياتها وهي عظيمة دون شك مجالها عريض واسع محددة المعالم ففي كتبها الأولى النابضة بالشباب وفي كتبها الأخيرة الزاخرة بالقدرة على البحث تجبرنا بالتأمل على التريث والاسهاب في مديحها دون تقييد وانما بطلاتها هي التي نلقى عليها نظرة أخيرة

« كنت دائما أبحث عن الايمان منذ كنت طفلة صغيرة »
هذا ما قالت دوريثا كازابون « كنت آنئذ أكثر صلابة في حين أنني الآن قلما أصلى أحاول ألا يكون لي أبدا رغبات خاصة بنفسى »

وهي تتحدث عن أهلها جميعا فهذه هي مشكلتهن وهن لا يستطعن أن يحيين بلا عقيدة بل يبدأن في البحث عن احدي هذه العقائد عندما يصبحن فتيات صغيرات ولكل منهن ميل عميق نحو الطبيعة ، مما يجعل موقفها - سواء في تأجج الأمل أو في صدمة العذاب - محور الكتاب هذا الموقف أو محور الكتاب ساكن مزخرف كالمعبد ومع ذلك فهي لم تعد تعرف لمن تصلى ومن خبراتهن في مجال التزاماتهن النسوية الطبيعية يبحثن عن هدفهن ومن خلال مجالهن الواسع فيما يؤديين من خدمات لا يجدن ما يسعين اليه ولا غرابة في ذلك فعقل المرأة انباطن منذ القدم مشحون بالعذاب والحساسية لقد ظل حقبة طويلة من الزمن لا ينطق أو يحتج حتى يبدو عقل البطلات وكأنه طفح بما فيه ثم أفصح عن مطلب أو رغبة في شيء - ولكنهن لا يكدن يدرين ماهية هذا الشيء فهو رغبة في شيء ربما كان غير مألوف لواقع الوجود البشري ولكن

ذكاء جورج اليوت بلغ من الحدة حتى ليعبث بهذا الواقع ، ومزاحها خصب حتى ليلطف من الحقيقة الصارمة واذا استثنينا الشجاعة الفذة لبطلاتها فى بحثهن عن الحقيقة ، لانتهى صراعهن بمأساة أو بتراض هو فى الواقع أكثر تأثيرا وعلى العموم نجد قصة أولاء البطلات هى القصة التى لم تتم حياة جورج اليوت نفسها فهى ترى أن مسئولية المرأة وعقدة الجنس لم يكونا كافيين . كما ترى أنه يجب أن تجتاز حدود سجنها وتقطف من إثمار الغريبة الزاهية للفن والمعرفة وتتعلق بها كما تعلق نساء قليلات ، ولا تتنازل عن طبائعها المتوارثة تلك هى اختلاف وجهة نظرها أو اختلاف مستواها ، وهى لا تقبل أية مكافأة غير لائقة بها . ولذلك نراها شخصية لا تنسى ، نالت ما تستحقه من مديح ولكنها كانت تتوارى بعيدا عن الشهرة ، يأسسة ، متحفظة تحتمى بين أذرع الحب كما لو كانت بينهما فقط تجد الرضا وربما التبرير وفى نفس الوقت تحصل بطموح دقيق نهم ، على كل ما يمكن أن تمنحه الحياة ، والعقل الحر المنقب ومواجهة تأملاتها النسائية بعالم الرجال الحقيقى وكان النصر حليفها مهما كانت الصورة التى عليها بطلاتها وعندما نستعيد فى الذاكرة كل ما أقدمت عليه وما حققته - رغم كل العقبات التى صادفتها سواء من ناحية الجنس أو الصحة أو التقاليد - فى بحثها عن المعرفة والحرية حتى ناء جسدها بحمله المضاعف وبلى وانزوى عودها نرى لزاما علينا أن نضع على قبرها كل ما يمكن أن يوضع من أكاليل الزهور والورود

وجهة النظر الروسية

انا نتشكك دائما فيما اذا كان الفرنسيون أو الأمريكيون – الذين يألّفون فينا الشيء الكثير – يمكنهم تفهم الأدب الانجليزي وعلينا أن نعترف بتشكك أعمق فيما اذا كان الانجليز – على الرغم من كل تحمسهم بقادرين على تفهم الأدب الروسي وقد تكون المناظرة هي التي عوقت بصفة قاطعة تحديد ما الذي نعنيه بكلمة « تفهم » وقد نجد أمثلة لكل فرد من الكتاب الأمريكيين وبصفة خاصة لمن كتبوا وغالوا في التمييز بيننا وبين أدبنا ، ولمن أمضوا حياتهم بيننا ثم اتخذوا الاجراءات القانونية لكي يصبحوا من رعايا الملك جورج فهل بعد هذا كله فهمونا ؟ ألم يبقوا حتى آخر أيامهم غرباء ؟ هل يصدق أحد أن قصص هنري جيمس كتبت بمعرفة رجل عاش في المجتمع الذي يصفه أو أن نقده للكتاب الانجليز كتب بمعرفة رجل سبق أن قرأ شيكسبير يغير عقلية المحيط الأطلنطي ؟ وأن مائتين أو ثلاثمائة سنة على الجانب الآخر من المحيط قد فصلت حضارته عن حضارتنا ان هناك دائما الذكاء الخاص والانفصال وزاوية ضيقة للرؤيا عند الغريب أما بالنسبة للمواطن فليس لديه الاحساس الذاتي الذي يشعر به الغريب بل يحس بتلك البساطة والزمالة والاحساس بالقيم العامة التي تتبع المودة وسلامة العقل وسرعة البذل والأخذ والعطاء في مجتمع ليس بغريب عليه .

وليس هذا هو كل ما يفصل بيننا وبين الأدب الروسي بل هناك حاجز أكثر أهمية من هذا كله الا وهو الاختلاف في اللغة ومن هؤلاء الذين التهموا تولستوى ودستوفسكى وتشيكوف خلال العشرين سنة الماضية نجد أن واحدا أو اثنين على الأكثر هما اللذان قرءا لهؤلاء بالروسية ان تقديرنا لعظمتهم قد تشكلت من خلال أقوال النقاد الذين لم يقرأوا كلمة روسية واحدة أو رأوا روسيا أو حتى سمعوا الروس يتحدثون بلغتهم كل هذا اعتمد اعتمادا كلياً على أعمال

المرجمين ان ما نقوله في هذا الصدد اذا انما هو حكما الذي أصدرناه على أدب برمته بعد أن أنتزع من أسلوبه فعندما تحول كل كلمة في جملة من الروسية الى الانجليزية فانك تكون قد غيرت المعنى تغيرا طفيفا أما الموسيقى والوزن ونبرة الكلمات في علاقاتها بالكلمات الأخرى فانها تتغير كلية دون أن يبقى منها سوى معنى فج هكذا عومل الكتاب انروسي العظام فأصبحوا أشبه بالرجال الذين جردوا بفعل زلزال أو كارثة من ملابسهم أو ما هو أهم من ذلك جردوا من أسلوبهم وسجية شخصياتهم وفطرتهم ولا يتبقى بعد ذلك - كما أثبتته الانجليز بتعصب اعجابهم - الا شيء قوى مؤثر ولكنه من العسير الاحساس - بعد هذا البتر - بمدى الاطهٲنان الى اننا لا نفتري عليهم أو أننا لا نشوه أعمالهم فنقرأ لهم ونقتنع بالزيف

لقد جرد الكتاب الروس من ثيابهم - كما نقول - في فاجعة مروعة اذ أن مثل هذه الشخصيات تصف البساطة والانسانية التي جفلت دون مجهود مذعورة لتخفى أو تموه فطرتها التي فرضها علينا الأدب الروسي ، اما نتيجة للترجمة واما لاي سبب آخر أبعد عمقا واننا نجد تلك الميزات تزداد وعورة وهي واضحة في الكتاب العظام كما هي واضحة فيمن هم أقل منهم شأنًا « تعلم لتجعل من نفسك نداءً للناس • وأود أن أضيف اجعل من نفسك شيئًا لازما ضروريا بالنسبة اليهم ولكن لا تدع للمشفقة مجالا لتجد طريقها الى العقل فان الأمر سهل ما دام العقل يفكر ولكنه ليس كذلك اذا تحكّم القلب أو اتجهت العاطفة نحوهم » « من الروسية » ، هذا هو كل ما يمكن أن يقوله المرء بمجرد أن يصادف شيئًا مقتبسا والافتراض - في عالم تفشى فيه البؤس - بأن الواجب الأساسي علينا أن نفهم ونحس باخواننا المعذبين ، « ولكن ليس بالفكر - اذ أن ذلك أمره سهل - وانما بالقلب » - هذه هي السحابة التي تخيم على كل الأدب الروسي والتي تغرينا بأن ننتشر في ظلها هربا من لفحات نبوغنا ومن شواظ عموميتنا وبغير شك تكون النتائج وخيمة فقد أصبحنا في وضع غريب وبادراك ذاتي نفكر صفاتنا نحن ، ونكتب بتلك الجودة والبساطة لدرجة تعافها النفس الى أبعد حد فنحن لا يمكننا أن نقول يا أخي « عن ايمان بسيط سهل وهناك قصة جالثويرثي وفيها تخاطب احدي الشخصيات شخصية أخرى بكلمة « يا أخي » وذلك لأن كلدما في أعماق الألم من الحظ السيء » عندما نقرأ ذلك سرعان ما نشعر بأن كل شيء غير طبيعي غير مستساغ ان الكلمة الروسية

التي تقابل كلمة « أخ » في الانجليزية وهي « رفيق » كلمة تختلف تمام الاختلاف فيها شيء من الاستخفاف وتحمل في طياتها الإيحاء المبهم بالتهكم هكذا تقابل الرجلان الانجليزيان في أعماق الألم من انحط السوء وهكذا - وقد قرب بينهما الفقر - ونحن متأكدون - سوف يجدان عملا ثم يصيبان شيئا من الثراء فيقضيان سنوات حياتهما الأخيرة في بجموحة ويجنيان بعضا من المال حتى لا ينادى الفقراء بعضهم البعض على الجسر بكلمة « أيها الأخ » إذ أن الآلام المشتركة وليست السعادة المشتركة أو الرغبة هي التي تخلق الشعور بالآخوة انه الأسى العميق الذي اكتشف دكتور هاجبرج رايت (1) أنه يطابق ما أدخله الشعب الروسي في آدابه .

وبطبيعة الحال ان التعميم الذي من هذا القبيل - حتى ولو كان فيه قدر من الصدق اذا ما طبق على الأدب - سوف يتغير جذريا عندما يكون الكاتب العبقري هو الذي يتناوله في عمله وعندئذ ثمة أسئلة تثور فمن المعروف أن « وضعا ما » ليس بسيطا بل هو معقد غاية التعقيد وأن الرجال الذين عقدت دهشة تصادم القطار السننتهم وجردوا من ملابسهم واختفى الرقيب الذي يتحكم في أخلاقهم مثل هؤلاء الرجال يقولون كلاما قاسيا ، وأشياء فظة غير لطيفة ، أشياء يصعب اتيانها في الظروف العادية كل ذلك يصدر متتابعا مرسلا في يسر وكأن الكارثة قد تولدت معهم هكذا تكون أول انطباعاتنا عن تشيكوف انطباعات ليست عن البساطة بل عن الضياع ما هو الهدف من تلك الكتابة ، ولماذا جعل من ذلك قصة ؟ هكذا نتساءل عندما نقرأ قصة تلو أخرى رجل يقع في غرام امرأة متزوجة ويفترقان ثم يلتقيان وفي النهاية نجدهما يتناقشان في موقفهما وكيف يتحرران من « هذا القيد الذي لا يمكن تحمله » .

« كيف ؟ كيف ؟ » يتساءل القارئ وهو ممسك برأسه ويبدو كما لو كان في لحظة وجيزة سوف يصل الى الحل ، وعندئذ تبدأ حياة جديدة هنيئة « هذه هي النهاية للقصة . وقصة أخرى نرى ساعى البريد يوصل طالبا الى المحطة وفي أثناء الطريق يحاول الطالب أن يدفع ساعى البريد الى الكلام ولكنه يبقى ساكنا . وفجأة يتفوه ساعى البريد بكلام غير متوقع « ان السماح لأحد بالركوب مع البريد أمر مخالف للتعليمات » ثم يذرع رصيف المحطة ذهابا وايابا

تعلو وجهه نظرة غضب ، « ممن هو غاضب ؟ » وهكذا تنتهى تلك القصة .

ولكن هل نهاية القصة هى التى نبغى ؟ اننا نشعر اننا قد جاوزنا الحدود أو أن نعما قد توقف قليلا دون أن تتجمع الخيوط لتسدل الستار ان هذه القصص لا يمكن اخضاعها للقيود أو نقدها بنفس الطريقة التى تعارفنا عليها اننا ان فعلنا ذلك فإنما نثير سؤالا حول مدى لياقتنا كقراء ، حيث النغم المألوف والنهية الحتمية ، النهاية السعيدة للمحبين ، الأشرار يفلبون على أمرهم ، والخداع ينكشف ، كما هى الحال فى معظم القصص العاطفية فى عصر فيكتوريا وعندئذ لا نضل عند قراءة مثل هذه القصص ولكن عندما يكون النغم غير مألوف والنهية غير واضحة أو محددة المعالم مما يبعث على التساؤل أو تنتهى القصة على مجرد حديث بين أبطال القصة كما سبق أن بينا عند الكلام على تشيكوف عندئذ نكون فى حاجة ماسة الى حاسة أدبية جريئة متيقظة حتى نستطيع أن نتذوق النغم وخاصة تلك العبارات الأخيرة التى تكمل التوافق . ربما يكون علينا أن نقرأ قصصا كثيرة جدا قبل أن نحس ذلك الاحساس الضرورى لتحقيق رضانا عنها ولكى نجمع أجزاءها معا وعندئذ يصبح تشيكوف ليس كاتباً متجولا متفككا وانما يناقش نقطة معينة تارة ويتطرق الى نقطة أخرى تارة أخرى عن قصد ليكمل المعنى الذى يريد

يجب علينا أن نبحث وندقق لنتكشف المواطن الهامة فى تلك القصص الغربية وتقودنا كلمات تشيكوف نفسها فى الاتجاه الصحيح عندما يقول « ان مثل هذا الحوار الذى يدور بيننا ربما لا يكون قد ورد على فكر آبائنا فلم يكونوا يتكلمون ليلا بل ينامون ملء جفونهم . بينما جيلنا ينام نوما مضطربا ثقيلًا وانما يتكلم كثيرا ، ودائما يحاول أن يؤكد ما اذا كنا على خطأ أم على صواب ان أدبنا الخاص بالنقد الساخر للمجتمع والرقعة النفسانية انما ينبثق كلاهما من نومنا المضطرب ومن الحديث الذى لا ينقطع ، ومع كل ذلك فهناك فارق ضخم واضح بين تشيكوف وهنرى جيمس وبين تشيكوف وبرناردشو . ولكن من أين ينبثق هذا الخلاف ؟ ان تشيكوف على علم بشرور المجتمع وظلمه فى الدولة ويفزع من حالة الفلاحين ومع ذلك فليس فيه حماسة المصلح ولكن يجب ألا نتوقف عند هذا الحد فقد استهواه العقل بدرجة كبيرة ولذا فهو محلل ماهر رقيق للعلاقات الانسانية وليس

هذا هو نهاية الخلاف فهل يرجع ذلك الى أنه لا يهتم أصلاً بعلاقة الروح بغيرها من الأرواح وإنما بعلاقة الروح بالصحة وبعلاقة الروح بالأفعال الطيبة ؟ وتظهر لنا دائماً هذه القصص بعضها من التكلف وأوضاعاً معينة وبعضاً من عدم الاخلاص فامرأة قد اتخذت علاقات شائنة ورجل قد تغير نتيجة ظروفه غير الانسانية . ان الروح مريضة، وانها قد تم شفاؤها أو الروح لم يتم شفاؤها تلك هي الركائز فى قصص تشيكوف

وإذا ما تعودت العين على تلك الظلال فان نصف نهايات القصص العاطفية يتلاشى فى الهواء وتبدو وكأنها شفافة من خلفها ضوء ينفذ من خلالها ، كأنها زاهية متوهجة وسطحية ان انهاء الفصل الأخير بصفة عامة بالزواج أو بالوفاة أو بقرع الطبول للجهر بالقيم أصبح أساساً ، ونشعر بأن شيئاً لم يحل ولم يرتبط ارتباطاً سليماً ومن ناحية أخرى تبدو الطريقة لأول وهلة عارضة وغير شاملة وتهتم بالسفاسف فتظهر بعد ذلك نتائج ذوق مبتكر للغاية ودقيق يختار بشجاعة ويرتب بلا أخطاء تحكمه أمانة لا نجد لها مثيلاً سوى بين الروسيين أنفسهم وقد لا يكون هناك أجابة على تلك الأسئلة وإنما لا يجدر بنا فى نفس الوقت أن نتلمس البراهين لنقدم شيئاً لايقاً وموائماً ومقبولاً لغرونا . قد لا يكون هذا هو السبيل لاسترعاء سمع العامة ، فهم قد تعودوا سماع الموسيقى الصاخبة واعتادوا المعايير القاسية ، ولكن تشيكوف كتب النغمة التى أحس أنها هى الملائمة وترتب على ذلك اننا عندما نقرأ تلك القصص القصص التى تدور حول لا شىء تتسع الآفاق وتحظى الروح فيها بشعور عجيب من الانطلاق والحرية

عند قراءة قصص تشيكوف نجد أنفسنا نكرر كلمة « الروح » ونعيدها مراراً انها تنتشر على صفحاتها ويستعملها عجائز السكرارى بكثرة ، « انك ممتاز فى خدماتك ، فوق كل مستوى ولكنك لا تضم روحاً صادقة يابنى العزيز لا قوة فيها » وفى الواقع انها « الروح » التى تعتبر صفة رئيسية فى القصص الروسى فهى رقيقة وذات ذكاء حاد عند تشيكوف ، بينما هى لا حدود لها فى الفكاهة وحدة الطبع وهى أعظم عمقا وكيانا عند دوستوفسكى وهى عرضة للأمراض الفتاكة وفورة الحمى ، ومع ذلك فلا زالت الروح التى لها الاعتبار الأول فى السيطرة ولعل هذا هو السبب فى حاجة القارىء الانجليزى الى مجهود كبير لقراءة قصة الاخوة كارامازوف أو المأخوذ

للمرة الثانية فالروح غريبة عليه بل انها تسبب له النفور . وهي خالية من روح الدعابة أو الهزل وهي غير محدودة الشكل ولها ارتباط خفيف بالذكاء انها محيرة وانها عطرة ، ذات ضجيج وعاجزة ، ويبدو أنها تستسلم لسيطرة المنطق أو لنظم الشعر ان قصص دوستوفسكى كأنها تمزج الدوامات وتدرى الأعاصير ودوامات الماء تغلى وتصلصل وتجذبنا الى داخلها ان سداها ولحمتها من مادة الروح وعلى الرغم من ارادتنا فاننا ننجذب داخل الدوامة ، وقد عصبت عيوننا ، ونشعر بالاختناق ، ونحن في نفس الوقت غارقون في ذهول محير وباستثناء شكسبير فانه لا يوجد غيره مثير في قراءته نفتح الباب فنجد أنفسنا في حجرة اكتظت بالجنرالات الروس ومدربي هؤلاء القواد الروس وبنات العمومة وبنات زوجاتهم وزمرة من غيرهم والجميع يتناقشون بأعلى صوتهم حول أدق الخصوصيات وشئونهم الخاصة ولكن أين نحن ؟ بالطبع على الكاتب أن يخبرنا عما اذا كنا في فندق أم في شقة أو في مكان آخر مستأجر ولا يفكر أحد في تفسير ذلك وذلك لأن أرواحنا معذبة أرواحا تعسة لا هم لها الا أن تتحدث لتنفس عن نفسها لتعترف ولتجذب الى السطح - مهما كان ذلك على حساب الجسد أو الأعصاب - لتجذب آثاما تزحف على رمل القاع في أعماقنا واذا ما انصتنا فاننا نخرج من حيرتنا تدريجيا كما لو كان قد أدلى الينا بحبل فنمسك بأطراف المفاجأة نعص عليه بالنواجذ ومع ذلك نندفع الى الماء ، نندفع بقسوة كالمحمومين وندفع وندفع ثم نغوص في لحظة وفي لحظة يقظة نجد أننا قد تفهمنا أكثر مما فهمنا من قبل ، ثم نتلقى الوحي والالهام كما كنا معتادين أن نحصل عليه كاملا من ضغط الحياة وعندما ننطلق نلتقط كل شيء : أسماء الناس وعلاقات بعضهم ببعض وانهم انما يقيمون في فندق في روليتنبرج وأن بولينا متورطة في مكيدة مع ماركيز دي جريو ولكن كل هذه الأشياء جميعا تبدو أكثر تفاهة اذا ما قورنت بالروح !! انها الروح التي تهم ، انفعالاتها ، حيويتها ، مزيجها العجيب من الجمال والشر فاذا ما ارتفعت أصواتنا فجأة في قهقهة من الضحك أو اذا هزنا نحيب عنيف ، فهل هناك ما هو أكثر طبيعية من هذا ؟ انه يندر أن يدعو ذلك الى ابداء تعلقات ان سرعة الحياة التي تعيشها عالية جدا وعلى ذلك فعلينا أن نضاعف من سرعتنا

وفضلا عن ذلك فانه مع زيادة السرعة ومع تكشف المزيد من عناصر الروح وهي غير متفرقة أو موزعة بين فصول الفكاهة وفصول

الانفعال ولا تدركها عقولنا الوئيدة نحن الانجليز الا متداخلة ومتورطة ومعقدة في غير وضوح - تنكشف عندئذ آفاق جديدة شاملة للعقل البشرى - ويزوب اتقسيم القديم ويتلاشى فالرجال أشرار وقديسون في وقت واحد ، أفعالهم جميلة مرة وتستحق الازدراء مرة أخرى ونحب ونكره في وقت واحد ولا يوجد شيء من هذا التحديد بين الخير والشر الذي ألفناه ان من نشعر نحوهم بالحب العظيم كثيرا ما يكونون أشد المجرمين ضراوة وان أبغض الآثام تحرك فينا أقوى الاعجاب كما تحرك فينا لواعج الحب

من الصعب على القارئ الانجليزى أن يشعر بارتياح وهو يقرأ الأدب الروسى الذى يحمّله الى أعلى ويخلق به فوق أمواج الخيال ثم يرتطم به على صخور التحليل النفسى فيخر محطما وذلك لأن الأنظمة التى اعتادها القارئ الانجليزى فى آداب لغته على النقيض من ذلك فاذا اردنا مثلا أن نحكى قصة غرام الجنرال (وسوف لا يمكننا أن نقاوم الضحك فى أول الأمر من جنرال) فاننا سوف نبدأ بمنزله ثم نجسد ما يحيط به وعندما يصبح كل شيء مستعدا عندئذ فقط نحاول أن نتناول الجنرال نفسه وأكثر من ذلك فليست غلاية الشاى الروسى هى التى تتحكم فى انجلترا بل انه قدر الشاى الانجليزى ، كما نجد الوقت محددًا فى الأدب الانجليزى والفجوات مزدحمة وتأثير وجهات نظر الآخرين أو الكتب الأخرى وحتى الأجيال الأخرى تفرض نفسها . فالمجتمع الانجليزى يتكيف بطبقاته الدنيا والمتوسطة والعليا ولكل منها تقاليدها ، وخصالها وأحيانا لغتها . وسواء أراد الكاتب الانجليزى ذلك أو لم يردده فانه يواجه ضغطا مستمرا لكى يعترف بتلك الحواجز وبالتالي بالنظام وبعض الرسميات المفروضة عليه فعليه أن ينزل باللوم والتفريع على المجتمع لا أن يحنو عليه وأن يتفحصه أكثر من أن يتفهم الأفراد أنفسهم

لا شيء من هذه القيود كانت مفروضة على دوستوفيسكى سواء أكان بطل قصته من النبلاء أم من البسطاء أو أكانت بطلتها من عابرات الطريق أم سيدة جليلة فهما كانت الشخصية فالنفس هى الوعاء الذى يحتوى على هذا السائل المحير ، هذه المادة النفسية المعتمة ، هى الخميرة التى تحتوى على الروح . ان الروح لا تعانى من الحواجز انها تهيم انها تفيض انها تمتزج بأرواح الآخرين ان القصة البسيطة الخاصة بموظف البنك الذى لا يملك أن يدفع ثمن زجاجة نبيذ نراها تنتشر - قبل أن نعرف ماذا سيحدث من وقائع القصة فى

حياة صهره والمحظيات الخمس اللائي يعاملهن أبشع معاملة وفي حياة ساعى البريد وفي حياة الخادمة باليومية وفي حياة الأميرات اللائي يقمن في نفس المجمع من الشقق وذلك لأنه لا شيء دخيل أو خارجي عن محيط دوستوفيسكى ، وعندما يتعب فانه لا يتوقف بل يستمر فهو ليس بمستطيع أن يكبح جماح نفسه . انها النفس البشرية التي تسيطر علينا ، ساخنة ، حارقة ، ممتزجة رائعة ، مروعة ، غير محتملة .

وهناك يبقى على مر الدهر أعظم الكتاب جميعا - وبأى صفة أخرى يمكن أن نصف بها كاتب قصة « الحرب والسلام » ؟ هل سنجد تولستوى أيضا ، أجنبيا ، صعبا غريبا علينا ؟ هل هناك غرابة في زاوية رؤياه التي أبقتنا على كل حال على مسافة ذراع من الشك والضياع، حتى أصبحنا من الحواريين نتقبل ما يقوله تولستوى دون مناقشة فمن كلماته الأولى نصح على يقين من شيء واحد وهو أن تولستوى انما يرى ما نراه ، ويسير - أيضا كما تعودنا نحن أن نسير فلا يبدأ بالنفس البشرية ويخرج الى المظهر الخارجى بل يبدأ بالاطار الخارجى ثم يتدرج منه الى أعماق النفس البشرية فيحللها وفي عالم تولستوى نجد أنه عالم عادى ، تسمع في هذا العالم دقائق ساعى البريد في الساعة الثامنة ويأوى الناس فيه الى فراشهم بين العاشرة والحادية عشرة فهو رجل ليس بالشرس وليست له براءة الأطفال ، انه مثقف ولديه كل أنواع الخبرات . انه واحد من أولئك الذين ولدوا من الطبقة الارستقراطية الذين استفادوا من جميع امتيازاتهم حتى النهاية انه من سكان المدن وليس من سكان الضواحي حاد الحواس والذكاء قوى قد نشأ نشأة طيبة وهناك شيء من الخيلاء والتعالى عندما يهاجم الحياة ومثل هذا العقل ومثل هذا الجسم لا تغيب عنه شاردة ولا واردة ولا تفوته لمحة دون تسجيل وعلى ذلك فليس هناك من هو قادر على أن ينقل انفعال الرياضة ، وجمال الخيول وكل رغبة جامحة في الدنيا الى حواس شاب قوى كل شيء يميل اليه ، اذ ان كل غصن ، وكل ريشة تلتصق بجاذبيته . انه دقيق الملاحظة فهو يلحظ لون ملابس الطفل وهل هي حمراء أم رزقاء ، يلحظ الطريقة التي يحرك بها الحصان ذيله، ونبرة السعال وحركة الرجل الذي يريد أن يضع يديه في جيوبه التي خيبت حديثا ومما تلحظه عينه التي لا تخطيء سعالا أو مهارة اليد يفسر لنا عقله ما خفى من طبائع البشر لدرجة أننا نتعرف على شعبه لا من الطريقة التي يحبون بها أو من وجهات نظرهم في السياسة أو في الروح الخالدة فحسب، بل نتعرف كذلك على الطريقة التي يعطس بها

هؤلاء الناس أو يشرقون في شرابهم وحتى في التراجيم نشعر وكأننا قد جلسنا على قمة جبل وفي يدنا منظار مقرب نرى به كل شيء واضحا جليا كل خلجة واضحة بشكل غريب وبدقة متناهية وعلى حين فجأة وبينما نحن في نشوة البهجة نتنفس بعمق ونشعر بالرباط الوثيق وقد خلصنا الى ما نقرأ تقابلنا بعض التفاصيل - وقد تكون وصفا لرأس رجل - تظهر في الصورة بشكل مروع كما لو كانت قد أخرجتها قوة وجودها نفسها

« وفجأة وقع شيء غريب - وفي بادىء الأمر لم أعد أرى ما يحيط بي ثم بدا وجهه وكأنه يتلاشى حتى لم يبق سوى العينين تضيئان ببريق ينعكس على عيوني ، وبعد ذلك بدت عيونه وكأنها قد ركبت في رأسي أنا ثم اختلط كل شيء على لم أعد أرى شيئا واضطرت لأن أغمض عيني حتى أقطع الشعور بالسعادة والخوف اللذين تبعتهما تحديقته في

وهكذا نشارك ماشا في شعورها في قصة « سعادة الأسرة » يغمض الشخص عينيه ليهرب من الاحساس بالسعادة والخوف ان هذا عادة هو أسمى احساس بالسعادة في هذه القصة تصادف وصفين أحدهما لفتاة تسير في حديقة مع حبيبها ليلا والثاني لزوجين قد تم زواجهما حديثا هبطا الى حجرتهما التي تبعث فيهما شعورا زاخرا بالسعادة حتى لندع الكتاب جانبا لنشعر شعورا أصدق بهذه السعادة. ولكن هناك دائما عنصر الخوف الذي يدفعنا الى الرغبة في الهرب - كما فعلت ماشا - من تحديق تولستوى فينا هل هذا هو الاحساس الذي يزعجنا في الحياة الحقيقية بأن مثل هذه السعادة - كما وصفها - من الدرجة بحيث لا تدوم ، احساس بأننا على حافة كارثة ؟ أو انها ليست هذه الدرجة من السعادة هي التي تعلقنا وتدفعنا لكي نتساءل مع بوزدنيشيف (١) في قصة كروتزسونا ولكن لماذا نعيش ؟ ان الحياة تسيطر على تولستوى كما تسيطر النفس البشرية على دوستوفيسكى فهناك دائما وسط أوراق الزهرة توجد العقربة أو السؤال لماذا نعيش ؟ وهناك دائما في قلب الكتاب يوجد أولينين أو بيير أو ليفين الذي يجمع في نفسه كل التجارب ويدير العالم بين أصابعه ولا يكف مطلقا عن التساؤل - حتى وهو يستمتع بها ما معنى الحياة ؟ وما هي أهدافنا ؟ انه ليس القسيس الذي يتحدث عن رغباتنا حديثا

مؤثرا وانما هو الرجل الذى يعرف تلك الرغبات وقد عشقها بنفسه
وعندما يسخر منها ، تصبح الدنيا بحق ترابا ورمادا تحت أقدامنا
وعلى ذلك يمتزج الخوف بسعادتنا ، ومن كتاب روسيا الثلاث العظام
نجد تولستوى أقدرهم على اثاره البهجة أو النفور فينا

ولكن يتشكل العقل ويتخذ لونه وميوله من البيئة التى ولد فيها
ومما لاشك فيه أنه عندما يضرب فى دروب أدب غريب مثل الأدب
الروسى فانه ينفصل عن مركزه ويهيم بعيدا عن الحقيقة

عمريات

أولا - الأنسة ميتفورد

حقيقة القول أن كتاب ماري راسل ميتفورد وما يحيط بها كتاب ليس بالجيد فهو لا يوسع المدارك ولا يطهر القلب . وليس به شيء عن رئيس الوزراء وأما ما يخص مس ميتفورد فهو ليس بالشئ الكثير وما دمتنا بصدد ذكر الحقائق فلا بد أن نعترف بأن هناك نوعا من الكتب يمكن قراءتها بغير تفكير لأنها لا تمس القلب ومع ذلك نقرأها بمتعة كبيرة ولندخل في الموضوع ان أكبر ميزة لمثل هذه الكتب التافهة - اذ أنه من الصعب تسميتها بالسير - أنها ترخيص بالافتراء والكذب فلا يمكن للمرء أن يصدق ما قالته الأنسة هيل عن الأنسة ميتفورد وعلى ذلك فالمرء في حل لأن يخلق أنسة ميتفورد من خياله . ولا نستطيع أن نتهم الأنسة هيل - ولو للحظة واحدة - بالافتراء . فرذيلة الكذب هذه تخصصنا نحن فقط . فمثلا : « كانت الريسفورد موطن ميلاد لشخص أحب الطبيعة بدرجة لم يعشقها مثله الا القليل وكنا نحس بكتابات هذا الشخص وهي تتنفس رائحة الدريس وشذى البراعم البرية ، ويبدو وكأنه يريد أن يهب علينا عبير حقول القمح الناضج على سنابله ورياض الأحقوان والحقيقة التي لا جدال فيها ان الأنسة ميتفورد ولدت في أريسفورد ومع ذلك عندما قيل لنا ذلك ساورنا الشك الشك حتى في أنها ولدت على الاطلاق . وتقول الأنسة هيل انها ولدت في ١٦ ديسمبر ١٧٨٧ وكان منزلها منزلا مريحا حقا » هكذا أخذت تكتب الأنسة ميتفورد حجرة الافطار كانت جناحا واسعا بالطابق الأعلى للمنزل » ثم يخبرنا الكتاب أن ميتفورد ولدت في حجرة الافطار حوالي الساعة الثامنة والنصف في صباح يوم كان يتساقط فيه الجليد أثناء تناول الدكتور قدحه الثالث من الشاي « لا تؤاخذني » قالت ذلك السيدة ميتفورد وقد امتقع لونها قليلا وبالرغم من ذلك لم

تنس أن تضع الكمية المناسبة من اللبن في فنجال زوجها « انى أحس » وهذه هى الطريقة التى بدأت بها سلسلة الأكاذيب لقد كان هناك شىء مقبول بل وينطوى على كرم النفس وهى تتناول الموضوع . فالملاحظة الخاصة باللبن مثلا يمكن أن نعتبرها ملاحظة تاريخية هامة اذ انه من المعلوم أنه عندما ربحت مارى عشرين ألفا من الجنيهات فى اليانصيب الايرلندى أنفقها الطبيب فى اقتناء الأوانى الخزفية ، ودمغت جميعها بالرقم الرابع وسط قيثارة ايرلندية وفى أعلاها نقش سلاح عائلة ميتفورد ويحيط بذلك كله شعار سيرجون برترام - أحد فرسان ويليام الفاتح والذى يدعى آل ميتفورد انهم انحدروا من سلالته - وتستمر الأكاذيب فتقول « يلاحظ فى أية حالة يتناول الطبيب قدح الشاي وكيف أن السيدة المسكينة تتمسك بأداب اللياقة وهى تغادر الغرفة » شاي ؟ انى أعجب أن يكون الطبيب - وهو ذو شخصية لطيفة - شديد الاحتقان ويزيد - كديك أحمر - من بين « كشكشة ركامة قميصه الأنيق » « ومادامت السيدات قد غادرت الغرفة » هكذا تستمر الأكاذيب فى سيل متصل الحلقات لتؤكد أن الدكتور ميتفورد يحتفظ لنفسه بمحظية فى ضواحي ريدنج ويدفع لها نقودا تحت ستار أنه يستثمر أمواله فى طريقة حديثة لاضاءة المنازل وتدفتتها اخترعها الماركيزدى شافان وتأتى فى النهاية الى نفس الشىء - الى مائدة الملك . ومعنى هذا انه بدلا من أن نتمكن من تذكر الارتباط الأدبى والتاريخى للمكان فان الأكاذيب تتجول وتنطلق من النافذة وتصرف فكرنا بملاحظة تافهة وهى أن الجلسيد كان لازال يتساقط وكان هناك شيئا ممتعا فى عاصفة ثلجية فى تلك الأيام الماضية . أما اليوم وكأنما تغير الطقس مثلما تغير الجنس البشرى على مر الأجيال تقريبا وكان ثلوج تلك الأيام كانت تحتفظ بأشكالها أكثر من ثلوج أيامنا أو أنها كانت على درجة كبيرة من الرقعة أكثر منها اليوم ، حتى البقر فى القرن الثامن عشر لم يعد يشبه بقرنا فيما كانت عليه من صحة وقوة فى عصر اليزابيث ولهذا قلما يتعرض الأدب فى أيامنا لمثل هذه الأمور ولم تعط العناية الكافية لهذه الظواهر فى الأدب

ربما يكون شبابنا النابه قد أتى امرا نكرا عندما جد فى البحث عن موضوع آخر بدلا من قصر موضوعات آداب اللغة لمدة سنة أو سنتين على البقر وعلى الثلوج وعلى زهر الأقحوان عند تشوسر وكوفنترى باتمور فالأدب القديم كان يدور حول الطبيعة بمظاهرها المختلفة فيتناول الكاتب وصف الثلوج وهى تتساقط بغزارة ، كما

يصف كيف أن عربة بريد بورتث موث ضلت طريقها ، وكيف غرقت بعض السفن وتحطم رصيف مارجيث عن آخره وفي هاتفيلد بغيرال دفنت عشرون شاة تحت عاصفة واستعانت احداها - لتقيم اودها - بأكل العشب الذى عثرت عليه قريبا منها ، وهناك سبب جدى يدعو المخوف بأن عربة الملك الفرنسى قد سدت الطريق الى كولشستر . هذه صورة من الأدب فى السادس عشر من شهر فبراير عام ١٨٠٨

مسكينة السيدة ميتفورد فمند واحد وعشرين عاما غادرت غرفة الافطار لتضع مولودها وحتى يومنا هذا لم نتلق أى خبر عن مولد طفلتها ان الأكاذيب لتتوارى قليلا خجلا من نفسها ، واذا التقطنا كتاب **مارى راسل ميتفورد وما يحيط بها** ، فانه يؤكد لنا أن كل شىء كان يمكن أن يكون بخير اذا ما كان لدينا شىء من الصبر فعربة الملك الفرنسى كانت فى طريقها الى بوكينج ، و فى بوكينج يقيم لورد تشارلس مورى ايفسلى وزوجته وأن لورد تشارلس شعر بالخجل . وهو دائما خجول . ففى ذات مرة عندما كانت مارى ميتفورد فى سن الخامسة وقبل فقد الخراف وقبل ذهاب الملك الفرنسى الى بوكينج بستة عشر عاما ، « وضعت مارى فى مأزق حرج وسببت له ارتباكا خطيرا عندما جرت نحو مقعده ظنا منها أنه مقعد والدى » فكان عليه ان يغادر الغرفة ولم تشأ الأنسة هيل ان تترك هذا الحادث يمر ، خاصة وقد سرها مجتمع لورد تشارلس وزوجته - على غير المؤلف - « راوية لحادث ذى صلة بهما وقع فى شهر فبراير عام ١٨٠٨ » ولكن هل للآنسة ميتفورد دخل فى ذلك ؟ اننا نتساءل لانه لا بد من وضع حد لهذه الخزعبلات ويمكن القول أن ليدى تشارلس كانت - فى حكم - عمه لال ميتفورد وأن لورد تشارلس كان خجولا . وأن الأكاذيب على أتم استعداد لأن تتناول « الحادث » ولو كانت على هذه الشروط ، ولكننا نكرر أننا سئمنا من الخزعبلات . وقد لا تكون الأنسة ميتفورد امرأة ذات شأن اذ ان كل ما تعلمه عنها أنها لم تكن حتى امرأة طيبة وانما علينا تبعات معينة - كمعقبين - ولن نتخلى عن تلك التبعات

وهناك - ولنبدأ بالأدب الانجليزى - احساس بجمال الطبيعة لم يغب على الاطلاق فمهما كثر ذكر البقر فى الشعر الانجليزى فانه قد يتغير من عصر الى عصر وبالرغم من ذلك فان الفرق بين بوب (١) وردزورث (٢) فى هذا المجال بين جدا وقد نشر كتاب **القصص**

Pope. (1)

Wordsworth. (2)

الشعرية الغنائية (١) في عام ١٧٩٨ وكتاب قريتنا (٢) في عام ١٨٢٤ والأول شعر والثاني نثر وليس هناك داع لأن نجهد أنفسنا لعقد مقارنة لن نسمل - على كل حال - على عناصر العدالة فضلا عن عدم شمولها لأصول كثيرة من المجلدات وفضلت الأنسة ميتفورد الريف على المدينة لأسلافها العظام ، وعلى ذلك ربما يكون من المناسب أن نتحدث قليلا عن ملك الساكسون وعن ماري آنينج وحيوان اکتیوسورس (٣) البحري المنقرض فما باننا نسمع ان لكل من ماري آنينج وماري ميتفورد اسما عاما أي لهما شهرة وهما أكثر من ذلك مرتبطتان بما يكاد أن يسمى بالحقيقة بل وربما يقال - بدون تردد - باحتمال الشهرة فقد كانت الأنسة ميتفورد تنقب عن الحفريات في لايم ريجيز منذ خمس عشرة سنة فقط قبل أن تعثر ماري آنينج على واحدة منها وفي عام ١٨٤٤ زار ملك الساكسون لايم وعندما رأى رأس اکتیوسورس في نافذة ماري آنينج طلب منها أن تسافر الى يني لتستكشف الصخور هناك وبينما هم ينقبون عن الحفريات جاءت امرأة مسنة وجلست في عربة الملك فهل كانت هذه المرأة ماري ميتفورد ؟ الحقيقة ترغمتنا على القول أنها لم تكن هي ولكن ما من شك - ونحن لا نهذي عندما نقول ذلك - أن ماري ميتفورد كانت كثيرا ما تؤكد أنها تتمنى أن تتعرف على ماري آنينج وأنه لمن سوء الحظ الغريب أن نقرر أنها لم تحقق تلك الأمنية على الاطلاق وذلك لأننا بلغنا عام ١٨٤٤ وبلغت حينئذ ماري ميتفورد السابعة والخمسين من عمرها وكل ما نعرفه عنها - وهنا يرجع الفضل للأكاذيب والتلفيق - أنها لم تكن تعرف ماري آنينج كما لم تعثر على الاکتیوسورس ولم تكن في العراق عندما فاجأتها العاصفة الثلجية، وأنها لم تر ملك فرنسا

ولقد حان الوقت لأن نعتصر عنق ماري ميتفورد ولنبدأ من البداية الأولى

ما هي الاعتبارات التي كانت تحملها الأنسة هيل في رأسها عندما قررت أن تكتب كتابها **ماري راسل ميتفورد ومايحيط بها ؟** هناك ثلاثة اعتبارات تنبثق من بين الاعتبارات الأخر والتي يمكن أن ينظر اليها على أنها أكثرها أهمية وأعلها شأنًا فالاعتبار الأول هو أن الأنسة ميتفورد كانت سيدة من النبلاء ، والثاني أنها ولدت في عام ١٧٨٧

Lyrical Ballads. (١)

Our Village. (٢)

Ichtyosaurus. (٣)

أما الاعتبار الثالث فهو أن عدد الشخصيات النسائية التي تستحق أن تؤرخ حياتها بمعرفة النساء من الكتاب ضئيل لسبب أو لآخر ومن أمثلة ذلك ان معلوماتنا عن سسافو (١) قليلة وحتى هذا القليل ليس في صالحها وليدى جين جراى (٢) سيدة لها قيمتها ولكن مما لا يمكن انكاره أنها كانت غامضة أما جورج ساند (٣) فانها كلما زادت معلوماتنا عنها اشتد نفورنا منها أما عن جورج اليوت (٤) فقد سبقت الى طريق الشيطان ولم تشفع لها فلسفتها أما الأخوات برونتى (٥) فعلى قدر ما نقدر عبقريتهن فانهن كن يفتقرن الى ذلك الشيء الذى لا يمكن تعريفه وهو الذى تتميز به المرأة وكانت هاريت مارتينو (٦) ملحدة أما اليزابيث باريت براوننج (٧) فقد كانت سيدة متزوجة كما سبق الكتابة عن جين أوستن (٨) وفانى بيرنى (٩) وماريا ايدجورث (١٠) وعلى ذلك لماذا كانت ماري راسل ميتفورد - لسبب أو لآخر - هى المرأة الوحيدة التى تركت دون أن يكتب عنها

ليس هناك داع لأن نجهد أنفسنا فى تحديد الأهمية العظمى للتاريخ عندما نقرأ كلمة « وما يحيط بها » على غلاف الكتاب فهذا الذى يحيط بها - كما أطلق عليه - انما هو عبارة عن الجو الرتيب المحيط بالأفراد خلال القرن الثامن عشر فعندما نصل - كما فعلنا بطبيعة الحال - الى العبارة التى تبين كيف أنه « عندما نظرنا الى السلالم التى توصلنا من الغرفة العليا الى أسفل يخيل الينا اننا رأينا أشكالا دقيقة تقفز من درجة الى أخرى » فانه يمكن أن يعتبر انه افتئات كبير على احساسنا اذا قيل لنا ان هذه الدرجات كانت على النمط اليونانى أو الاليزابيثى أو الفارسى اذ أنها كانت - بطبيعة الحال - درجات على نمط القرن الثامن عشر وهى تلك الدرجات التى

-
- | | |
|--------------------|------|
| Sappho. | (١) |
| Lady Jane Grey. | (٢) |
| George Sand. | (٣) |
| George Eliot. | (٤) |
| The Brontes. | (٥) |
| Harriet Martineau. | (٦) |
| Mrs. Browning. | (٧) |
| Jane Austen. | (٨) |
| Fanny Burney. | (٩) |
| Maria Edgeworth. | (١٠) |

تؤدي بنا من الحجرة العتيقة ذات الألواح الزجاجية الى الحديقة الوارفة حيث كان وليام بليت - كما كانت العادة - ينحت تماثيل الرخام ، أو - اذا كنا نريد أن نكون أكثر جرأة - نقول يؤدي هذا التدرج الى حيث يمكن أن يخيل الينا اننا نسمع في أيام الصيف الساكنة طبول بونابرت على الساحل الفرنسي وبونابرت هو نهاية المطاف على أحد الجانبين ، كما أن مون ماوث هو نهاية المطاف على الجانب الآخر وكان يمكن أن تكون الطامة الكبرى لو شطح بنا الخيال فيقال اننا كنا نلعب مع الأمير ألبرت أو نمارس الرياضة البدنية مع الملك جون ولكن للخيال حدود أو لسنا بحاجة الى أن نجهد أنفسنا في تحديد مكان هذا الخيال فهو خيال القرن الثامن عشر والوجه الآخر لهذا الخيال أشد غموضا ولا بد أن يكون أحد وجهي الخيال متعلق بسيدة ومع ذلك فان معنى ذلك - سواء قبلنا هذا المعنى أو لم نقبله - يمكن أن يبقى مشكوكا فيه فاذا ما قلنا ان جين أوستن كانت ليدي وأن شارلوت برونتي لم تكن كذلك فاننا نكون قد قدمنا ما فيه الكفاية في سبيل التعريف بهما ولا نربط أنفسنا بأى الجانبين ومما لا شك فيه أن بقاء الأتيسة هيل في عداد السيدات انما مرجعه الى سكوتتهن فهن يتنهدين بأشياء ويبتسمن لأشياء ولكنهن لا يمسكن بأرجل المنضدة الفضية على الاطلاق أو يقذفن بأقداح الشاي الى الأرض . وانه لمن المناسب جدا - من عدة وجوه - أن تتناول الأتيسة هيل موضوعا يمكن أن يدوم مدة طويلة دون أن تنبس ببنت شفة وان ستة عشر عاما لوقت طويل جدا ولكن بالنسبة لسيدة فانه يكفي القول « لقد أمضت الأتيسة متيفورد ستة عشر عاما من عمرها وعندئذ بدأت تتعلم وبدأت تعشق لا جمال الاراضى فحسب بل عشقت كذلك الدوران في الدروب ذات الظلال الوارفة في المنطقة المحيطة بها » ان حبها كان للخضر وكانت حوارى منطقتها وارفة الظلال ثم بعد ذلك تعلمت - بطبيعة الحال - في المدرسة حيث تعلمت جين أوستن والسيدة شروود من قبل وزادت لايم ريجز وهناك ورد ذكر كوب وشاهدت لندن من قمة سانت بول وكانت لندن أقل حجما في ذلك الوقت منها الآن وانتقلت من منزل أنيق الى منزل أنيق آخر ، ثم كان يتردد عليها نخبة كبيرة من رجال الادب اما للتحية واما لتناول الشاي وعندما انهار سقف حجرة الطعام لم يقع عليها ، وعندما حصلت على تذكرة يا نصيب ربحت الجائزة واذا كان في الجمل السابقة أية كلمات مركبة من أكثر من مقطعين

فمرد ذلك الى خطئنا نحن في التعبير وليس مرجع ذلك الى أسلوب
الآنسة هيل ولكي نعطي تلك الكاتبة حقها من الانصاف فليس في
الكتاب الكثير من الجمل المقتبسة من الآنسة ميتفورد أو التي عززها
مستر كريس كاتب سيرة الآنسة هيل

ولكن لأي مدى تكون الحياة أمرا خطيرا ! هل يمكن أن
يستوثق المرء من أن أي شيء ليس مصنوعا كلية من خشب الموجنا
يمكن أن يبقى الى ما لانهاية حتى ولو كان عاريا تحت الشمس ؟ وحتى
الدواليب لها مصادر سرية وعندما تلمس الآنسة هيل أحدها عن
غير قصد منها - ونحن متأكدون من ذلك - ينقلب هذا الدولاب -
وهذا أمر مروع - الى رجل ضخم مسن وهي تريد بذلك - بلغة
بسيطة - ان تبين أنه كان لمس ميتفورد أب وليس في ذلك شيء غير
سليم في الواقع فكثير من النساء كان لهن في يوم من الأيام آباء
وانما والد الآنسة ميتفورد كان موضوعا داخل دولاب وبمعنى
آخر تريد أن تقول أنه لم يكن أبا ظريفا ثم تذهب الآنسة هيل الى
أبعد من ذلك ففتخيل وقتما اضطر الجيران والأصدقاء الى تشييع
جنازته حتى مثواه الأخير فاننا لا نملك سوى الاعتقاد بأن هذا الواجب
قد قصد به مشاطرة الآنسة ميتفورد وتقديرها أكثر من تقدير
المشييعين للوالد « وعلى قدر ما ينطوي عليه هذا القول من حكم
قاس فان الرجل الشيخ النهم السكير المتدله في الحب لم يفعل شيئا
يستحق عليه التقدير وكلما قل الكلام عنه كان ذلك أفضل فمثلا
إذا كنت في المهد صبيا ثم يغامر أبوك ويضارب أولا بأموال والدتك
ثم بأموالك أنت ثم بعد ذلك ينفق دخلك ويدفعك الى المزيد من
الكسب لينفق كل هذا أيضا ، حتى إذا بلغ من الكبر عتيا استلقى
على أريكة وهو يقرر في اصرار أن الهواء النقي مفسد لبناته فاذا
ما وافته المنية بعد ذلك ترك ديونا لا يمكن سدادها الا ببيع شيء تملكه
أو بالتطفل على كرم الأصدقاء والاثقال عليهم هذا كان حال الآنسة
ميتفورد وهو أمر لا يطاق حتى ان المرأة - وقد فاض بها - ترفع
صوتها احتجاجا ولهذا صاحت الآنسة ميتفورد ذات مرة « انه لمحزن
أن يموت والدي فقد شقيت واجتهدت وذقت مرارة القلق في
الأعماق ، وانتابني الفزع وراودني الأمل كما يحدث كثيرا لأغلبية
النساء » . أي لغة هذه التي تستعملها « ليدي » هي - الى حد ما -

جميعا نجد أن الدارسين المتعمقين هم أكثرهم غموضا وأجدرهم بالاجلال . ولما كان اختلاطنا بهم وتغلغلنا في خصوصياتهم أو مشاهداتنا لهم عن كتب - اذ لا نراهم الا وهم يمرقون في ملابسهم السوداء داخل الفناء في الظلام - ولما كان اختلاطنا بهم أمرا بعيد المنال فان أفضل ما نفعله هو قراءة سيرهم ومن أمثلة ذلك حياة الدكتور بنتلى بقلم القس مونك

وفي هذا الكتاب ستطالعنا كثير من الغرائب وقليل من اليقين ان أعظم الدارسين عندنا لهو ذلك الرجل الذى يقرأ اليونانية كما يقرأ الانجليزية أعمق المتخصصين فيها قراءة ليست لمجرد الادراك الدقيق للمعنى وقواعد النحو فحسب وانما يقرأها باحساس مرهف وسعة أفق حتى ليدرك روابط اللغة وايماءاتها ويمكنه ذلك الاحساس وسعة الأفق من استنباط ما بين السطور التى طمسها انسيان كما يمكنه أيضا من بث روح جديدة فى تلك الحفريات الأثرية مثل هذا الرجل الذى غرق فى الجمال (اذا كان كل ما قيل عن اللغة القديمة حقا) هذا الرجل كان من المفروض أن ينبع الجمال منه وتصدر الرقة فى تصرفاته كما ينضح اناء العسل بالرحيق ولكن نجده على النقيض من ذلك أكثر المشاغبين من بنى جنسه .

كتب مؤرخ سيرته يقول « انى أعتقد أنه لا يوجد أعداد كثيرة لفرد كان طرفا فى ست قضايا بارزة أمام المحكمة العليا خلال سنوات ثلاث » كما أضاف الكاتب أن بنتلى كسب تلك القضايا جميعا وانه لمن العسير انكار ما انتهى اليه ذلك المؤرخ من أن دكتور بنتلى كان يمكن أن يكون محاميا من الدرجة الأولى أو رجلا عسكريا عظيما » وهذا الوصف يتلاءم مع أية شخصية أكثر مما يتفق مع قس مهيب متعلم «

ولم تثر كل هذه المنازعات كنتيجة لجهه للأدب وذلك لأن كل الادعاءات المقامة ضده ، والتي كان عليه الدفاع عن نفسه فيها ، كانت موجهة اليه كمدير كلية ترينتى بكمبريدج فقد اعتاد التغيب عن الكنيسة وكان اسرافه فى توسيع المباني وفى نفقات ادارة منزله باهظا جدا ، وكان يستعمل خاتم الكلية فى الاجتماعات التى لم يكتمل لها العدد القانونى وهو ستة عشر عضوا ، وهكذا وبالاختصار كان عمل مدير كلية ترينتى عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المخالفات والتحدى الذى كان الدكتور بنتلى يلجأ اليه فى مواجهة هيئة كلية ترينتى كما يعامل رجل كامل النمو ، طفلا لحوحا من السوقة من أطفال الشوارع . وهل كانوا - هيئة الكلية - يجراءون على مجرد التلميح بأن سلك المسكن الذى يسمح لمرور أربعة أشخاص واسع سعة أكثر من اللازم ؟

وهل يرفضون اعتماد نفقات بناء سلم جديد ؟ وقد اجتمع بهم ذات ليلة عقب الخروج من الكنيسة فتقدم يسألهم بظرف فرضوا اعتماد الميزانية وبينما تغير لونه وصوته فجأة توعدهم بنتلى « هل نسوا سيفه الصدى ؟ » وقد ضغط مستر ميشيل هاتشينسون وآخرون - من هؤلاء الذين أول ما يهوى سيف بنتلى فسوف يهوى بثقله على أعناقهم - ضغط هؤلاء على رؤسائهم ودفعت قائمة الحساب بمبلغ ٣٥٠ جنيها وبذلك ضمنوا ترقية لهم ولكن بنتلى لم ينتظر لانتهاء سلمه حتى يصدر قرار اعتماد الموافقة على النفقات

وهكذا سارت الأمور سنة بعد سنة ولم يشفع لسلوكه المتعجرف دائما عظمة الأشياء التي وضعها نصب أعينه أو منفعتها كإيجار الأراضي الشاسعة خلف كليات كمبريدج وإقامة المرصد وتأسيس المعمل وهناك كثير من الأشياء التافهة كان يحصل عليها بنفس الجبروت فأحيانا كان يحتاج الى الفحم وأحيانا الى الخبز والبيرة ، والى جانب ذلك كانت زوجة بنتلى ترسل خادمها بسلة المشتريات ومعه طلب رسمى وتحصل به من مخازن المأكولات والخمور على كميات كبيرة من هذه السلع - على نفقة الكلية - أكثر مما تتصور ادارة الكلية أن الدكتور بنتلى في حاجة اليه ومرة أخرى قبل إقامة أربعة طلاب في مسكنه وقد دفع له هؤلاء الطلاب نفقاتهم بسخاء نظير تلك الإقامة ومع ذلك فقد صرفت لهم الأطعمة من الكلية وخصما من صندوق المصروفات ولم يدفع الدكتور بنتلى ثمن تلك الأطعمة ان المشاعر الخاصة بالرقعة وبالاحساس الجميل التي كانت متوقعة من « بحثة عظيم غارق في الجمال مثله » كلها تبددت في الهواء ولم يقتنع الزملاء بالكلية بمناقشة الدكتور بنتلى حول ما اذا كانت « جراية الكلية القليلة » والتي كان يعيش عليها الطلاب الأربعة تساوى ما دفعه بسخاء على نفقته ثمننا للمزايح التي ركبها لثلاث نوافذ في حجرة هؤلاء الأربعة وفي يوم أحد في ترينتى عام ١٧١٩ تبين زملاؤه بالكلية أن بيرة الكلية ذات الشهرة لا يعجبهم مذاقها ولم يصدق الزملاء عندما أخبرهم الساقى أن البيرة قد صنعت بناء على أوامر المدير من شعير المدير الذي كان مشونا في مخازن غلاله وعلى الرغم من تلفه لاصابة الشعير «بالسوس» ومع ذلك فقد دفع في هذا الشعير الثمن الباهظ الذي طلبه المدير

ان تلك المشادة حول الخبز والبيرة مسائل تافهة عادية وانما الأدهى والأمر سلوكه في مهنته الذي يلقي كثيرا من الأضواء على ما نتحرى عنه لتخلص من الطوب والبناء ومن الخبز والبيرة ومن

الطلاب النبلاء ونوافذ حجرتهم ، وسنجد أنه قد توسع في جو هومر (١) وهوراس (٢) ومانيتوس (٣) وأثبت من دراساته أن الطبيعة السليمة لهذه القوى المؤثرة قد انتقلت إلينا عبر الأجيال ولكن الدليل كان ضعيفا بالنسبة للغات الميتة وقد برأ نفسه ببراعة - كما اتفق الجميع على ذلك - في المجادلة الكبرى حول خطابات فالاريس (٤). وكان مزاجه صافيا ودراسته عظيمة ولكن هذا النصر قد لحقته سلسلة من المنازعات التي أجبرتنا على الاطلاع على مشهد فريد لرجال العلم والحجى ، رجال الدين والنفوذ يتشاحنون حول النصوص اليونانية واللاتينية ثم يتقاذفون بالسباب ويتبادلون أقذع الشتائم كما يفعل رجال المراهقات في حلبة السباق أو الغسالات في الشوارع الخلفية هذه الحدة في الطباع والغل في اللغة لم تكن مقصورة على بنتلى وحده بل يبدو أنها للأسف كانت من مميزات المهنة بصفة عامة. وفي مستهل حياة بنتلى في عام ١٦٩١ اشتد في الحملة عليه أخوة القس هودى حول كتابة « ماليلاس » (٥) إذ كان هودى يرى ان تكتب « ماليلاس » بدون حرف السين ولهذا احتدم النقاش وفيه استعرض بنتلى العلم والحجما أما هودى فقد انهال بصفحات لا نهاية لها في نقاش لاذع مرير ضد حرف « س » الذي جاء في نهاية الكلمة وقد تعثر هودى حتى ان « هناك من الأسباب القوية ما تدعو الى الاعتقاد بأن الجرح الذي أحدثه هذا السبب التافه لم تندمل آثاره » وفي الحقيقة ان تصحيح سطر أدى الى تصدع الصداقة وقد هاجم « جيمس جرونوفوس (٦) » من « ليدين » (٧) الدكتور بنتلى إذ كان بنتلى قد سبق أن وصف جيمس بأنه « رجل تافه ، ومتوسط العلم ليس له نصيب من العبقرية » فهاجم جيمس بنتلى عشر سنوات لأن الأخير نجح في تصحيح قطعة أثرية من كاليماكس (٨) حيث فشل هو في ذلك

Homer.	(١)
Horace.	(٢)
Manitius.	(٣)
Phalaris.	(٤)
Malelas.	(٥)
James Gronovius.	(٦)
Leyden.	(٧)
Callimachus.	(٨)

ولكن جرونوفوس كان - بلا منازع - الباحث الوحيد الذي استاء من نجاح منافسه وامتلاً قلبه بالحق الذي لم تفلح الحكمة ولا أربعون سنة انقضت في تحرير الآداب القديمة في ازالة ذلك الحقد وفي كل المدن الكبيرة في أوربا عاش رجال أمثال الشرير دي بو (١) في أوترخت (٢) « شخص يعتبر حقا وباء وعارا على الكتابة » وهم الذين - اذا ما ظهرت نظرية جديدة أو طبعة جديدة - تكتلوا ليستهزئوا وليقللوا من شأن الباحث أو من قيمة النظرية وقد علق الأسقف مونك على دي بو « بأن كل كتاباته لا تدل على الصراحة أو حسن العقيدة أو طيب الخلق ولا يتمتع بأى احساس من احساسات الرجل المهذب وبينما هو يضم جميع المآخذ والصفات السيئة التي يمكن أن توجد في الناقد أو المعلق فهو يضيف على نفسه صفة غريبة وهي أن لديه ميلا دائما نحو التلميحات الفاضحة » وبمثل تلك الطبعات وتلك العادات فليس بمستغرب أن الباحثين في تلك الأيام كانوا أحيانا يضعون بأيديهم حدا لحياتهم التي جعلها الفقر والمرارة والاهمال لا تطاق فمثلا نجد جونسون - بعد أن قضى حياته في البحث عن الأخطاء الدقيقة في تكوين الكلمة - قد أصيب بالجنون ثم أغرق نفسه في المستنقعات بالقرب من نوتنجهام وفي ٢٠ مايو من عام ١٧١٧ روعت كلية ترينثي عندما اكتشفت أن الدكتور سايك أستاذ اللغة العبرية قد شنق نفسه « حوالى الغروب بأن علق رقبتة في أكرة شباك غرفته أمام ضوء الشمعة » وعندما توفي كاستر كان الاخطار في بادئ الأمر بأنه قتل نفسه وهذا صحيح الى حد ما « وذلك لأنه عندما شرحت الجثة وجد بها ترسيب من الرمل حول أسفل منطقة البطن واني أعلل ذلك بأنه كثيرا ما كان يجلس متربعا الى منضدة منخفضة يكتب عليها وعلى الأرض من حوله ثلاث حلقات أو أربع من الكتب وهذا هو الوضع الذي كنا نجده دائما عليه » كما حرفت آراء نظار المدارس المساكين مثل جون كير وهو من المدرسة المنشقة التي سبق أن نالت الحظوة الكبرى عندما تناولوا العشاء مع الدكتور بنتلي في مقره بالجامعة وذلك عندما جرى الحديث عن استعمال كلمة الرشوة . حرفت آراؤهم التي انتهوا اليها خلال فترة طويلة من الدراسة وأهملت شئونهم حتى انهم عادوا الى منازلهم وجمعوا كل

(١) de Pauw.

(٢) Utrecht.

استعمالات كلمة الرشوة وكانت آراءهم تتعارض مع رأى الدكتور ولما رجعوا الى مقر الدكتور كانوا يتوقعون فى بساطة استقبالا حارا ولكن الدكتور قابلهم وأعلنهم انه ذاهب للعشاء مع أسقف كانتريرى فتابعوه الى الطريق على الرغم من عدم اكترائه ونفاذ صبره وبدون أى كئمة وداع عادوا الى منازلهم ليفكروا من خلال ما لحق بهم من أهانات ولينتظروا يوم الانتقام

ولكن انتفاضات هؤلاء الصغار وأحقادهم ضخمها الدكتور نفسه ولم يزلها أو يمحقها خلال سلوكه فى أموره الخاصة فقد اختفت المجاملة والخلق الكريم اللذان كان الدكتور بنتلى يظهرهما أثناء مناقشاته فى بادىء الأمر « أسلوب من الكراهية الشائرة والسخط الذى لا حدود له خلال أعوام كثيرة ، كل ذلك قد أفسد كلا من ذوقه وحكمه على الأمور فى المناقشات » وقد ارتضى - على الرغم من أن موضوع المناقشة كان العصر اليونانى - أن يصف خصمه بأنه « دودة ، حشرة من الهوام » « فأر قارض » « ورأس فارغة » ويشير بذلك الى بشرته الداكنة كما يلوح بذلك الى أن ذكائه به لوثة وكان يدل على ذلك بالواقعة التى ظلت مسيطرة عليه وهى أن أخاه - وهو قسيس - كانت له لحية تصل الى وسطه

ظل الدكتور بنتلى - وهو العنيف والمحب للنزال وغير المكترث - يحيا ويتغلب على العواصف والهزات كما بقى معلقا بدرجاته محروما من الماجستير - قابعا رابط الجأش فى مسكن الجامعة ويضع على رأسه قبعة مظلتها عريضة داخل المنزل لتحمى عينيه ويدخن غليونونه ويستمتع بقيافته مفسرا لأصدقائه ميثاقه فى علم اللغة عاش بنتلى تلك السنوات الثمانين وهى التى وصفها بأنها كانت طويلة بحيث تكفى « قراءة كل ما يستحق القراءة » ثم أضاف على طريقته الخاصة « وهكذا فأنا عظيم من قبل أن يدركنى الموت »

ان حجرا صغيرا مربعا يشير الى مقبرته فى كلية ترينتى ولكن الزملاء رفضوا أن يسجلوا عليها الحقيقة وهى أنه كان رئيسا عليهم

ولكن أغرب عبارة فى هذه القصة الغريبة والتى يمكن اضافتها وهى التى كتبها الأسقف مونك كما لو كانت مكانا طبيعيا لا يحتاج الى تعليق « الى انسان لم يكن شاعرا وليس لديه احساس شاعرى ومع ذلك يخوض هذا الميدان ان هذا لا يمكن أن يكون افتراء أو ضربا من

التخمين « وكان الهدف هو نصير كل هفوة في اللغة في قصيدة الجنة المفقودة وجميع الأمثلة الدالة على الذوق المريض والوصف غير السليم وكانت النتيجة على حالة يرثى لها ومع ذلك فلنا أن نتساءل كيف اختلفت تلك النتيجة عما انتهى اليه الدكتور بنتلى بتبرئته نفسه بمقدرة فائقة ؟ ولو كان بنتلى غير قادر على تذوق شعر ميلتون فكيف نتقبل حكمه على هوراس وهرمر ؟ واذا كنا لا نملك أن نثق ضمنا بطلاب العلم ، واذا لم يكن من شأن دراسته اليونانية أن تهذب الأخلاق وتطهر الروح فان هذا كثير لقد عاد طالب العلم من « هول » وأضاء مصباحه واستأنف دراساته ، وحن الوقت لأن نضع حدا لتأملاتنا الدنيا الى جانب أن كل هذا قد وقع منذ سنوات كثيرة مضت .

ثالثا - السيدة دوروثي نيفيل

مكثت في حالة من التواضع لمدة أسبوع في قصر من قصور الدوقة وشاهدت أفواجا من علية القوم من ذوى النياشين يهبطون الى الطعام أزواجا ويصعدون الى النوم أزواجا وقد راقبت الدوق بنفسه في إحدى القاعات وهو يتظاهر بتنظيف القطع الدقيقة فى الدواليب الزجاجية بينما تترك الدوقة ابرة الكروشيه تسقط من بين أناملها وكأنها لا تصدق على الاطلاق أن العالم فى حاجة الى أشغال الكروشيه

وقد رأت السيدة دوروثي من نافذة علوية وعلى مدى ما تستطيع أن تدركه العين طرقا مرصوفة بالحصى تدور حول جزء سندنسى ثم تختفى داخل أحراش صغيرة نسفت لتكون وارفة الظلال بدرجة أخف من الغابات الكثيفة كما راقبت عربة الدوق وهى تطوى الأرض لتختفى داخل هذا المنظر ثم تخرج منه ثم تعود متخذة لنفسها طريقا آخر غير الطريق الذى سلكته فى ذهابها وماذا كان حكمها ؟ « مستشفى المجاذيب » .

حقا انها كانت وصيفة سيدة ولو تلاقى السيدة دوروثي نيفيل معها على السلم لانتهزت الفرصة لى تبين أن هذا أمر يختلف تمام الاختلاف عن أن تكون سيدة (١)

« لم تخفق والدتي مطلقا فى أن تشير الى حماقة النساء
العاملات والبائعات وأمثالهن وجهلن عندما يطلقن على أنفسهن
« سيدات » كل هذه الآمور تبدو لها مجرد خداع مبتذل ، ولم
تمل أن تردد ذلك دائما »

ماذا يمكن أن تظهره للسيدة دوروثى نيفيل انها على الرغم من
المميزات التى تتمتع بها فانها لم تتعلم مطلقا كيف تكتب ، فهى لا تستطيع
أن تكتب جملة سليمة من ناحية النحو والصرف ، وهى قد عاشت سبعة
وثمانين عاما ولم تفعل خلالها شيئا سوى أن تملأ جوفها بالطعام وأن
ينساب الذهب من بين أصابعها ، ولكن على الرغم من أن السخط يكون
أمرا مقبولا اذا ما كان فى موضعه الصحيح فانه يكون ضربا من الخلط اذا
وافقنا وصيفة السيدة الى ما ذهبت اليه من أن الميلاد بين علية القوم انما
هو صورة من تجانس الجنون وفيه يرث المعذب امراض أسلافه ويتحملهم
فى أغلب الوقت بغير اكتراث ذلك لأن هذا التحمل انما يتم فى واحدة
من تلك المصححات العقلية ذات الجدران المبطنة التى تلتقب تجاوزا بسرايات
انجلترا

وفضلا عن ذلك فان آل ويلبول ليسوا من طبقة الدوقة فام
هوراس والبول كانت الآنسة شورتر وليس هناك أية اشارة الى أم
السيدة دوروثى فى المجلد الحالى ، ولكن جدة جدتها كانت السيدة أولدفيل
المثلة والتى اليها يرجع السبب فى تفاخر السيدة دوروثى وهكذا لم
يكن الموضوع أرسقراطية فى أجلى صورها ولم تكن منطلقة بل كانت
سجينة فيما هو أشبه بقفص العصافير منه بمستشفى الأمراض العقلية
ومن خلال قضبان ذلك القفص كانت ترى الناس يغدون ويروحون فى حرية
وقد انطلقت مرة أو مرتين انطلاقة وجيزة ومدهشة تنسمت فيها نسيج
الحرية ولم يكن يوجد من بين نزلاء ذلك القفص من هم أكثر منها مرحا
أو بهجة وكانت سعادتها بدرجة تدفع الى التساؤل - أحيانا - عما اذا
كانت مثل هذه الحياة المقيدة هى المصير المحتوم الذى يختاره العقلاء الذين
قضى عليهم أن يعيشوا فى مكان منعزل على الأرض فالحرية والانطلاق
بالنسبة لها معناهما التشرذم ومعنى ذلك أن هذه الحياة المترفة لا يستطيع
أن يعيشها انسان من الكادحين الا اذا قضى عمره يجمع المال حتى اذا تم
له ذلك لا يجد بعد ذلك الوقت لكى يستمتع بمباهج الحياة التى تغرق
فيها السيدة دوروثى ومثيلاتها والتى تهيأت لها منذ الصبا • فلقد تفتحت
عينا السيدة دوروثى على هذا المكان البهيج تفتحت عيناها عام ١٨٢٦
ع. ١١ ميدان بركل حيث عاش الروائى الشهر ويلبول وكان هذا
المكان قد قامر عليه والدها اللورد أورفورد ذات ليلة وخسره وذلك بعد

سنة من ميلادها وعلى ذلك عاشت في ولتركون هول في نورفولك الذي كان يزخر بالنقوش والتحف بينما تفتقر حديقته الى الأشجار وان كانت تضم مرجة رحبة ذاعت شهرتها ولم يكن هناك روائي يطمع في أكثر من هذا الجو الشعري البهيج لينسج قصة فتاتين صغيرتين ترعرعتا - في مكان موحش منعزل وهما تقرأن للكاتب بوسويه (١) مع مربيتهما وتركبان حصانيهما الصغيرين عند أول الضيعة في يوم جميل وما من أحد بمستطيع أن ينكر أنه اذا كان مثل كاتب الخطاب التالي ضمن أسلافه فان هذا يكون - في الواقع - مصدر كبرياء منقطع النظير . هذا الخطاب موجه الى جمعية الانجيل في نورويش عندما دعت لورد أورفورد لأن يكون رئيسها

« لقد امتزج القمار بدمى وانجرفت أخيرا في مراهنات السباق وأخشى أننى أصبحت كثيرا ما أكفر بالله ولم أوزع نشرات دينية على الاطلاق وكل هذه الآثام معلومة لكم وعلى الرغم من ذلك ترون أننى أصلح لرئاسة جمعيتكم ! عفا الله عن نفاقكم »

ولم يكن اللورد أورفورد هو الذي يعيش داخل القفص في هذه المناسبة بل للأسف كان اللورد أورفورد يمتلك منزلا ريفيا آخر هو السنجتون هول في مقاطعة دورشستر وهناك أعجبت السيدة دورودثي بشجرة التوت أول الأمر ثم تعلقت فيما بعد بالمستر توماس هاردي الكاتب المشهور ؛ ومن هنا بدأنا نشعر بوجود قضبان القفص في حياة السيدة دوروثي ونحن لا نزعم ان خيالها نشيط ازاء بيوت البحارة بصفة عامة ، فمما لا شك فيه أن أشجار التوت وهي باسقة تبدو أكثر جمالا من تلك البيوت ؛ ولكن عندما تصل الحالة الى دعوة المخربين الى اقتلاع تلك الأشجار ليبنوا بيوتا لهم ويصنعوا منها مساند لأقدامهم وينقشوا على تلك المساند من الحروف ما يفيد أن الملك جورج الثالث قد تناول أقدم الشاي وهو يريح أقدامه على تلك المساند ، عندئذ يحق لنا أن نعترض « انك طبعا تقصدان شكسبير وليس الملك جورج الثالث ؟ » ولكن ملاحظاتها المتتابعة عن مستر هاردي تؤكد أن السيدة دوروثي لم تكن تعنى شكسبير انها تقدر بحماس أعمال هاردي ولذا دأبت تشكو « ان عائلات الريف من الغباء بحيث لا يقدرون عبقريته بما

Bossuet. (1)

هي أهل له ، تناول الملك جورج الثالث أقدم الشاي تهاون عائلات
الريف في تقدير هاردي فهل بعد مثل هذا القول يبقى شك في أن
السيدة دوروثي كانت تعيش وراء القضبان !؟

لم تصور أية قصة ذلك الحاجز الذي قام حائلا بين السيدة دوروثي
وبين العالم الخارجي مثلما صورته قصة شارلس داروين والبطاطين ومن
بين هوايات السيدة دوروثي ظهرت هواية زراعة زهرة الأوركيد ، وبذلك
توطدت علاقاتها بعالم التاريخ الطبيعي العظيم ثم دعته زوجة داروين
الى البقاء معهم فلمحت ببساطة واضحة الى أن الذين اندمجوا في
مجتمعات لندن يعشقون العظمة ويرفلون في ثياب الرفاهية ولذا
أخبرتها في نهاية خطاب الدعوة بأنها تخشى ألا تستطيع أن تهىء لها بعضا
من هذا النعيم والرفاهية ولكن هل تداولت زوجة داروين حقيقة هذا
الأمر مع زوجها وتناقشا سويا في مدى امكان توفير أسباب الرفاهية
للسيدة دوروثي أو أنها أدركت التفاوت بين السيدة وبين زوجها فهذا
ما لا نعرفه وانما لدينا احساس باصطدام عالمين وأن عالم داروين لم
يكن هو الذي تحطم الى شظايا وكلما ازددنا في دراسة السيدة
دوروثي وجدناها تقفز بين النبات تلتقط بعض الجذور من هنا وبعض
الأعشاب من هناك ثم تنطلق بالغناء بصوت مرتعش ثم هي تصلح
من شأن صوتها بقطعة من السكر في قفص كبير في الهواء الطلق قد أحسن
تجهيزه ان ذلك القفص مليء بمتناقضات لطيفة فهي تارة تزين أوراق
الشجر التي تمزقت اربا وتارة أخرى تسلي نفسها في تحسين نسل
الحمير ثم بعد ذلك تهتم بتربية دودة القز وكأنها تحاول أن تهدد
أستراليا بطاعون الديدان « وهي في الواقع قد نجحت في ذلك فحصلت
على كمية من الحرير تكفى لعمل ثوب » ، ومرة أخرى فهي التي اكتشفت
تلك الغابة التي خوت على عروشها والتي كان يمكن - مع بعض النفقات -
أن تصنع منها صناديق صغيرة ثم اتجهت الى مشكلة الفطريات وأبانت
فضائل الفطر الأرضي الانجليزي الذي لم يحظ بأى اهتمام ثم اذا بها
تستورد سمكة من النوع النادر وتبذل جهدا كبيرا بدون جدوى محاولة
بذلك أن تربي في ساسكس طائر اللقلق والغرابيب ذات الارجل الحمراء ،
ثم هوت النقش على الخبز ، كما رصعت الاسلحة القديمة وأخيرا ركبت
صفارات في ذبول الحمام فكان لذلك أثره الغريب عندما ينطلق الحمام
في الهواء « اذ بدا وكأنه فرقة موسيقية هوائية » . ويرجع الفضل في
كشف الطريقة المثلى لطهو الفيران الرومية الى دوقة سومرسييت . وانما

كانت السيدة دوروثي هي أول من قدم طبقا يحتوى على تلك المخلوقات الصغيرة فى وجبة الغداء فى شارع شارلس

كان باب القفص مفتوحا على مصراعيه طوال الوقت وكان يأوى اليه الكثيرون ، مما رفع السيد نيفيل الى أن يطلق على القفص « بوهيميا الراقية » وفيها تجمع لدى السيدة دوروثي « المؤلفون والصحفيون والممثلون والممثلات وغيرهم من الشخصيات المرحة اللطيفة » وتحقق حلم السيدة دوروثي بما وقع بالفعل فلم يسيء أحد منهم التصرف وقد سلم بعضهم بالفعل فكتب اليها بالتالى خطابات تعترف بالجميل « ولكن كانت السيدة دوروثي تهرب من قفصها مرة أو مرتين بنفسها « ان هؤلاء الطغمة – وكانت تقصد بذلك الطبقة المتوسطة – « على جانب كبير من الذكاء بينما نتمتع نحن بالغباء فانظر كيف يحسنون تعليم أبنائهم بينما أبنائنا لا يتعلمون سوى كيف ينفقون أموال آبائهم ! انها تعتمد على الواقع وان هناك أمرا يسير فى اتجاه خاطئ كانت من الذكاء ومن الامانة بحيث لا تلقى نكل اللوم على الطبقة التى تنتمى اليها انى أعتقد أنها لا تكاد تستطيع القراءة » قالت ذلك وهى فى معرض الحديث عن سيدة تدعى أنها مثقفة وقالت عن أخرى « انها فى الواقع فضولية ولديها استعداد طيب لكى تفتح محلا للبيع وانما فى اعتقادنا أن هربها المتميز من ذلك القفص حدث خلال السنة أو السنتين السابقتين على وفاتها وذلك فى متحف فيكتوريا وألبرت اذ كتبت تقول

« انى لأتفق معك وان كان لا ينبغى لى أن أقول ذلك فان الطبقة الراقية ولا أدري ماذا أقول – تبدو أنها لا تهتم بشيء سوى لعب الجولف وما أشبه ذلك فقد كنت ذات يوم فى متحف فيكتوريا والبرت ولم يكن موجودا به الا نفر قليل من الناس – وأنا على يقين من أنهم يبدون من التفاهة بدرجة يصعب فيها أن تكون لهم روح أو أجساد وقد خفف من وقع هذا المنظر على ناظرى صبيان صغيران ينكبان على قطعة بالمتحف بالدراسة فى كتاب صغير أجسامنا – من غير شك – تقهقه وترنو الى لا شيء ومما يزيد الطين بلة أنه لم يكن موجودا انسان واحد من الطبقة الراقية والحقيقة المرة أنى لم أسمع عن واحد منهم يعرف شيئا عن هذا المكان الذى ننفق عليه الملايين ، ان هذا الامر مؤلم للغاية

لقد كان فعلا أمرا غاية في الأذى ذلك الذى شعرت به السيدة دوروثى ودار فى مخيلتها لقد تفادت الكارثة فمن كان بمسطيع أن يذبح حمامة تحمل فى ذيلها صفارة ؟ وانما اذا كان القفص بأكمله قد تغير وتبدل وأرسلت الفرقة الموسيقية الهوائية أنغامها على متن الأثير فاننا كنا على يقين - كما قال لها جوزيف تشمبرلن - من أن سلوكها كان من الممكن أن يكون « رصيذا للطبقة الأرستقراطية البريطانية »

أرباع - رئيس الأساقفة طومسون

ان أصل رئيس الأساقفة طومسون غامض ويمكن القول بأن عم والده كان ينتمى الى الطبقات المتوسطة وتزوجت عمته من رجل كان حاضرا مقتل جوستاف الثالث ملك السويد وقد وافت المنية والده وهو فى السابعة والثمانين عندما وطأت قدمه قطة فى الساعات الأولى من الصباح . ان قوة والده الجسمية التى تصفها هذه القصة امتزجت بالقدرات العقلية التى كان يتمتع بها ابنة رئيس الأساقفة ولذا كان النجاح حليفه فى أية مهنة يلتحق بها . فى أكسفورد كان يبدو وكأنه قد وهب نفسه للعلم أو للفلسفة وفى ذلك الوقت كان يستعد لاعداد رسالة لنيل درجة علمية ووجد متسعا من الوقت لكى يكتب معالم القوانين الفكرية « وسرعان ما اعتبر هذا الكتاب من الكتب العلمية الدراسية فى أكسفورد وعلى الرغم من اغراءات الشعر والفلسفة والطب والقانون فقد نحى أفكاره جانبا ولم يرفه عن هذه الافكار بأن نهل من هذه العلوم لأنه كان قد وطد العزم على أن يهب نفسه للرب وللطقوس المقدسة ومعيار نجاحه فى هذا المجال العظيم انما تقرره وتدل عليه الوقائع التائية كرس شماسا فى عام ١٨٤٢ عندما كان عمره ٢٣ سنة ، وأصبح عميدا ثم أمينا لصندوق كلية الملكة بأكسفورد فى عام ١٨٤٥ ثم نصب أسقف جلوسستر عام ١٨٥٥ ثم أسقف بريستول عام ١٨٦١ ثم رئيسا للأساقفة فى يورك عام ١٨٦٢ وبذلك له نكد يبلغ ثلاثة وأربعين عاما حتى وصل الى المرتبة التالية لأسقف كاتربرى نفسها وكان من الطبيعى - وهذا غير صحيح - أن يفكر أنه سوف يحصل فى النهاية على هذا الشرف وينصب أسقفا لكاتربرى .

قد تقرأ تلك القائمة - قائمة الوظائف - فتمتلىء نفسك أما بالاحترام أو بالضيق والضجر - فهذه مسألة مزاج وايمان وبذلك قد

ننظر الى قبعة رئيس الاساقفة وكأنها تاج ملك أو مضخة اطفاء فاذا كنت مثل نقاد العصر الحاضر فانك على استعداد لأن تؤمن ببساطة بأن المظهر انما ينم عن المخبر . وأن القسيس انما هو رجل فاضل ، رجل يحمى الفضيلة والشريعة وقياسا على ذلك فان رئيس الاساقفة يكون بالتالى قد تركزت فيه الفضائل والخير والطيبة وانك حين تدرس حياة رئيس الاساقفة فانك ستجد هذه الحياة مثيرة للغاية فهو قد تحول عن الشعر والفلسفة والقانون وتخصص فى الفضيلة وان قدرته الروحية من العلو بمكان حتى انه تدرج من شماس الى عميد ومن عميد الى مطران ومن مطران الى أسقف خلال عشرين عاما وهى فترة وجيزة . ولما كان لا يوجد فى انجلترا الا اثنين من الأساقفة فقد ترتب على ذلك أنه كان أفضل رجل ثان فى هذا الشأن فى انجلترا وفى قبعته الدليل على ذلك (١) وحتى فى الواقع المادى الملموس كانت قبعته فعلا احدى القبعات الكبرى فقد كانت أكبر من قبعة جلادستون وأكبر من قبعة تاكرى وديكنز ولقد كانت قبعته - فى الواقع وكما أخبره صانع القبعات ونحن نوافقه على ذلك - بارتفاع ثمانى بوصات ورغم أنه بدأ كما يبدأ غيره من الرجال فانه وصل الى هذه المكانة ولقد ضرب أحد طلاب الجامعة وهو فى ثورة غضبه فأبعد عن الجامعة ثم نشر كتابا مدرسيا فى علم المنطق وأدلى بدلوه فأحسن الادلاء ولكنه بعد أن عين فى الجامعة كشفت مذكراته أن عملية التخصص قد بدأت تكشف عن نفسها وبدأ يتأمل كثيرا فى حالته الروحية ، ففكر فى اصلاح الكنيسة وفى معنى المسيحية - وانتهى به التفكير الى أن انكار الذات هو الأساس فى الدين المسيحى والأخلاق المسيحية وأن أسمى مراتب الذكاء هى تلك التى تحقق وتنمى أنكار الذات هذه وعلى ذلك (بعكس كوزن) (٢) فأننى أتمسك بهذا الدين لأنه أسمى مكانة من الفلسفة « وهناك اشارة واحدة الى الكيمياء وأنابيب الاختبار ولكن العلم والفلسفة حتى فى هذه المرحلة المبكرة كانا فى خطر أن يضيعا فى الزحام وسرعان ما اتخذت اليوميات طابعا مغايرا « ويبدو » كما قال المؤرخ « أنه لم يكن لديه وقت ليسجل أفكاره على الورق ؛ اذ كان يسجل مواعيده فقط . وكان يتناول عشاءه فى الخارج معظم الأمسيات وقد وصفه سير هفرى تيلور الذى قابله ذات ليلة فى إحدى هذه الولائم

(١) ويقصد بهذا التعبير ماتحويه هذه الرأس من معلومات وآراء وأنكار

(الترجمة)

(٢) Cousin.

بقوله « بسيط - صارم - طيب - كفؤ - لطيف » وربما كانت هذه الصرامة ممتزجة بتلك الطريقة من التفكير العلمى البحت وظرفه الى جانب ضخامة جسمه ربما كان كل ذلك اسببا فى التأثير على هؤلاء العلية من القوم لأن يثقوا فيه لدرجة أن تجد الكنيسة فيه شخصية لا غنى عنها ويبدو أن منطقته القوى وهيئته المهيبه جعلاه يتمسك - كواجب يفرض عليه بشدة - بأن يلائم ويوفق بين اكتشافات العصر العلميه وبين الدين بل ويبرهن على أن « بعض تلك الاكتشافات دليل قوى فى ذاته على الحقيقة » فان كان أحد بمستطيع ذلك ، فان طوسون أقدر منه ، فكفاءته العلميه التى لا يحده منها أى انحراف خاطيء أو شطط خيالى قد فرضت نفسها على سلوكه فى تصريف الأمور فى كليته فمن قسيس أصبح فى الحال فى حكم رئيس الأساقفة ولكونه رئيسا للأساقفة فقد أمس رئيس أساقفة انجلترا ومحافظا لقلم المعاشات فى كلية الملك بلندن وراعيا لمائة وعشرين يعيشون مع رئيس شمامسة يورك ، وكان المتصرف فى كليفلاند وايسر رايدنج وكانون ريزوبر بيندز فى مقاطعة يورك ودار الابراشيه نفسها كانت قصرا منيفا ، وقد واجهته فى الحال « مشكلة معقدة » وهى هل يشتري كل الأثاث الذى كان أغلبه وضيعا أم يؤثث المكان من جديد وفى هذا تحميل بنفقات لا قبل له بها فضلا عن ذلك كان بالحديقه الملحقه سبع بقرات - وهذه البقرات لا تكلف الابراشيه شيئا اذ يصرف عليها ما يدفعه آباء تسعة أطفال فى الحضانه يتغذون على ألبانها ثم حضر أمير مقاطعة ويلز وأميرتها للاقامة فأخذ رئيس الأساقفة على عاتقه تأثيث جناح الأميرة فقصد لندن واشترى ثمانية مصابيح وحاملين للشموع على شكل تمثالين أسبانيين ولم ينس ضرورة شراء صابون للأميرة، ولكن انبثقت أمور على جانب كبير من الأهمية اقتضت منه استعمال كل طاقة من طاقاته فقد أشير عليه أن أحسن استعمال سلاح منطقتك القوى فى مواجهة السفسطائين » من مؤلفى « مقالات وآراء » وقد استجاب لهذه المشورة فى كتاب سماه « عون على الايمان » وكانت مدينة شيفيلد - التى تزخر بعدد كبير من أنصاف المتعلمين من العمال - مرتعا خصبا للريبة والتذمر فحمل رئيس الأساقفة هذه المهمة على عاتقه اذ كان مغرما بالنزال والنضال وقرع الحجة بالحجة • فعقد عدة اجتماعات للعمال وخطب فيهم ما هذا الذى يطلقون عليه الاباحية والاشتراكية والشيوعية وثوار ايرلنده والجمعيات السرية ما معنى هذه المسميات ؟ واستطرد مجيبا على تساؤله « الانانية وسيطرة الطبقة الدنيا على المجموع » • ثم قال « ان هناك قانونا طبعنا بمقتضاه تتفاوت الطبقات تبعا لتفاوت الأجور ويجب عليكم أن تتقبلوا الهبوط كما تفرحون بالصعود اننا

اذا تمكنا من ايجاد الشعب الذى يفهم هذا سار كل شىء على ما يرام فى سهولة ويسر « وقد استجاب عمال شيفيلد لهذا النداء بأن قدموا خمسمائة قطعة من فضيات الطعام ذات قشرة من الفضة الصافية ومن المحتمل أن يكون هناك عدد من السكاكين بين الملاعق والشوك

لقد كان الأسقف « كولنصوه » أكثر مشاغبة من عمال شيفيلد ودأب قارىء الطقوس على اغاظته حتى ان قوته المفرطة بدأت تحس وطأة الاثارة . ان الاستفهامات التى عزيت اليه كانت غريبة فى تلفيقها وقصد منها اثارة رجل على هذه الضخامة وفى مثل هذا المركز ومضايقته ومن هذه الاستفهامات هل تجوز اقامة مراسم الدفن لرجل سكير وجد ميتا فى حفرة أو تقام تلك المراسم لرجل سارق قد سقط فى منور المنزل الذى سطا عليه ؟ وهل تضاء له الشموع ويرتدى القساوسة أرديتهم الملونة ؟ وهل تدار كؤوس العشاء الربانى ؟ وفى كل هذا تكبيد للنفقات لا قبل له بها وفى النهاية يقوم الأب جون بيرشيس وهو يرتدى رداءه الأبيض وقبعة الكاهن والشال ثم يشعل الشموع ثم يطفئها لغير « ما سبب » ويملا الاناء بمسحوق أسود ويعفر جباه رفاقه ثم يضع فوق « المنضدة المقدسة » تمثالا أو صورة أو حمامة محنطة فى وضع طائر « لقد ألم كل ذلك رئيس الأساقفة ذا الطباع الهادئة والرابطة الجأش وتساءل « هل سيأتى ذلك اليوم الذى يسود فيه الاعتقاد بأن الجريمة تثقل على كنيسة انجلترا التى تعتبر رمزا لكل ما هو معقول فى الدولة ؟ انى أعتقد انه سيأتى ذلك اليوم ولكن لن أراه ، فلقد قمت بالكثير ولست نادما على ما أديت وقمت به بكل ما فى وسعى » . واذا كان رئيس الاساقفة نفسه قد راوده هذا التساؤل فاننا لا بد وأن نعترف بأن الحالة كانت محيرة للغاية وما الذى انتهى اليه رجلنا المختار هذا ؟ لقد أصبح حائرا وأسقط فى يده انه يقضى وقته فى اثاره الأسئلة حول الحمام المحنط وملابس النساء الداخلية الملونة وكان أحيانا يكتب ماينيف على الثمانين خطابا قبل أن يتناول الافطار وقليل ما كان يجد متسعا من الوقت ليطير الى باريس ليشتري قبعة لابنته وفى النهاية يسأل نفسه هل سيعتبر مسلكه هذا جريمة فى يوم من الأيام ؟

هل يعد هذا السلوك جريمة ؟ واذا عد كذلك ، فهل كان هذا خطأ منه ؟ ألم يبدأ بالايمان بأن للمسيحية علاقة بانكار الذات أو لم يكن هذا أمرا بديهيا ؟ واذا كان التكريم والالتزامات والأبهة والعظمة وحب الاقتناء قد تجمعت جميعها وأحاطت به فكيف يتسنى له وهو رئيس

الاساقفة - أن يرفض قبولها ؟ فالأميرات لا بد أن يحصلن على الصابون الخاص بهن ، والقصور لا بد وأن تزود بالرياش ، والأطفال لا بد أن تربي لهم البقرات . وعلى الرغم مما يبدو على هذه الحياة من تراحم فانه لم يفقد كلية تعلقه واهتمامه بالعلم وكان متطورا فقد وضع على نفسه مقياس المسافات الذى يعد الخطوات وكان واحدا من الأوائل الذين بادروا باستعمال آلات التصوير ، وكان يؤمن بمستقبل الآلة الكاتبة وفى السنوات الأخيرة من عمره حاول اصلاح ساعة مكسورة وكان والدا لطيفا كذلك . كتب خطابات رشيقة تنم عن الذكاء والفكر العميق وكانت حكاياته الجميلة فى الصميم وبعد ذلك انطفأت شعلته ولقى ربه وهو قائم يعمل

حقا لقد كان رجلا كفؤا واذا كان علينا أن نتعرض للطيبة فهل كان من الميسور ، أو هل كان من الممكن لرجل طيب أن يصبح رئيسا للأساقفة ؟

القيم وزهرة الكروكس (٢)

ان الشبان والشابات المبتدئين في الكتابة كثيرا ما يسدى اليهم النصح السليم بأن يكتبوا بصفة عامة وألا يضمنوا كتاباتهم أفكاراً أخرى غير تلك التي تدور في رؤوسهم ولا يقولون الا ما يؤمنون به ، الا أن هذا النصح غير عملي على الاطلاق ولم يصف واحد من الناصحين النصيحة الوحيدة التي هم في حقيقة الأمر في حاجة اليها وهي « أن تكون على يقين من أنك قد أحسنت اختيار القيم » وذلك لأن هذا هو حجر الزاوية في الموضوع فالكتاب انما كتب لكي يقرأه بعض الناس ولما كان ولي الأمر ليس مجرد الخزانة التي تتولى دفع النفقات فحسب ، بل هو الذي يوحى - في مكر ودهاء - بما يكتب ، وعلى ذلك فانه من الأهمية بمكان أن يكون ذلك القيم رجلا محبوبا .

ولكن من هو ذلك الرجل المحبوب أو المرغوب فيه - هل هو القيم الذي يستطيع أن يبرز أحسن ما في رأس الكاتب أو هو الذي في امكانه أن يقدم الى الوجود خلفا ضليعا عبقريا في مختلف الميادين

The Patron and The Crocus (١)

كان الفنان أو الاديب في ذلك العصر يحتمى بحمى رجل ذى مكانة أو نفوذ أو ثراء يتولى أمره فيهيء له سبل العيش حتى يتفرغ الى فنه ونتاجه فاذا أسىء اختيار ذلك القيم تولى الاخير املاء أفكاره وآرائه وكان بالتالى مصدرا لوحى ذلك الفنان وقد فطن الى ذلك مجتمعنا الاشتراكي فتولت الدولة مهمة القيم ومنحت الفنان بدل التفرغ حتى يكون حرا في انتاجه طلقا من كل قيد بعيدا عن السيطرة والنفوذ (الترجمة)

(٢) زهرة الكروكس زهرة موسمية وقد قصدت المؤلفة من هذه التسمية أن ترمز الى أنه على الفنان أو الكاتب أن يختار موضوعات الساعة ليكتب عنها اذ هي التي تهتم القارئين وذلك لأن العامة تتحدث عن تلك الزهرة كلما تفتحت براعمها ونوجت عيدانها بلونها الاصفر في موسم الزهور (الترجمة)

ولقد أجابت على هذا السؤال أجيال متعاقبة وبطرق مختلفة ففي عصر اليزابيث اختار المعاصرون أن تكون كتاباتهم - بصفة عامة - للأرستقراطيين ولجمهور المسرح أما في القرن الثامن عشر فقد كان القيم عبارة عن خليط من لباقة رواد المقاهي وبائعي الكتب، في شارع جراب. ولما جاء القرن التاسع عشر كان أعظم الكتاب يحررون في المجلات ذات الثمن المرتفع وللطبقات التي لا تحتاج إلى العمل من أجل الحياة فإذا ما نظرنا إلى الوراء وهللنا للنتائج الباهرة لهذا المزيج المتباين فإنها تبدو - في منتهى البساطة وفي وضوح - محددة المعالم ، صغيرة في حجم حد الحربة إذا ما قورنت بأعمالنا واننا نتساءل اليوم لمن يجب علينا أن نكتب وذلك لأن معونة القيم في الوقت الحاضر متعددة الألوان بما لم يسبق له مثيل فهناك الصحافة اليومية والصحافة الأسبوعية والصحافة الشهرية وهناك جمهور القراء من الانجليز والأمريكيين ، وهناك جمهور المطبوعات التي يقبل عليها الناس وجمهور المطبوعات التي لا يقبل عليها الكثير كل ذلك يشكل حالياً قدرة الإدراك الشخصي من خلال أبوابها المختلفة التي تعبر عن احتياجاتها وتجعل العامة على بينة بما تقرأه أو لا تستسيغه وعلى ذلك فالكاتب الذي حركت مشاعره وأحاسيسه رؤية أول زهرة كروكس في حدائق كينسنجتون عليه - قبل أن يخط بقلمه على الورق - أن يختار من بين زحمة المتنافسين قيماً بعينه يكون أكثرهم توافقاً معه انه من العبث أن تقول « أستغن عنهم أجمعين - فكر في الموضوع الذي يؤثر فيك أنت ليس فيهم» وذلك لأن الكتابة إنما هي وسيلة من وسائل الاتصال الفكرى وزهرة الكروكس (أى موضوع الكتابة) سوف تكون غير جميلة حتى يشاركك الآخرون نفس الاحساس (١) ان أول رجل في تاريخ البشرية وكذا آخر رجل سوف يبقى على ظهر الأرض هما وحدهما اللذان يمكن أن يكتبا لنفسيهما ليس الا . عندئذ سوف يكون هذا استثناء من القاعدة ولن يكون ذلك منتهى ماتبعيه ، فالكاتب يهتم حتى ببسطاء العقول ويرحب بهم اذا كان في استطاعتهم قراءة أعماله

وبذلك نكفل لكل كاتب بعض الجمهور أو بعض القراء الذين يتلقفون كتاباته وسوف يقول كبار المفكرين ان هذا الجمهور سوف يكون خاضعا ويتقبل طائعا كل ما يريد أن يقدمه لهم هذا الكاتب وعلى قدر ما يبدو هذا القول صوابا فانه ينطوى على مخاطر جسيمة وذلك أنه في هذه

(١) وتقصد الكاتبة من ذلك أن الموضوع لن يحظى بالقبول وبالاقبال عليه الا اذا كان موضوعاً يهم القارئ الذى يكتب له بمعنى أن يكون موضوع الساعة (الترجمة)

الحالة سيظل الكاتب حريصا على جمهوره وان كان أعلى منهم مستوى
وبغير ذلك سوف تكون الرابطة بينهما غير طيبة وغير سعيدة كما يستدل
على ذلك من أعمال صمويل باتلر وجورج ميرديث وهنرى جيمس كل
كان يتعالى على الجمهور وكل كان يبغى جمهورا وكل لم ينل شهرة أو
رضاء الجمهور وكل صب لعنة فشله على الجمهور بسلسلة متزايدة من
الكتابة فى زوايا مختلفة وموضوعات غامضة وتكلف بحيث لا يمكن لأى
كاتب أن يقر - حتى ولو كان من يتولاه متفقا معه - هذا الانتقام من
الجمهور أو يرى فى هذا العمل أمرا لازما وبالتالي تصبح موضوعاتهم
كزرع مرصود ، جميل براق ، ولكن معقوف عليهم مهلهل الشكل متجعد
من جانب ، متطير من الجانب الآخر ولمسة من الحياة ، تجعل الدنيا
نعيمًا بالنسبة اليهم وهل معنى ذلك أننا ندفع الى الرأى المضاد وتقبل
- ولو فى الفكر - المقترحات المغرية التى قد يتقدم اليها رؤساء التحرير
فى التايمز والديلى نيوز « عشرون جنيها لموضوع عدد كلماته خمسمائة
على وجه التحديد تقدم كل صباح من جون أوف جروتس الى لاندز اند قبل
التاسعة من صباح اليوم التالى وعليه اسم الكاتب ؟ »

ولكن هل موضوع واحد يكفى ؟ أفلا يمكن أن يكون براقاً الى حد
كبير أن يتكلف الموضوع مثل هذا المبلغ فضلا عن ظهور اسم الشخص الى
جانب الموضوع ؟ ان الصحافة - بغير شك - تضاعف الموضوعات بصورة
عظيمة وانما اذا نظرنا الى بعض هذه النباتات فسوف نجد أن الشقة
قد اتسعت بينها وبين الموضوعات الأصيلة التى تهتم الجمهور وتسترعى
انتباهه ولا تكون كتلك الزهرات الصفراء أو القانيات التى تنبثق من بين
الحشائش فى حدائق كنسنجتون فى وقت مبكر من مارس كل عام (١)
ان موضوع الصحافة موضوع مثير ولكنه من لون مخالف فالصحفى يملأ
الحيز المخصص له بالضبط ويشع بريقا كبيرى الذهب انه مليء بالبهجة
والأنس والحماس انه دقيق معنى به الى درجة أن أحدا لا يفكر فى أن فن
« نقدنا الدرامى » فى جريدة التايمز أو نقد ليند فى الديلى نيوز عمل
سهل - انه ليس بالعمل الهين أن تحرك مليون عقل فى الساعة التاسعة
صباحا وأن ترضى مليونين من العيون بما يقدم لها من البهجة والانشراح
وبما يسترعى حقاً النظر اليه وعندما يأتى المساء تذبذب تلك الزهرات
وكأنها لم تكن يانعة فى الصباح هناك ذرات صغيرة من الزجاج تفقد

(١) وتقصد الكاتبة أن الموضوعات لاسترعى انتباه العامة كما يسترعى تفتح
الزهور فى أوائل الربيع انتباههم ولاتصل الموضوعات بمشاعرهم ووجدانهم كما تفعل
زهور الربيع (الترجمة)

بريقها اذا اخرجت من البحر وان بطلات المسرح يعوين كما تعوى الضباع
اذا سجن في أكشاك التليفون ، وكذا أكثر الأدوات بريقا ولمعانا اذا أزيل
عنها عنصرها الأساسى تصبح تراباً ورمالاً وقشورا من القش - ان الصحافة
اذا قيدت بين دفتى الكتاب فانها لا تقرأ

وعلى ذلك فالقيم الذى نريده انما هو ذلك الشخص الذى يساعدنا
على العناية بأزهارنا حتى لا تذبل وتذوى عيدانها ولكن مادامت صفاته
تتغير من جيل الى جيل يحتاج الأمر الى رصيد من النزاهة والاستقامة
والايمان بالألا ينخدع بالمظاهر أو يتميز باستمالة الجموع المتنافسة وأن
مهمة العثور على مثل هذا القيم أو النصير على هذه الصفات هي محك فن
التأليف ومحل الاختبار والتجربة وان معرفة لمن تكتب هي الدليل فى
ذاتها على القدرة على الكتابة ان صفات انقيم فى العصر الحديث واضحة
وضوحاً تاماً فالكتاب فى حاجة فى هذه اللحظة الى نصير يهوى قراءة
الكتب أكثر من هوايته الذهاب الى المسرح ويجب أن يكون - فى أيامنا
هذه - متفقا بأداب العصور والأجيال المختلفة وهناك من الصفات
ما يفرضها ضعفنا الخاص وميلنا الى النصير فهناك مسألة الأدب الفاضح
مثلا الذى يزعجنا ويحيرنا أكثر مما أزعج أدباء عصر اليزابيث أو حيرهم
ان القيم - فى القرن العشرين - يجب أن يكون محصنا ضد الصدمات -
وعليه أن يميز - بغير خطأ - بين تلك القطعة الصغيرة من السبخ التى تعلق
بالزهرة كضرورة وهى تنبثق من بين التربة وسباخها وبين تلك التى
تلتصق بها نتيجة للاهمال(١) وعليه أن يكون حكماً كذلك فى المؤثرات
الاجتماعية التى تلعب - رغماً عنا - دوراً هاماً فى الأدب الحديث وأن
يكون قادراً على أن يقول أى الموضوعات زبد يذهب جفاء وأيها ينفع
الناس فضلاً عن ذلك فهناك مشاعر عليه أن يفصح عنها وليس هناك
من عمل يمكن للقيم أن يؤديه ويكون أكثر نفعاً من عصمة الكتاب من
العاطفة من ناحية ومن الخوف من الافصاح عن مشاعره من ناحية أخرى
فعندئذ سيقول أن الخوف من الافصاح عن المشاعر أسوأ من الافراط فى
المشاعر والأحاسيس وقد يكون الخوف أمراً طبيعياً وقد يزيد على ذلك
شيئاً من اللغة فبعد الكلمات الكثيرة التى استعملها شكسبير وقواعد
النحو والصرف التى انتهكها شكسبير وعلى الرغم من أننا نحرص كل
الحرص حتى لا نلحن أو نخرج نغمًا ناشزاً فاننا لم نتقدم أو نتفوق على

(١) ترمى الكاتبة من ذلك أن على ذلك القيم أن يميز بين ما يمكن أن يتعرض
له الموضوع من ماخذ اقتضتها ضرورة الفن وبين تلك العيوب التى تعتور موضوع
ما نتيجة رعونة من الكاتب أو استخفاف أو عدم العناية بما يكتب (الترجمة)

أنتونى وكليو باترة : وسيقول كذلك انه اذا لم يفكر فى أمور الجنس كلية فان ذلك يكون من عزم الأمور اذ ليس للكاتب نصيب منها . وانما كل هذه الأمور الأساسية محل للتنازع فأول صفات انقيم أمر مختلف عن كل ذلك اذ انه لزام عليه أن يحس ويتأثر بالكلمة الملائمة التى تأتى فى موضعها ومن الضرورى عليه أن يظل زهرة الكروكس (موضوع الكاتب) ويرعاها فى جو يجعلها تبدو نباتا له أهمية عظمى وذلك لأن الاخفاق فى تقديم الموضوع من العثرات التى لا يمكن أن تغتفر أو يمحي أثرها عليه أى على القيم أن يشعرونا أن موضوعا واحدا يكفيه اذا كان حقا موضوع الساعة وأنه لا يحتاج الى تلقين أو زيادة أو تثقيف أو تحسين وأنه يأسف أنه دفع كارليل الى الصياح والعجيج ودفع تينسون الى الأناشيد وراسكن الى الجنون وأنه على استعداد الآن لأن يكفر ويظهر نفسه أو يدعمها كما يريد له كتابه وأنه مرتبط بهم ارتباط الابن بأمه ، انهما – القيم والكاتب – توأمان بالفعل يموت أحدهما اذا قضى الآخر نحبه ويزدهر أحدهما اذا نما الآخر وآمن بأن مصير الأدب يعتمد على تحالفهما السعيد وكل ذلك يدل على ما بدأنا به القول من أن اختيار القيم من أهم الأمور وأجلها وانما كيف السبيل الى الاختيار السليم ؟ كيف يجيد الكاتب ؟ تلکم هى المشكلة .

(١) المقال الحديث

يقول الأستاذ رايز - وهو على حق فيما يقول - ليس من الضروري التعمق في أغوار التاريخ وفي أصل المقال ، وهل ابتدعه سقراط في اليونان أم ابن سينا في فارس وذلك لأن حاضره - وشأنه في ذلك شأن كل كائن حي - أهم من ماضيه وأكثر من ذلك فان العائلة الواحدة تتشعب فروعها فبينما يرتفع شأن بعض أفرادها في العالم وتتوج جباههم أكاليل الغار ينزل البعض الآخر الى الدرك الأسفل ليلتقطوا شيئا من صنديق القمامة يسدون به رمقهم بالقرب من شارع فليت (شارع الصحافة) وكما يسمح الشكل بالتباين فيمكن أن يكون المقال قصيرا أو مطولا ، وقد يشتمل على الجاد من الأمور أو يأتي مليئا بالخزعبلات ، وقد يكون الله موضوع المقال أو شبينوزا ، وقد يكون المقال عن السلحفاة أو عن منطقة «تشيبي سايد» وعندما تقلب صفحات الأجزاء الخمسة الصغيرة التي تضم مقالات كتبت بين عام ١٨٧٠ وعام ١٩٢٠ يظهر لنا بعض القواعد التي تحكم تلك الفوضى المستشرية ونلاحظ في وقت قصير عند الفحص شيئا أشبه ما يكون بتقدم التاريخ

ان المقال من بين صور الأدب المختلفة هو الصورة الوحيدة التي تدعو الى الاقلال من استعمال الكلمات الطويلة والقاعدة التي تحكم المقال هي باختصار أن يكون المقال ممتعا لقارئه ، وفيه ما يثير الرغبة التي تدفعنا ببساطة ونحن نتناول المقال من الرف الى الاحساس بالمتعة . كل شيء في المقال يجب أن يخضع لهذه النهاية ولا بد أن يجعلنا مشدودين بأول كلمة فيه وعندما نفيق نشعر بالنشاط عند نهاية المقال وبين هذا وذاك نمر بالتجارب المختلفة في المتعة والمفاجآت والرضا والسخط ، وقد نحلق في آفاق الخيال مع لامب (٢) أو نفوس في أعماق الحكمة مع بيكون (٣) ولكن

Modern English Essays, edited by Ernest Rhys, 5 vols. (Dent). (١)

Lamb. (٢)

Bacon. (٣)

بغير استفزاز على الاطلاق ثم يجب بعد ذلك على المقال أن يلفنا ثم يسدل ستائره حول العالم

ان مثل هذا العمل العظيم قلما يتم ، وقد يقع اللوم على القارىء بقدر ما يقع على الكاتب اذ أفسدت العادة والركود والحمول ذوقه فلكاتب القصة قصته وللشاعر نظمه ، فما هو اذاً الفن الذى يكون فى مقدور كاتب المقال أن يستعمله فى تلك القطع القصيرة من النشر التى تثيرنا فتدفعنا الى اليقظة الطويلة ثم تغرقنا فى غيبوبة هى ليست بالنوم وانما هى أقرب ما تكون الى التركيز فى الصحوة - بل انها أشبه ما تكون بالاسترخاء فى دفء الشمس مع تيقظ كل الجوارح - هذا الفن اذاً هو أن يعلم كاتب المقال علم اليقين كيف يكتب وقد يكون علمه هذا راسخاً كعلم مارك باتيسون (١) ولكن فى المقال يجب أن يتوهج هذا العلم بسحر الكاتب بدرجة لا تجعله مادة جافة تبرز من بين سطورهِ ولا مذهباً يمزق لبسبب الورق . وقد أنجز ماكولى (٢) بطريقة ما وفروود (٣) بطريقة أخرى كل ذلك مرات ومرات بنجاح عظيم فقد قدما الينا من ألوان المعرفة فى متن مقالة أكثر مما ساقته فصول متعددة فى مئات من الكتب المدرسية ولكن عندما أراد مارك باتيسون أن يحدثنا فى خمس وثلاثين صفحة من القطع الصغير عن مونتيني فاننا نشعر أنه لم يتعظ من قبل بالسيد جرون (٤) والسيد جرون هذا كان رجلاً (جنتلمان) ووضع يوماً كتاباً رديئاً وكان من الواجب عليه أن يغلف نفسه وكتابه بغلاف من القهرمان (٥) حتى يتم لنا الابتهاج الدائم وما حاول أن يحدثنا عنه مارك باتيسون كان أكثر مما فى طاقة باتيسون ولذا جاءت العملية مجهدّة وكما قدم جرون عملاً فجاً غير ناضج فقد بقى باتيسون كالثمرة الفجة بين الطعام الناضج ومن ثم استلزمت من أسناننا المضغ المستمر وشيء من ذلك قد انطبق على ماثيو أرنولد (٦) وعلى مترجم بالذات لفلسفة سبينوزا والاعبار الحرفى الصادق واكتشاف أخطاء المجرم من بين حسناته أمران ليس لهما مكان فى

Mark Pattison. (١)

Macauley. (٢)

Froude. (٣)

M. Grun. (٤)

(٥) وترمى الكاتبة بهذا التعبير الى حجب الكتاب ومؤلفه عن أعين القراء حتى لا يستاء منه أحد وذلك لان القهرمان غير شفاف وسوف يحجب مابداخله فلا يطلع عليه أحد (المترجمة)

Matthew Arnold. (٦)

المقال حيث كل شيء يجب أن يكون لصالحنا ومنفعتنا أبد الدهر أكثر مما يسوقه عدد مارس (١) من المجلة نصف الشهرية وإذا كان صوت التأييب لا يمكن أن يسمع في مثل هذه العجالة القصيرة فان هناك صوتا آخر أشبه بتصويت الجراد صوت رجل وسان يتعثر في كلمات مفككة ويتعلق في غير هدف بأفكار مهزوزة ومثال ذلك صوت مستر هوتون (٢) في الفقرة التالية

أضف الى ذلك أن حياته الزوجية كانت قصيرة جدا فلم تعمر الا سبع سنوات ونصف السنة ، ولم يكن يتوقع أن تنقطع هكذا سريعا وكان احترامه العاطفي لذكرى زوجته ولذكائها - على حد قوله - عقيدة أو ديناً ، وهذا الاحترام كان من النوع المبالغ فيه ولولا أنه متزن كل الاتزان وليس في امكانه أن يظهر عكس ذلك لكان هلوسة في نظر بقية الناس ومع ذلك فانه كان مأخوذاً بفكرة لا تقاوم تتضمن اطناباً رقيقاً حماسياً وبذلك أصبح من الصعب العثور على رجل اكتسب مثل هذه الشهرة الواسعة ومن المستحيل ألا نشعر بأن الحوادث البشرية التي مرت بحياة السيد ميل كانت مؤسفة للغاية » .

الكتاب يمكن أن يحتمل مثل هذه السقطة ولكنها تضيع المقال وتسجيل سيرة انسان في مجلدين يصبح في الواقع سफراً لاثقا حيث يكون المجال أكثر استيعاباً والاشارات والتلميحات عن الأشياء الخارجية تشكل جزءاً من المادة الغزيرة (ونحن نشير الى مجلد من طراز فيكتوريا) . وقلما يهتم بهذا التراخي أو بتلك الطاقات وهي تنطوي في الواقع على قيمة ايجابية في ذاتها ولكن هذه القيمة - وهي التي يمنحها القارئ ، وقد يكون غير محق في ذلك نتيجة لرغبته في الحصول على أقصى ما في وسعه من كل المصادر الممكنة من الكتاب - هذه القيمة هي التي تتحكم في المقال

لا مجال هنا للأدب الفاضح في المقال وبطريقة أو بأخرى ، وبقوة الجهد أو بسخاء الطبيعة أو بهما ممتزجين يجب على المقال أن يكون

(١) وتريد المؤلف بذلك أن الفائدة التي تعود علينا من قراءة المقال يجب أن تكون دائمة وليست فائدة وقتية فالمقال لا يختص بفترة من الزمن كموضوعات المجلة نصف الشهرية التي تهتم بالاحداث التي تدور أو تقع في خلال فترة ظهورها وتخفي تلك الاحداث وتصبح غير ذات موضوع وتحتجب وراء ما يجد من حوادث وأخبار تالي (الترجمة)

خالصا نقيا نقيا كالماء أو رائقا كالخمر وفي الوقت نفسه بعيدا عن
السخف والموات ورواسب الغريب من الأمور فمن بين كل الكتاب في
المجلد الأول يحقق وولتر بيتر (١) هذا العمل الشاق في أجمل صورة
ذلك لأنه قبل أن يتهيأ لكتابة مقاله « ملاحظات على ليوناردو دافينشي » مثلا
يكون قد تمكن بطريقة معينة من هضم مادته فهو رجل متعلم وانما ليست
المعلومات عن ليوناردو هي التي تبقى معنا وانما هي الرؤيا أو الصورة
التي نحصل عليها من قصة رائعة كل شيء فيها يسهم في اظهار تصورات
الكاتب أمامنا ككل - وهنا فقط - في المقال حيث كل القيود صارمة وحيث
تظهر الوقائع عالية - يجعل الكاتب الأصيل ، مثل وولتر بيتر ، هذه الحدود
طبيعة مستسلمة . ويسبغ عليها الحق سلطانا ، ومن خلال حدودها الضيقة
يمكن أن يستخلص الأشكال والتركيز ، وبالتالي يصبح المجال لا يتسع الى
كثير من الزخارف التي كان يميل اليها الكتاب القدامى والتي نترفع عنها
نحن وان سميناهما بالزخارف . واليوم لا يجد أحد الشجاعة لكي يتوقف
عند وصف سيدة ليوناردو الشهيرة التي

« تعلمت أسرار الآخرة والتي كانت ذات يوم تغوص في أعماق
البحار التي تطويها والتي تاجرت في النادر من القماش مع
تجار من الشرق ، كما كانت ليذا أم هيلين طروادة وكما كانت
القديسة آن أم ماري

ان هذه الفقرة قصيرة جدا بحيث يتضمنها سياق في الكلام دون
تكلف . ولكن عندما نصل بغير توقع الى « النساء المضاحكات وتلاطم المياه
العميقة » أو الى « مليء بتراب الموتى في الرمل ، أكفان في لون الأرض
رصعت بالحصى الشاحبات » نتذكر فجأة أن لنا أذانا وأن لنا أعينا وأن
الانجليزية تملأ صفاً طويلا من المجلدات الضخمة بكلمات لا تحصى ، أغلبها
ذات أكثر من مقطع واحد ان الرجل الانجليزي الذي على قيد الحياة والذي
يرجع الى هذه المجلدات لابد أن يكون - بغير شك - رجلا ذا أصل بولندي
حتى يتفهمها ، وان تحفظنا يوفر علينا - بغير شك - كثيرا من الاندفاع ،
وبالمزيد من علم البيان وبمزيد من التعالي والسمو ومن أجل الاعتدال
السائد وصلابة الرأي فان علينا أن نكون على استعداد لنفاضل بين عظمة
سير توماس براون وبين قوة سويفت .

ومع ذلك فاذا كانت المقالة أكثر ملاءمة من كتب السيرة أو القصة
العاطفية فانها تسمح بالجرأة الفجائية وباستعمال المجاز كما يمكن تنميقها

Walter Pater. (١)

بحيث تلمع كل ذرة من ذرات صفحاتها ، وفي هذا يكمن الخطر اذ سرعان ما نكون بصدد زخرفة وسرعان ما يبطن التيار الذى يعتبر عصب الحياة فى الأدب ، وبدلا من أن يتدفق لامعا براقا أو يندفع ويبدأ بقوة النبض ذى الانفعال العميق فان الكلمات تتجمد معا فى رذاذ متجمد وتصبح كعناقيد العنب على شجرة عيد الميلاد التى تظل براقا لليلة واحدة ثم يتراكم عليها التراب ثم ينطفئ بريقها فى اليوم التالى ان الاغراء فى الزخرفة يكون قويا عندما يكون الموضوع تافها فأين المتعة التى يمكن أن يشعر بها القارئ ازاء القول بأن أحدا قد استمتع بجولة سيراً على الأقدام أو سرى عن نفسه بالتسكع فى « شيب سايد » أو بمشاهدة السلاحف فى واجهة محل سويتينج ؟ وقد اختار كل من ستيفنسون وصامويل باتلر أساليب للاثارة تختلف كثيرا فى مثل هذه الموضوعات المألوفة فهذب ستيفنسون - بالطبع - موضوعه كما صقله وأعدده على الطريقة التقليدية للقرن الثانى عشر وقد قام بعمله بطريقة محببة ولمكننا لا يمكننا الا أن نشعر بالقلق كلما تقدمنا فى المقال وأقل مادة يمكن أن تكون طوع بنان الفنان الماهر فالسبيكة قليلة جدا والعمل اليدوى مستمر ولعل ذلك هو السبب فى أن تكون النهاية على النحو التالى

« لتجلس ساكنا وتتأمل - ولتتذكر وجوه النساء بغير شهوة ولتستعرض أعمال البطولة التى يقوم بها رجال بلا حقد أو غل ولتكن كل شىء وفى كل مكان رحمة وشفقة ومع ذلك فأنت قانع بالبقاء كما أنت وحيث أنت »

ففى هذه النهاية نوع من تفاهة الجوهر الذى يتضح معه - فى الوقت الذى تصل فيه الى النهاية - كأنه ولا مادة فيه ليبنى منها الكاتب أعماله ويبدو أنه يريدك أن تفكر فى أفكار من عندك وتتولى تفسيرها ببساطة بقدر ما تستطيع فتلك السلاحف فى واجهة المحل التى تبدو وهى تطل برءوسها وأرجلها من وراء أصدافها توحى بالاخلاص المميت (١) فكرة ثابتة لا تتغير . وهكذا يتنقل كاتب المقال بلا قصد من فكرة الى أخرى ونعبر معه أرضا منبسطة ممتدة ، وتلاحظ أن جرحا يحدث لوكيل محام هو خطب جمل وارثاء الملكة مارى ملكة اسكتلنده لحداء طويل كالذى يرتديه الجراحون فى العمليات الجراحية - وهى تسير بالقرب من محل « حدوة الحصان » فى شارع توتنام كورت - خطب جمل أيضا ، وعليك أن تقبل - بغير جدال - أنه

(١) رمزت الكاتبة بأصداف السلاحف الى الفكرة الثابتة . (الترجمة)

لا أحد يهتم باسكيلوس (١) وهكذا - وبكثير من أمثال هذه « الحواديت » المسلية وبعض الأفكار العميقة - يصل القارئ الى النهاية كما قيل له بالأبى يرى فى منطقة « شيب، سايد » أكثر مما يمكنه قراءته خلال إثنى عشرة صفحة فى مجلة يونيفرسال ولهذا يحسن أن يتوقف عن القراءة ومع ذلك فمن الواضح أن بتلر كان حريصا - على الأقل - على متعتنا مثل ستيفنسون وان كتابة المرء بأسلوبه الشخصى حتى ولو كان أسلوبا رديئا لمهمة أصعب من تقليد أديسون مثلا ، ثم يسمى هذا التقليد اجادة فى الكتابة

وكتاب المقال فى عصر فيكتوريا وان اختلف كل منهم عن الآخر تمام الاختلاف يشتركون فى صفة عامة فهم كانوا يكتبون المقالات الطوال أكثر مما يحدث عادة الآن وكانوا يكتبون لجمهور ليس لديه من وقت ما يقضيه مع المجلات فحسب بل وعلى مستوى عال من الثقافة تميز بها عصر فيكتوريا وتمكنه ثقافته من تقدير المقالات والحكم عليها وان الكلام عن الموضوعات الجادة فى مقال ، أمر يستحق المجهود وليس فى الأمر مزاح أن يعيد المرء كتابة نفس الموضوع كأحسن ما يستطيع فى خلال شهر أو شهرين لنفس الجمهور - الذى رحب بالمقال وأقبل عليه عندما ظهر فى مجلة - فيكتب نفس الموضوع فى كتاب ، فان هذا الجمهور سيقرا الكتاب باهتمام وعناية ولكن الانتقال يحدث من جمهور صغير من أناس مثقفين هم جمهور المقال الى جمهور أكبر من أناس لم ينالوا حظا من الثقافة . والانتقال أو التغيير لا يحدث دائما نحو الأسوأ فى المجلد الثالث نجد مقالات السيد بيريل (٢) والسيد بيربوم (٣) ومنها يمكن أن يقال ان هناك عودة الى النمط التقليدى ، وان المقال عندما فقد حجمه وبعضا من رنينه - يقترب أكثر من مقال أديسون (٤) ولامب (٥) . وعلى كل حال فهناك هوة سحيقة بين السيد بيريل عندما كتب عن كارليل (٦) وبين المقال الذى يمكن أن نتصور أن كارليل كان يمكن أن يكتبه عن السيد بيريل وهناك تشابه طفيف بين سحابة المرايل (٧) بقلم ماكس بيربوم وبين اعتذار ساخر (٨)

Aschylus.	(١)
Mr. Birrell.	(٢)
Mr. Beerbohm.	(٣)
Addison.	(٤)
Lamb.	(٥)
Carlyle.	(٦)
A Cloud of Pinafores.	(٧)
A Cynic's apology.	(٨)

بقلم ليسلى ستيفن (١) - ولكن المقال فيه حياة وليس هناك من سبب لليأس ولما كانت الظروف قد تغيرت فان كاتب المقال - وهو أكثر حساسية للرأى العام من أى فرد أو هيئة أخرى - كيف نفسه ، فاذا كان كاتباً قويا فانه يستفيد من هذا التغيير أكبر استفادة أما اذا كان كاتباً ضعيفاً فان هذا التغيير يسىء اليه أشد الاساءة والسيد بيريل - بغير شك - كاتب مبدع ولهذا فاننا نجد أنه على الرغم من أنه خفف كثيراً من وطأته الا أن نقده مباشر وحرته أكثر مرونة ولكن ما الذى منحه السيد بيربوم للمقال وما الذى استفاده المقال منه ؟ ان هذا سؤال معقد أشد التعقيد ، اذ أننا أمام كاتب مقال قد ركز على العمل وأنه - بلا منازع - أمير مهنته .

كان الكاتب يحجب نفسه عن قرائه فلا يظهرها فى المقال وكان بيربوم هو أول من قدم نفسه للقراء وأصبح مألوفاً بينهم فى التسعينات . وعاد هذا الاتجاه الذى سيطر على المقال تماماً فى عهد مونتيني (٢) اى الاختفاء بعد وفاة تشارلس لامب . فلم يكن ماثيو أرنولد (٣) مقرباً الى قرائه حتى يطلقوا عليه اسم كناية وكذا لم يكن والتر بيتر (٤) محبوباً أو مألوفاً لدى آلاف العائلات حتى يلقبونه بـ «وات» (٥) فهما - وان كانا قد وهبا المقال الكثير الا أنهما لم يهبا له نفسيهما . ولا بد أن قراء التسعينات الذين اعتادوا على تقديم النصح والمعرفة كما تعودوا ألا يظهر الكاتب نفسه فى المقال ، قد عجبوا أن وجدوا انساناً يخاطبهم ولا يتميز عليهم كما أنه لا يفوقهم فى شىء ولا بد أن «بيربوم» كان متأثراً بأفراحه وأحزانه ولم يكن لديه ما يقدمه من النصائح والارشادات والهداية ، ولم يكن لديه كذلك معلومات لينقلها الى القارئ وباختصار ودون مداورة كان يعيش فى نفسه وبقي كذلك ومرة أخرى نجد كاتب مقال قادراً على الكتابة ولكنه فى نفس الوقت قادر على استعمال المقال كسلاح رقيق وخطير معاً

وهو لم يوجد الشخصية فى الأدب عفواً أو عن غير قصد بل أوجدها قاصداً مدركاً لما يأتى . حتى اننا لنعجب هل هناك علاقة بين ماكس كاتب المقال والسيد بيربوم الانسان وانما نعلم أن روح الشخصية تحل فى كل

-
- | | |
|-----------------|-----|
| Lesie Stephen. | (١) |
| Montaigne. | (٢) |
| Matthew Arnold. | (٣) |
| Walter Pater. | (٤) |
| Wat. | (٥) |

كلمة ولا نعلم غير هذا وتكمن العظمة في قوة الاسلوب لأن معرفة فن الكتابة هو القدرة ذاتها التي تمكنه من فرض نفسه على الأدب ، فهذه الذات - بينما هي هامة ضرورية في الأدب - فهي أيضا أكثر خطرا وألد عدوا على الأدب ولا عليك أن تكون ذاتك دائما وأنت تكتب وفي نفس الوقت يجب أن تكونها ولا تفقدها هذه هي المشكلة

ان بعض كتاب المقال في مجموعة مسترراى (١) لم يجدوا - بصراحة - لهذه المشكلة حلا على الاطلاق . وقد لا يروقنا أن نلتقى بشخصيات تافهة تذوب وتحلل في مطبوعاتها الباقية ومما لاشك فيه أن تلك الشخصيات كانت لطيفة ومتحدثة نلتقى بها في ساعات صفو على كأس من البيرة ولكن الأدب جاد ، لا يجديه اللطف أو طلاوة الحديث أو العلم أو الذكاء في المساومة الا اذا تحقق أول شرط من شروطه وهو القدرة على الكتابة ومعرفة كيف يكتب .

وصل هذا الفن - فن الكتابة - الى درجة الكمال عند بيربوم ولكنه لم يكلف خاطره أن يرجع الى المعجم لينتقى منه ألفاظا متعددة المقاطع ولم يستوعب آداب العصور ذات الشأن ولم ينصهر في بوتقتها أو يشنف آذاننا بالايقاع المتزن أو بالتجويد الذي يصعب الوصول اليه أو بانغم الغريب . وكان بعض أتباعه - أمثال هنلي (٢) وستيفنسون (٣) - في بعض الأحيان أكثر تأثيرا منه ومع ذلك فاننا نجد في «سحابة المرايل» (٤) مالا يمكن وصفه من التباين والاثارة والتعبير القاطع وهذا كله من ضروريات الحياة ، والحياة وحدها وليس معنى أن تقرأها أنك قد انتهيت منها فهي أشبه بالأصدقاء يفترقون لا لأن المودة قد انقطعت بينهم وانما لأنه قد حان الوقت للانصراف فالحياة من شأنها أن تغير وأن تنمق وأن تضيف فحتى الكتب في المكتبة تتغير اذا كانت حية ، فنجد في أنفسنا الرغبة في أن نلتقى بها مرة أخرى ، وعندئذ نجد أنها قد تغيرت . وعلى ذلك نعود الى مقالات بيربوم مقالا بعد آخر ونحن على يقين أنه على مر الأيام سنجلس اليها ونتجاذب معها أطراف الحديث وفي الواقع ان كاتب المقال هو أكثر الكتاب حساسية للرأي العام فغرفة الجلوس هي المكان الذي تتم فيه القراءة في هذه الايام ، وتحتل مقالات بيربوم من نفوس القراء

Mr. Rhy. (١)

Henley. (٢)

Stevenson. (٣)

A cloud of pinafores. (٤)

منزلة وتقديرا هي في الواقع أهل لهما ولا تفرع كئوس الجمعة أو يحرق الطبايق أثناء المطالعة ولا نجد تلاعبا بالالفاظ ، أو سكرًا أو جنونا ، فالكل - مستغرق في قراءته يتجاذبون أطراف الحديث ولكن هناك تعليقات صامتة

إذا كان من الغباء أن نجد بيروم في داخل حجرة واحدة فإنه يكون أكثر غباء أن نعتبره الفنان الذي لا يعطينا إلا أحسن ما عنده أو نعتبره ممثلا لعصرنا فليس هناك مقالات لبيروم في المجلدين الرابع والخامس من هذه المجموعة مجموعة راى - اذ يبدو عصره وكأنه بالفعل بعيد عنا قليلا وغرفة الجلوس - وهي تختفى كمكان للقراءة بدأت وكأنها المذبح حيث قدم عليه الناس - في يوم من الأيام - قربانا من فواكه بساتينهم وهدايا صنعتها أيديهم - ولكن تبدل الحال غير الحال الآن فالجمهور يحتاج الى مقالات كما كان في حاجة اليها في الماضي بل وربما هو في أشد الحاجة اليها عن ذي قبل يحتاج الى مقالات خفيفة متوسطة الطول لا تزيد على ١٥٠٠ كلمة وفي القليل النادر تصل الى ١٧٥٠ كلمة وحتى هذا القدر من الكلمات يزيد على المادة التي يشتملها المقال فحينما كتب لامب مقالا واحدا وكتب ماكس مقالين في نفس الموضوع فقد كتب مستر بيلوك (١) فيه ما يقرب من ٣٦٥ مقالا كانت مقالات قصارا ما في هذا شك ومع ذلك فإنها لقدرة حقا أن يتمكن الكاتب من استخدام الجزء المخصص له فهو يبدأ في أول الصفحة ويعرف بكل دقة الى أى مدى سيسير ومتى يغير الحديث وكيف دون أن يضحي بقيد أنملة من الصفحة - بل هو يستمر في الكتابة وعليه أن ينتهى عند آخر كلمة في المقال مع آخر جزء خصصه له المحرر ! وهذه المقدرة في الكتابة تستحق الملاحظة كاستعراض للمهارات ولكن عرض الشخصية التي اعتمد عليها مستر بيلوك كما اعتمد عليها مستر بيروم ، هذه الشخصية تعاني من عملية العرض هذه فلا نلتقى بالشخصية الفنية التي نتحدث بضمير المتكلم بل تصلنا مضغوطة هزيلة مثقلة بالمزوميات والتكلف مثلها كمثل رجل يصيح في خلال مكبر للصوت في يوم عاصف

أصدقائي الصغار - قرائي هكذا يقول في مقاله المسمى **بالقرية المجهولة** ويستطرد بعد ذلك « في ذات

يوم كان هناك راع في سوق فندون جاء من الشرق عن طريق لويس ومعه خراف وكانت في عينيه آثار الآفاق التي تجعل عيون الرعاة ورجال الجبال تختلف عن أعين الآخرين ذهبت معه لأسمع منه ما سوف يرويهِ إذ ان حديث الرعاة يختلف كل الاختلاف عن أحاديث غيرهم .

ومن حسن الحظ لم يكن لدى هذا الراعي الا القليل من الكلام عن القرية المجهولة بالرغم من اغراء قدح البيرة إذ ان الملاحظة الوحيدة التي أبدأها تدل على أنه اما شاعر صغير لا يصلح لرعى الخراف واما انه بيلوك نفسه قد تقمص شخصيته بقلمه هذا هو الجزء الذي يجب أن يواجهه كاتب المقال المحترف فلا مفر من تقمص الشخصية إذ لا يجد لديه من الوقت ما يسمح له بأن يعبر عن نفسه أو أن يعبر عن الشخصيات وهو مضطر الى أن يأخذ من الأفكار قشورها وأن يميع قوة الشخصية وهو مضطر كذلك لأن يكتفى بالموضوعات الرخيصة يقدمها لنا كل أسبوع بدلا من انتاج واحد دسم يتقدم به في نهاية العام

ولم يكن بيلوك هو الذي قاسى وحده من هذه الحالة المتفشية وقد لا تكون المقالات التي تشكل مجموعة عام ١٩٢٠ هي أحسن ما أنتجه يراع كاتبيها بل اذا استثنينا كتابا مثل كونراد وهندسون ، اللذين تعرضا لكتابة المقال مصادفة وسلطنا الأضواء على الذين اتخذوا من كتابة المقال عادة أو حرفة ، فسوف نجد أنهم تأثروا الى حد بعيد بتغير ظروف الحياة في المدينة الحديثة . ان الكتابة كل أسبوع أو كل يوم ، أو الكتابة المختصرة ، أو الكتابة الى هؤلاء الذين يستقلون القطار في لهفة وعجلة كل صباح فلا يكادون يجدون فسحة من الوقت للقراءة أو الكتابة الى الذين يثوبون الى منازلهم مع المساء مجهدين متعبين، مثل هذه الأنماط من الكتابة أمر شاق يؤلم النفس خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يميزون الغث من الثمين انهم انما يكتبون وهم يبعدون بالغريزة أى شيء ثمين يمكنه أن يفسده عامة القراء ، كما يبعدون أى شيء حاد لاذع يمكن أن يثيرهم وعلى ذلك اذا قرأ شخص للوكس (١) أو لليند (٢) أو لسكوير (٣) بصفة عامة فانه يشعر بانقباض عام يشع من كتاباتهم حتى يطبع كل شيء

Locus. (١)

Lvnd. (٢)

Squire. (٣)

بالكتابة فهم أبعد ما يكونون عن الجمال الباهر فى مقالات ولتربيتهم كما انهم بعيدون عن الصراحة المفرطة التى يتمتع بها ليزلى ستيفن (١) ان الجمال والشجاعة صفتان خطرتان لا يمكن ضغطهما فى مقال قصير لا يتجاوز العمود أو نصف العمود من الجريدة وكذا ملء هذا المقال بالأفكار الدسمة مثله كمثل من يملأ جيوب صيديريته بورق اللف السميكة فيشوهه جال هندامه هكذا يكون الحال فى حشو المقال القصير بالأفكار العميقة تشويهاً للجمال الفنى انهم يكتبون لعالم طيب متعب ساذج والعجيب أنهم لا يكفون عن الكتابة أو يحاولون على الأقل أن يكتبوا كتابات جيدة

ولسنا فى حاجة الى الاشفاق على كلانتون بروك (٢) لما استحدثته من تحول فى كتابة المقال فمن الواضح أنه قد استفاد ظروفه المواتية وقد يتردد المرء فى القول بأنه لم يأت بمجهود واع فى هذا الأمر ولهذا كان السبب فى تحول كاتب المقال من الخاصة من القراء الى العامة منهم، وانتقل بالمقال من حجرة الجلوس الى ألبرت هول (٣) ومن أوجه التناقض أن يقصر المقال فى الوقت الذى تمتد فيه شخصية الكاتب اليه ليتحدث عن نفسه فلم نعد نقرأ فى المقال ضمير المتحدث (أنا) وانما ضمير الجماعة (نحن) وضمائر أخرى للتعظيم والتفخيم ومن أمثلة ذلك عندما أراد الكاتب أن ينتقد الناي السحرى (٤) فبدلاً من أن يقول عندما « ذهبنا » يقول

عندما « ذهبنا لسماع الناي السحرى

» ونحن الذين يقتضى الانتفاع بهم ؛

« ونحن » - (ولا ندرى كيف كان ذلك !) - اتبعنا هذا

الأسلوب بمقدرتنا الفائقة فى يوم من الأيام

فالموسيقى والأدب والفن لا بد أن تخضع لنفس التعميم والا فلن تنتشر الكتابات منها على طول امتداد ألبرت هول وأن صوت كلانتون بروك على قدر ما فيه من اخلاص وبعد عن التحيز فانه قطع هذه المسافة ووصل الى مداها دون أن يعرض بضعف العامة أو بعواطفهم وهذا هو الأمر الذى يرضينا جميعاً ولكن بينما « نحن » تدخل السرور والرضا

Leslie Stephen. (١)

Clutton Brok. (٢)

(٣) وتريد الكتابة بذلك أن تقول ان المقال بعد أن كان لا يقرأ الا فى الصالونات

بين خاصة الناس خرج الى الاماكن العامة ، خرج الى عامة الشعب (الترجمة)

The Magic Flute. (٤)

فان أنا - وهى الشريك العنيد فى الانسان تنكمش فى يأس و « الأنا » تفكر دائماً فى أمور تخصصها وأشياء يشعر بها المرء بنفسه ليشارك بها - بصورة مخففة - عامة المثقفين والنابهين وهذه المشاركة بالنسبة اليه عذاب أليم وبينما البقية الباقية منا تصغى بانتباه وتستفيد بعمق فان الأنا تسرح فى الحقول والمزارع وتبتهج بالانطلاق وبالانفراد بطرف أخضر من العشب أو حتى بحبة وحيدة من البطاطس

ويبدو أننا - فى المجلد الخامس من المقالات الحديثة - قد بعدنا قليلا عن المتعة وعن فن الكتابة واحقاقا للحق يجب علينا بالنسبة لكتاب المقال أن نتأكد من أننا لم نرفع المشهورين ونمتدحهم لأنهم سبق أن امتدحوا من قبل أو نقرظ الموتى لأنهم لن يبعثوا ليسيروا متأنقين بيننا فى ميدان بيكاديلى - بل يجب علينا أن ندرك ما الذى نقصده عندما نتحدث عن يستطيع الكتابة وعن يدخل علينا البهجة والسرور وعلينا أن نقارن بينهم وبين الآخرين وأن نبرز مواطن الاجادة وأن نشير الى هذه القطعة من الكتابة ونقول انها جيدة لأنها دقيقة صادقة فيها خيال

« ان الرجال لا يعتزلون مطلقا عندما يجب عليهم الاعتزال ولاهم يعتزلون عندما يكون الاعتزال هو الحل السليم وهم مع ذلك تواقون الى العزلة حتى فى أرذل العمر أو فى حالة المرض التى هى أحوج ما تكون الى الظل الوارف مثلهم فى ذلك مثل رجال المدن الذين لازالوا قابعين أمام أبواب منازلهم لا يقبعون بداخلها وذلك لأنهم لا يعترفون ببلوغهم السن »

ونشير الى قطعة أخرى من الكتابة ونقول انها رديئة لأنها مفككة انها « تهريج » وتفاهة

« وفكر - وعلى شفثيه تهكم لطيف معبر - فى الحجرات الهادئة التى لم تطأها قدم وفى الماء الذى يتراقص تحت أشعة القمر وفى الشرفات حيث الموسيقى العذبة تبكى فى الليل البهيم وفكر فى عشيقات طاهرات كالأمهات يحمينه بأيديهن وعيونهن الساهرات وفكر فى الحقول الناعسة تحت الشمس وفكر فى فراسخ من المحيطات ترزح تحت السماء الدافئة المرتجفة وفى الموانى الحارة الجميلة ذات العبير »

وهكذا تستمر القطعة ولكننا نظرب فعلا الى الصوت وان كنا لا نسمعه ولا نحس به ان المقارنة تجعلنا نشك فى أن لفن الكتابة عموداً فقرياً تقوم عليه وانه لا بد أن يكون لها فكرة وان وراء الفكرة ، شيء

نؤمن به عن اقتناع أو نراه يقينا وهذا ما يشكل الكلمات ويبتدعها لتعبر
عما نؤمن به وعما نراه ومن أمثلة ذلك تلك الجماعة المتنوعة من لامب
وبيكون بيربوم وهديسون وفيرنون لى وكونراد، وليزلى ستيفن وباتلر ووالتر
بيتر هذه الجماعة وصلت بالفكرة الى أبعد مدى كم ساعدت مواهب
مختلفة فى تشكيل الفكرة الى كلمات مكتوبة وكم عاقت ذلك وكم من
الكتاب وكأنهم - وهم يكتبون - ينحتون صخرا صلدا وكم من كتاب
آخرين يخلقون مع كل ربيع مواتية ولم يكن كل من بيلوك أو لوكاس أو
سكوير متعلقا بشيء فى ذاته بل كانوا يشاركون فى مشكلة العصر -
وهى انعدام الاقتناع التام الذى يرفع الأصوات السريعة الزائلة خلال
أجواء من ضباب(١) لغة أى فرد لوضعها على أرض صلبة حيث يقوم الزواج
الدائم والاتحاد المستمر أى على أرض من الواقع فيها الحياة وكما
أن كل التعاريف غامضة فى تحديدها فان المقال الجيد لا بد أن يقوم
على صفة دائمة يجب أن يسدل المقال ستائره حولنا وهذه الستائر
يجب أن تجمعنا من داخله ولا تلفظنا الى الخارج

(١) وتشير الكاتبة بذلك الى ضعف اللغة وهزالها نتيجة عدم الاقتناع (الترجمة)

(١) هموزيف كونراد

فجأة وبلا مقدمات ودون أن يمهد لنا حتى نرتب أفكارنا ونستعد لتأبينه ، رحل عنا ضيفنا ، وكان رحيلاً بلا وداع أو احتفال ، رحيلاً يتفق كل التوافق مع ظهوره الغامض

منذ سنوات طويلة مضت أقام خلالها في هذه الدولة كان يحيط به جو من الغموض يرجع الى مولده البولندي تارة والى ظهوره المعروف تارة أخرى ، ولتفضيله الحياة فى أعماق الريف من ناحية أخرى بعيداً عن تسمع الشائعات نائياً عن اتصال الزائرات وكان على من يريد استقاء أخباره أن يعتمد على المترددين (٢) العاديين الذين تعودوا قرع جرس الباب وهم الذين قرروا أن صاحب البيت المجهول كان يتمتع بخلق حميد وبعينين براقتين ويتكلم الانجليزية بلكنة أجنبية واضحة

وعلى الرغم من أن الموت عادة يشحذ الذكريات ويركزها فقد ارتبطت عبقرية كونراد بشيء أساسى ليس عارضا يصعب تفسيره فلقد كان أكثر الكتاب شهرة فى السنوات الأخيرة باستثناء كاتب واحد معروف وعلى الرغم من زيوع شهرته هذه لم يكن شعبياً كان بعض قرائه يقرءون له بعاطفة وتمعن ، وقد ترك الآخرون فى برود وبغير صقل وكان من بين قرائه أناس أشد تقابلاً فى الأعمار وأشد تناقضا فى المشاعر فطلاب المدارس فى الرابعة عشرة يدفعون طريقهم بين ماريات (٣) وسكوت (٤) وهنتى (٥) وديكينز (٦) فالتهموا كونراد مع الآخرين بينما المتحذلقون الذين

(١) كتب هذا المقال فى أغسطس ١٩٢٤

(٢) وتقصّد الكاتبة هؤلاء الباعة الذين يترددون على المنازل (الترجمة)

Marryat. (٣)

Scott. (٤)

Henty. (٥)

Dickens. (٦)

لا يرضيهم شيء والذين التهموا مع مرور الزمن طريقتهم في أعماق الأدب وهم يقبلون المرة تلو المرة قليلا من فتات الخبز الثمينة هؤلاء وضعوا كونراد بحذر على مائدة وليمتهم ويوجد مصدر واحد لصعوبة فهمه ولعدم الاتفاق على رأى فيه وهذا المصدر دائما في جمال أسلوبه يفتح المرء صفحاته ويشعر كما شعرت هيلين عندما نظرت الى مرآتها وأدركت انها - مهما فعلت - فلن تبدو قبيحة وهكذا كان كونراد موهوبا وهكذا علم نفسه وهذا هو التزامه نحو لغة غريبة بأن يتلطف فيها ويخطب ودها باستعمال لغة هي في الواقع أقرب الى اللاتينية منها الى الساكسونية حتى يبدو أنه من المستحيل عليه أن يكتب لغة عقيمة أو غير رشيقة أو غير معبرة واحيانا نرى أن لغته شاعرية في سكناتها وكذا في أسلوبه فاذا ماناجاها شخص بهرته بألوانها ومعانيها الرائعة وأضفت عليه عظمة ورفعة ومع ذلك فانه من غير المقطوع به أن كونراد كان من الممكن أن يتمتع بصيت أو بشعبية أكثر لو أنه كتب ما كتب بغير ذلك الاهتمام المتزايد بالمظاهر فقد قال النقاد ان ذلك الاهتمام بالمظهر يعوق الفكر ويقف حجرة عثرة أمامه ويبعده عنا وهم يدللون على ذلك بقطع مشهورة ينزعونها من متونها ويعرضونها في باقة من زهرات مع قطع أخرى من النثر الانجليزي كما يعترضون على كونراد بأنه يختال بنفسه وأنه عنيف متحذلق صوته (١) أغلى عنده من أنين الانسانية بآلامها هذا النقد معروف وهم في نقدهم هذا أشبه بالصم الذين يعلقون على سيمفونية فيجارو عند عزفها فهم يرون العازفين ولكنهم يسمعون صريرا مرعبا يأتيهم من بعيد ان ملاحظاتهم مضطربة وطبيعي أنهم ينتهون الى أن أهداف الحياة كانت تحظى برعاية أكثر لو أن هؤلاء الخمسين عازفا قطعوا أحجارا ليرصف بها الطريق ان الجمال يعلم والجمال يهذب ، ولكن كيف نقنعهم بذلك اذا كان صوت الجمال لا يصل الى سمعهم فهم صم لا يسمعون ؟

ان كونراد يجب أن يقرأ في جملته ولا يقرأ أشتاتا متفرقة ومن الطبيعي أنه سوف يكون مجهولا وغير معروف بالنسبة لهؤلاء الذين في آذانهم وقر فهم لا يسمعون موسيقاه العنيدة المظلمة في نظرهم على ما فيها من تحفظات وكبرياء وعظمة واصرار ولا يدركون في كتابات كونراد كيف يكون الخير أفضل من الشر وكيف يكون الاخلاص ميزة

(١) وتهدف الكاتبة من هذا التعبير الى أن مشاعر كونراد في نظره أهم وأغلى من مشاعر الانسانية وآلامها (الترجمة)

طيبة وكذلك الأمانة والشجاعة ، ومع ذلك يبدو أن كونراد - فى الظاهر - يهتم بجمال الليل فى البحر ولكنه عمل غير محمود أن ننزع هذه المعانى من مكوناتها فذلك معناه كأننا نجفف تلك المعانى فى أطباقنا الصغيرة بعيدا عن سحر اللغة وجمالها البهيم فهى تفقد قوتها الدافعة التى هى من خصائص نثر كونراد الدائمة

استطاع كونراد بفضل شىء عنيف - هو من صفات القائد والربان - أن يترك أثرا عميقا فى الصبية والصغار وحتى انتهى كونراد من كتابة نوسترومو (١) كانت شخصياته - كما فهمها الصغار على عجل منهم - بسيطة وتتمتع بالشجاعة وعلى الرغم من ذكاء تلك الشخصيات ودهائهم وطريقة الكاتب غير المباشرة فى الكتابة كانوا يبدوون وكأنهم ملاحون تعودوا على الوحدة والهدوء كما كانوا فى صراع مع الطبيعة ولكنهم مسالمون مع البشر وكانت الطبيعة عدوا لهم انها هى التى أبرزت صفات العظمة والشرف وهى صفات تلائم الرجال ، كما أنها هى التى احتضنت فى خلجان آمنة فتيات جميلات عابثات لا يدري أصلهن أحد حتى بلغن

وفوق كل ذلك فهى الطبيعة التى أظهرت تلك الشخصية المعقدة التى حنكتها التجارب مثل كابتن والى وسنجلتون العجوز وهما شخصيتان غامضتان ولكنهما عظيمتان وهما بالنسبة لكونراد من خيار البشر ولم يكن يمل مديح من يرفع شأنه من الرجال

« لقد كانا قوين قوة من لا يعرف الشك ولا يتعلق بالآمال وكان كل منهما متبرما ومع ذلك كانا يتحملان المكاره - كانا مشاغبين ومتفانيين - متمردين ومخلصين ولقد حاول حسنو الظن من الناس تصوير هذين الرجلين بأنهما رجلان يكدحان فى سبيل لقمة العيش وهما اذ يعملان يخافان على حياتهما ومع ذلك فهما فى الواقع رجلان عرفا العمل الشاق والحرمان والقسوة ، والفجور - ولكن لم يعرف الخوف طريقه الى قلبيهما اللذين لم يحملوا غلا لأحد ؛ وهما رجلان يصعب مراسهما ولكن من السهل اقناعهما اذ لا يرتفع لهما صوت ولكنهما يحتقران فى نفسيهما الأصوات المشفقة التى تندب حظهما انه مصير فريد وخاص بهما ان المقدرة على تحمل هذا المصير تبدو فى

نظرهما امتيازاً للصفوة المختارة ! عاش جيلهما حياة غير واضحة وان كان لاغنى عنها ولم يتذوقا حلاوة الحب أو يشعرا بسكينة البيت وماتا متحررين من ضيق القبور إذ كان البحر لهما لحداً انهما من الأبناء الخالدين للبحر الغامض «

وهكذا كانت شخصيات كتبه الأولى مثل لورد جيم (١) وتايفون (٢) وعبد النرجس (٣) والشباب (٤) وعلى الرغم من التغيرات والاتجاهات فان هذه الكتب قد استقرت في مكان أمين بين كتبنا التقليدية وقد بلغت تلك المكانة السامية بفضل العناصر التي لا تتوافر في كتب المغامرات البدائية كما سماها ماريات (٥) أو فينمور كوبر (٦) وذلك لأنه من الواضح أننا - لكي نعجب بمثل هؤلاء الرجال وبمثل هذه الأعمال عاطفياً أو من أعماق القلوب أو بحماسة المحبين ونحتفى بها - يجب علينا أن نتحلى بالرؤيا المزدوجة لكي نكون في داخل الشخصية وفي نفس الوقت خارجها وحتى نعجب بصمتهم يجب على المرء أن يكون قادراً على شرح شكواهم وحتى نعجب بقوة احتمالهم يجب علينا أن نكون مرهفي الحس لنشعر بما يعانونه من آلام ويجب أن يكون المرء مستعداً لكي يعيش على قدم المساواة مع آل والى وسنجلتون ومع ذلك يخفى عن عيونهم التي تملؤها الشكوك نفس الصفات التي تمكن المرء من تفهمهم وكونراد وحده هو الذي استطاع أن يحيا تلك الحياة المزدوجة وذلك لأن كونراد كان مكوناً من شخصيتين ربان بحري وفي نفس الوقت تعيش في داخله تلك الشخصية المحللة الدقيقة المهذبة التي لا ترضى عن شيء وتلك الشخصية هي مارلو الذي وصفه كونراد بقوله من أكثر الناس حصافة وتفهماً

كان مارلو واحداً من هؤلاء الذين يراقبون الناس وهم سعداء في عزلتهم ولم يكن يستمتع إلا بالجلوس على ظهر السفينة في خور غير معروف في نهر التيمز يدخن ويستعيد ذكرياته ، يدخن ويتأمل وهكذا

Lord Jim.	(١)
Typhoon.	(٢)
The Nigger of The Narcissus.	(٣)
Youth.	(٤)
Marryat.	(٥)
Fenimore Cooper.	(٦)

أخذ ينفث دخانا حتى التف حوله وكأن حلقاته كلمات عذبة وهكذا أصبحت ليالى الصيف عنده مليئة بالغيوم من دخان التبغ كان مارلو يكن الاحترام فى قرارة نفسه لجميع الرجال الذين أبحروا معه كما رأى الجانب الضاحك منهم وأظهر ما خفى منهم ووصف تلك المخلوقات الهائجة - وصف المتمكن - وهى تنقض بنجاح على الجنود الغلاظ ذوى الخبرات كما كان مولعا بملاحظة عاهات البشر ؛ وكانت « قفشاتة لا ذعة ولم يكن مارلو يعيش متوجا بدخان سسيجارة فقط بل كان معتادا كذلك أن يفتح عينيه فجأة ليتفحص كومة من القمامة فى ميناء أو منضدة فى دكان فيدرك كنهها وغامض مكنونها وكأنه ينظر من خلال هالة من نور وذلك بعين فاحصة ومحللة تلك كانت من خصائص مارلو

وكان مارلو يقول ان هذه القدرة كانت تحل به فجأة وعلى سبيل المثال كان يسمع ضابطا فرنسيا يتململ قائلا «يا الهى كيف يمر الوقت» فيعلق مارلو على ذلك بقوله تلك عبارة لا يمكن الا أن تكون عبارة عادية ولكن الافصح بها صادف لحظة رؤيا عندى انه لمن العجب أن نعيش حياتنا بعيون نصف مغمضة وبآذان بليدة وبأفكار راكدة وعلى الرغم من ذلك لا يوجد بيننا الا القليل هم الذين لم يدروا بهذه اللحظات النادرة من اليقظة عندما نرى ونسمع وندرك الكثير جدا بل ندرك كل شئ ، فى ومضة قبل أن نغرق ثانية فى سبات جميل فرفعت اليه ناظرى عندما تكلم فرأيته وكأنى لم أره من قبل «

وهكذا كان يصور لنا اللوحة بعد الأخرى عن تلك الخلفية (١) المجهولة أغلبها عن السفن فى مرساها سفن وهى تشق طريقها فى العاصفة سفن فى الميناء كما صور الغروب والفجر وصور الليل والبحر فى كل مظاهره لقد صور جمال الموانى الشرقية وسحرها اللألاء وصف الرجال والنساء ووصف بيوتهم وتصرفاتهم كان دقيق الملاحظة ولا يحجم عن شئ وكانت مدرسته الاخلاص المطلق لمشاعره وأحاسيسه التى كتب عنها كونراد ان المؤلف لا بد أن يتمسك بها فى أشد لحظات التجلى للخلق الفنى وفى هدوء تام كان مارلو يقول أحيانا مترحما ببعض عبارات التأمين التى تذكرنا بكل ذلك الجمال والرونق الذى أمام أعيننا وبذلك الظلام الذى يحيط بظلام الخلفية

وباختصار يمكن للمرء أن يميز بين مارلو - الذى يعلق - وبين كونراد الذى يخلق وهذا يؤدي بنا - وان كنا على حافة خطرة - أن نفسر هذا التغيير الذى أفصح عنه كونراد عندما انتهى من آخر قصة فى مجلد تاييفون « تغيير ماهر فى طبيعة الايحاء » وببعض التغيرات التى طرأت على العلاقة بين صديقين قديمين بدا لي بطريقة ما أنه لم يعد فى الدنيا شئ أكتب عنه »

ان كونراد - ودعنا نفترض أن كونراد المبدع هو الذى قال ذلك وهو يلقي بنظرة آسفة على القصص التى كتبها شاعر - كما يبدو أنه لن يصف أكثر ابداعا مما وصف به العاصفة فى **عبد النرجس** أو يضيف على خصال البحارة البريطانيين المزيد من الولاء أكثر مما قدمه من قبل فى قصتي **الشباب ولورد جيم** انه اذا مارلو المعلق هو الذى ذكره بأن من طبيعة الأيام أن تتقدم السن بالمرء فيقلع عن الملاحة ويكتفى بالجلوس على سطح السفينة ينفث الدخان ولكنه ذكره بأن تلك السنين الشاقة قد رسبت ذكرياتها بل ذهب الى أبعد من ذلك وربما لوح له بأنه ما دام قد كتب آخر ما يمكن أن يقال عن كابتن والى وعلاقته بالعالم ، فان هناك على الشاطئ عددا من الرجال والنساء وان كانت علاقاتهم ذات طابع أكثر شخصية الا أنها تستحق الدراسة واذا افترضنا أن هناك مجلدا عن هنرى جيمس على ظهر السفينة وأعطى مارلو ذلك المجلد لصديقه ليقرأه وهو فى فراشه فان هناك ما يؤيد هذا الافتراض اذ كتب كونراد فى عام ١٩٠٥ مقالا رفيعا عن ذلك الأستاذ

وعلى ذلك فقد كان مارلو - معلقا - هو الشريك المسيطر لبضع سنوات فى كتب كونراد : **نوسترومو** و **الفرصة** (١) و **السهم الذهبى** (٢) وتمثل هذه الكتب المعاهدة بين مارلو وكونراد والتى أثبتت أنها أغنى مراحل تلك المعاهدة ان القلب البشرى - كما يقول الناس - أكثر تعقيدا من الغابة فله عواصفه وله مخلوقاته الليلية واذا أردت فى نطاق أنك قصاص أن تختبر الرجل فى كل علاقاته فان الخصم الحقيقى هو الرجل وذلك لأن محنة الرجل فى المجتمع لا فى وحدته فهناك دائما - بالنسبة اليهم - فتنة متميزة فى الكتب حيث لا تقع تلك العين الذكية على زبد البحر فحسب بل تنفذ الى قلب الانسان فى تعقيداته

Chance. (١)

The Arrow of Gold. (٢)

ولكن لا بد من الاعتراف بأنه اذا كان مارلو قد نصح كونراد بأن يغير من زاوية رؤياه فان هذه النصيحة تعتبر جريئة وذلك لأن رؤيا القصاص معقدة متخصصة فهي معقدة لأنه وراء شخصياته منفصل عنها فيجب أن يكون هناك شيء ثابت يربط القصاص بينه وبين شخصياته ، وهي متخصصة لأنه مادام هو بمفرده فان احساسه واحد أما مظاهر الحياة التي يؤمن بها باقتناع فهي محدودة للغاية وعلى ذلك فهذا التوازن الدقيق من السهل الاخلال به وبعد أن تجاوز كونراد منتصف الطريق لم يكن في امكانه أن يخلق شخصيات تتلاءم مع بيئتها وهو لم يؤمن في أواخر كتاباته بشخصياته التي كانت أكثر تحضراً، كما آمن ببهارته في انتاجه الأول فعندما كان يحاول أن يشير الى علاقاتهم بعالم الروائيين الآخر غير المرئي عالم القيم والمبادئ لم يكن واثقا من قيمه تلك القيم فهو يكرر المرة تلو المرة عبارة واحدة « انه يدير عجلة القيادة بعناية » وهذه العبارة تحمل في طياتها معنوياته خاصة اذا جاء ذكرها في نهاية عاصفة ولكن في هذا العالم المعقد والذي يزداد تزاوحا تأتي تلك العبارة الرشيقة مناسبة ان الرجال والنساء المعقدين في أمزجتهم وعلاقاتهم لن يسلموا بهذا الحكم المختصر وهم اذا فعلوا فان أهم ماتنطوى عليه نفوسهم لا يخضع لهذا الحكم المختصر ومع ذلك فانه من الضروري لعبقرية كونراد - بكل ما فيها من ترف وقوة خيال - أن يكون لها قانون ما وبمقتضاه نحكم على شخصياته وظلت عقيدته تتلخص أساسا في أن هذا العالم المتمدين وما فيه من أناس وأعين يقوم على « قليل من الأفكار البسيطة » ولكن أين نجدهم في عالم الأفكار والعلاقات الشخصية ؟ فليس هناك صواري في حجرات الجلوس وأن الاعصار وان كان يسبر غور البحارة الا أنه لا يضع خبرات السياسيين ورجال الأعمال موضع الاختبار ان البحث عن هذه العمدة دون العثور عليها يدل على أن عالم كونراد في أواخر أيامه كان يحيطه جو من الغموض عن غير قصد جو غير مقنع وغير بهيج وهو لذلك محير ومتعب ونلمس بغير وضوح الحصال النبيلة القديمة ذات الرنين وهي الاخلاص والرحمة والشرف والقيام بالخدمات كل هذه صفات جميلة دائمة ولكنها الآن قد أعياها التكرار كما لو كان الزمن هو الذي تغير ربما كان مارلو هو المخطيء ان طبيعة عقله بطيئة بعض الشيء فهو قد أطال الجلوس على سطح السفينة وكان عظيما في مناجاة نفسه ، غير أنه كان أقل مهسارة في تبادل الحديث ، وتلك « لحظات الرؤى تومض وتخبو لا تؤدي واجب المصباح الثابت الذي يضيء حركة الحياة وسنواتها الطويلة المتتابعة وفضلا عن ذلك كله

فلم يأخذ مارلو في اعتباره كيف يؤمن - اذا أراد كونراد أن يبدع -
بما يكتب أولا وقبل كل شيء

ومع كل ذلك اذا كنا نريد أن نخوض في كتاباته الأخيرة لنحظى
بغنائم وفيرة فان عددا كبيرا من مسالك تلك الكتابات سيبقى بالنسبة
لغالبيتنا غير مطروق

ان كتبه الأولى - الشباب ، ولورد جيم ، والاعصار ، وعبد النرجس
- سوف نقرأها من أولها الى آخرها واذا تار السؤال ما الذي ظل حيا
من كتبه وأين نضع كونراد بين صفوف الروائيين فان هذه الكتب بجوها
الذي ينقل اليها شيئا قديما صادقا كل الصدق ظل مختبئا ولكنه
انكشف الآن ان هذه الكتب سترد على فكرنا فتبدو مثل هذه الأسئلة
وتصبح تلك المقارنات غير ذات موضوع انها كتب متكاملة فاضلة
جميلة تبرز في ذاكرتنا كما تبرز أول نجمة متلألئة في ليالي الصيف
الدافئة بطيئة في جلالها حتى تتلوها نجوم ونجوم

رؤى آراء النقاد المعاصرين

كثيراً ما كان الشخص المعاصر يصدىء فى المقام الأول بأن اثنين من النقاد فى مجال واحد وفى وقت واحد ينقدان كتاباً واحداً ويخرج كل منهما برأى مخالف للآخر كل المخالفة فىبينما أحدهما يقرظ الكتاب كقطعة رائعة من الأدب الانجليزى نرى الثانى - فى نفس الوقت - يعتبره مجرد مجموعة أوراق عديمة القيمة وينصح بأن تلقى طعاماً للنار ومع ذلك فكلاهما متفق بالنسبة لميلتون (١) وكيٲس (٢) من الشعراء القدامى. وهما بالنسبة للشاعرين يعرضان احساساً مرهفاً ودون تردد يظهران حماسة صادقة ولكنهما عندما يناقشان أعمال الكتاب المعاصرين فان المناقشة تنقلب الى صفعات والكتاب - موضوع هذا الحديث - قد نشر منذ شهرين ، وصادف رأين متعارضين ، فهو مساهمة خالدة فى الأدب الانجليزى وهو فى نفس الوقت مجرد خليط من الادعاءات الرخيصة ، وحادثة هذا الكتاب تفسر لنا هذا التناقض ، ولماذا يختلف النقاد فيه .

ان التفسير غريب فهو بالنسبة للقارىء أمر يبلبل أفكاره ويشوشها وهو - أى القارىء - يود ان ينتقى كتابه من بين فوضى الأدب المعاصر ، وهو كذلك بالنسبة للكاتب الذى لديه الرغبة الطبيعية لكى يعرف ما اذا كان عمله الذى أنتجه بالجهد والعرق وأخرجه من الأعماق ، يستحق فعلاً ان يكون مصباحاً منيراً من بين مصابيح الأدب الانجليزى أو ان عمله هذا شىء جدير بأن يلقى به فى النار ليطفئها ولكننا اذا وضعنا أنفسنا فى موضع القارىء لتتعرف على مشكلته أولاً ، فان حيرتنا لن تطول - وقد حدث نفس الشىء مراراً من قبل - فكم سمعنا عن أطباء يحملون على دواء جديد ويصرون على وصف الدواء

Milton. (١)

Keats. (٢)

القديم ، ويحدث هذا الصراع مرتين في السنة في المتوسط - في الربيع وفي الخريف - منذ أيام روبرت الزمير (١) أو في عصر ستيفن فيلبس (٢) لقد عم بطريقة ما جو المتناقضات كما عم التعارض بينا الناضجين من الناس كم هو رائع ذلك الاختلاف في الرأي وكم يكون اتفاقهما نقمة علينا فاذا ما اتفق الجانبان على رأى واحد ليعلنا أن كتاب بلانك (٣) انما هو قطعة رائعة بغير شك ، فهذا أمر من شأنه أن يواجهنا بضرورة العزم عما اذا كان علينا أن نؤمن على قرارهما الى حد أن نشترى هذا الكتاب حتى ولو كان ثمنه نصف جنيه ان لكل من الناقدين شهرته ، وآراؤهما تصدر عنهما بمحض الاختيار ومن هنا سوف تتقوى وتتصلب كأعمدة من النثر الواعى الذى يتضمن عظمة الآداب فى انجلترا وأمريكا

هذا الاختلاف انما هو تهكم غريزى أو بعض من عدم الثقة فى العبقرية الحديثة التى تجعلنا نقره ، وتبعاً لذلك اذا كان الناقدان سيتفقان فى الرأى ولا توجد اشارة تنبىء بذلك - فان نصف الجنيه يعد مبلغاً ضخماً لانفاقه فى شراء الكتاب تلبية لهذه الحماسة العصرية خاصة أنه فى الامكان الوصول الى نفس النتيجة والفائدة المرجوة باستعارته من مكتبة عامة . ولا زال السؤال قائماً ولنوجهه بشجاعة الى النقاد أنفسهم أليس لديهم ما يوجهونه الى القارئ الذى لا يفضل كاتباً معيناً ممن توفوا ، وانما يتألم لتشككه بأن تقديره للمتوفين لا بد أن يتصل اتصالاً حيويًا عن طريق تفهمه للمعاصرين ؟ ان نظرة سريعة الى طبيعة القراء تدلنا أن الناقدين قد اتفقا على أن مثل هذا القارئ غير موجود وما فائدة حكمهما اذا ما تعلق هذا الحكم بكتب حديثة ؟ لن يساوى حكمهما هذا ، طبعا ، نصف الجنيه الذى يجب أن يدفعه القارئ لشراء الكتاب ، ان النقاد يعرضون من مكنون تجاربهم أمثلة سيئة عن أخطاء الماضى ، ولو كانت جرائم النقاد قد وجهت ضد الأدباء الذين ماتوا لفقدوا مكانتهم وضاعت شهرتهم ان النصيحة الوحيدة التى يمكن أن يقدمها النقاد هى احترام فطرة الفرد نفسه ، وأتباعها بغير وجل وبدلاً من اخضاعها لسيطرة اى ناقد أو مستعرض على قيد الحياة فانه يختبر تلك الفطرة بالقراءة واعادة القراءة للقطع الممتازة للسابقين .

Robert Elsmere. (١)

Stephen Phillips. (٢)

Blank. (٣)

ومع شكرنا المتواضع للنقاد فإنه لا يسعنا إلا أن نقول أن الأمر لم يكن كذلك على الدوام وعلينا أن نعتقد أنه فيما مضى لا بد أنه كانت هناك قاعدة أو نظام يحكم غالبية جمهور القراء بطريقة ليست معروفة اليوم وليس معنى ذلك أن كلا من النقاد العظام أمثال درايدن (١) وجونسون (٢) وكوليريدج (٣) وأرنولد (٤) ، كان حكما معصوما من الخطأ للعمل المعاصر وقراره يدمغ الكتاب دمغة لا تنمحي ويجنب القارئ مشقة الوصول الى قيمة الكتاب بنفسه ان اخطاء هؤلاء الرجال العظام عن معاصريهم من الجسامة والوضوح بحيث لا تستحق التسجيل ولكن لمجرد وجودهم تأثير في الصميم وكان من الممكن لهذا التأثير - وهذا افتراض ليس خياليا - أن يتحكم في اختلاف القراء في الرأي وهم حول مائدة الطعام يتجادبون أطراف الحديث كيفما اتفق حول كتاب ظهر حديثا كما يمنح وجود هؤلاء النقاد أحاديث هؤلاء القراء المتناثرة عن هذا الكتاب سلطانا نبحت نحن عنه الآن وتكون المدارس المختلفة قد تناولته بالمنظرة الحامية كالعادة ولكن يوجد في أعماق وعي القارئ احساس بأن هناك على الأقل رجلا واحدا وضع مبادئ الأدب نصب عينيه هذا الرجل اذا عرضنا عليه نقدا فيه انحراف (٥) أو شذوذ عابر أسبغ على هذا الانحراف صفة الدوام ودمغه بسطان قلمه وأنزله بين النقيضين اما الى جانب المديح واما الى جانب التجريح. ولكن عندما نكون بصدد خلق ناقد فعلى الطبيعة أن تكون سخية والمجتمع ناضجا ، فالمجتمعات المتناثرة حول الموائد في العالم الحديث،

(١) Dryden.

(٢) Johnson.

(٣) Coleridge

(٤) Arnold.

(٥) ولكن نبرهن كيف كان هذا الانحراف عنيفا نورد فيما يلي اقتباسين يشيران

الى ذلك قصة عبيط **Told by an idiot** تجب قراءتها كما تقرأ

المصافة **Tempest** لشكسبير وكما نقرأ رحلات جاليفر **Galliver's Travels**

فاذا كانت القدرات الشعرية عند الانسة ماکولى - مؤلفة قصة عبيط - في الواقع أقل

من قدرات شكسبير ، واذا كان تهكمها أقل عظمة من مؤلف رحلات جاليفر ، فان انصافها

وحكمها لا يقلان نبلا عنها (جريدة الديلي نيوز) **Daily News** وفي اليوم التالي نقرأ

مايلي «أما عن باقى قطعة الشعر من قصيدة الارض المفقودة **The Wasteland** فلو كان

الشاعر اليوت قد كتبها باللغة الدارجة كلها كانت قصيدته - كما هي الآن - أوراقا

عديمة القيمة بالنسبة لغير علماء الاجناس وغير رجال الادب»

جريدة المانشستر جاردريان **Manchester Guardian.**

ودوامات التيارات المختلفة هي التي تشكل مجتمع عصرنا وكل هذه المظاهر يجب أن يسيطر عليها عملاق ذو أبعاد خيالية ثم أين يوجد ذلك العملاق الذي يحق لنا أن ننتظره؟ فما لدينا الآن إنما هم مستعرضون (١) وليسوا نقادا فكأنما لدينا مليون من رجال الشرطة الأكفاء الصالحين ولكن ليس لدينا قاض واحد لدينا رجال ذواقة ذوو علم ومقدرة يحاضرون الصغار ويحتفلون بذكرى الموتى ولكن النتيجة دائما أن مقدرتهم وانتاجهم إنما هو بمثابة تجفيف للأنسجة الحية من الأدب وتحويلها الى شبكة من العظام الصغيرة وبذلك يسلبون منها الحياة لأنهم ليسوا بنقاد أين نجد نشاط درايدن وحيوية أو كيتس وسلوكه الرقيق الطبيعي ان نظرتة صافية وعقله سليم وأين فلوير وقدرته الفائقة وحماسه العظيم أين كوليريدج فهو فضلا عن كل ذلك يعي في حافظته الشعر ويخرج من حين الى حين أحكاما عامة عميقة سداها العقل عندما يتوهج بالاحتكاك مع القراءة وكأنها من روح الكتاب نفسه .

وعلى كل هذا اتفق النقاد بلا تردد أن الناقد الكبير - كما يقولون - من أندر المخلوقات ولكن اذا أظهرت المعجزة واحدا منهم فكيف نصونه وعلى أى شيء نغذيه ، فاذا لم يكن النقاد العظام هم في الواقع شعراء فطاحل فانهم يخلقون من موفور ما لدى الطبيعة من قدرات وملكات حرمت منها سائر البشر ويجب أن يكون هناك رجل عظيم يزكى ، ومدرسة تؤسس أو تهدم ولكن عصرنا فقير الى حد العوز من كل ذلك لم يظهر اسم واحد يسيطر على الباقيين ليس هناك أستاذ يفخر الصغار بالتلمذ على يديه لقد انسحب هاردي منذ زمن من الميدان ، وهناك شيء دخيل في عبقرية كونراد لم تجعل منه ذا فاعلية كما جعلته معبودا مبجلا ومحلا للاعجاب ولكنه مبتعد ومترفع أما عن الباقيين فعلى الرغم من أنهم كثيرون نشيطون وفي أوج انتاجهم الخلاق ، فليس من بينهم من يؤثر تأثيرا ملحوظا على معاصريه ، أو يتجاوز يومنا هذا وينفذ الى المستقبل القريب الذي يحلو لنا أن نسميه بالخلود اذا اتخذنا قرنا من الزمن ليكون محلا لاختبارنا وتساءلنا كم من الأعمال أنجزت في انجلترا في تلك الحقبة ولا زالت باقية ، فسوف نجيب بأننا لا نستطيع الاتفاق على كتاب واحد فحسب بل سوف نختلف حتى على وجود هذا الكتاب . وذلك لانه عصر قطع قصيرة وفقرات قليلة ، وصفحات معدودات ، وفصل

هنا وفصل هناك ، بداية هذه القصة ، ونهاية تلك هذا هو كل الذى يمكن ان نتقدم به للمقارنة . ولكن هل يمكن ان ندخل التاريخ بمجموعة من صفحات مفككة ، او نطلب من قراء تلك الايام - وأمامهم كل هذا الأدب - أن « ينقوا » تلك الأكوام الهائلة الرخيصة من أدبنا بحثا عن لآلىء دقيقة ؟ هذه هى الأسئلة التى يمكن للنقاد أن يطرحوها بحق على أصدقائهم من الكتاب والقصاصين والشعراء

والسبب فى هذا الفقر يرجع أولا الى أن عبء التشاؤم الذى يخيم على العصر كاف لكل هذا التناقض نعم انه عصر هزيل ونكرر هذا كثيرا لنعلل فقر هذا العصر ولكن وبكل صراحة اذا قارنا عصرنا بآخر لكانت المقارنة فى غير صالحنا بصورة مزرية . ويفرلى (١) والرحلة (٢) وكوبلاخان (٣) ، ودون جوان (٤) ، ومقالات هزليت (٥) ، أو كبرياء وتعصب (٦) ، هيبريون (٧) وفك أسر برومينوس (٨) كل هذه الكتب نشرت ما بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢١ ولم يكن ينقص عصرنا الانتاج ولكن اذا بحثنا عن الروائع بدا لنا أن المتشائمين كانوا على حق فى الظاهر ويبدو أن عصرنا تميز بالعبقرية يعقبه عصر من المحاولات تمرد واسراف فى الاستقامة والعمل الشاق ان كل الشرف طبعا لهؤلاء الذين أرسوا قواعد الأدب ولكن اذا كنا نسعى الى الروائع فإين نبحت عنها ؟ فمثلا فى مجال الشعر نرى أن قليلا من الشعراء فقط هو الذى سيخلد قليلا من شعر السيد يتس (٩) والسيد ديفز (١٠) والسيد دى لامار (١١) وطبعا للسيد لورنس (١٢) لحظات من العظمة ولكن الى جانبها ساعات من أشياء تختلف تماما عن العظمة والسيد بيربوم فى طريقه الخاص كامل ولكنه طريق ليس عظيما .

Waverley.	(١)
Excursion.	(٢)
Kubla-Khan.	(٣)
Don-Juan.	(٤)
Hazlitt's Essays.	(٥)
Pride Prejudice.	(٦)
Hyperion.	(٧)
Prometheus Un bound.	(٨)
Yeats.	(٩)
Davies.	(١٠)
De Lamare.	(١١)
D.H. Lawrence.	(١٢)

فقرات فقط من كتاب « بعيدا وقديما » (١) هي التي تدخل التاريخ وكان عولص (٢) كارثة مشهورة لأنه ضخم في جرأته وعنيف في كوارثه. وهكذا ، نبحت ومنتقى ، ثم نختار هذه الآن ونختار تلك لنرفعها للعرض ، لنسمع من يقرظها فيعلى شأنها أو يهاجمها لينتقص من قدرها وفي النهاية علينا ان نلتقى بالمعارضة وعلى الرغم من هذه المختارات نجد اننا نتفق مع النقاد على أنه عصر غير قادر على الجهد المستمر ، عصر قد تناثرت فيه الكسر ولا يمكن مقارنته جدياً بالعصر الذي سبقه

ولما تنتشر الآراء انتشارا عاليا ونرددها بشفاها سيأتي علينا وقت ندرك فيه تمام الادراك أننا لا نؤمن بكلمة واحدة مما قلنا ونحن نردد انه عصر قاحل مجذب وانه يجب علينا أن ننظر الى الماضي بحسرة ، وفي نفس الوقت نرى بشائر الربيع ان الحياة لا تنقصها الألوان فالتليفون « الذي يقطع علينا برنينه اكثر المناقشات خطورة ويختصر الملاحظات الثمينة ، فيه جمال في ذاته وحديث الناس الدارج ليس لهم فيه أى نصيب من الخلود ومع ذلك يفصح هذا الحديث عما يدور بخلداهم ، ولهذا الحديث أساس غالبا ما يكون من الأضواء والطرقات والبيوت والآدميين سواء كانت جميلة أو قبيحة ولكن ينسج هذا الأساس نفسه حسب مقتضيات الحالة فهذه هي الحياة والحديث عن الأدب علينا أن نحاول الفصل بين الحياة وبين الأدب ونبرز الانقلاب السريع من التفاؤل ضد الاستصواب السامى والتميز الأدق من التشاؤم

ان تفاؤلنا اذا انما هو تفاؤل فطرى ، ينبع من اليوم الجميل والشراب والحديث ينبع من حقيقة ما تقدمه الحياة من كنوز كل يوم أكثر مما يستطيع من كان طلق اللسان أن يعبر عنه ، وعلى قدر تقديرنا لمن ماتوا فاننا نفضل الحياة كما هي وهناك شيء ما يتعلق بالحاضر لا نرضى عنه بديلا ، حتى لو منحنا حق الاختيار لكى نعيش في العصور الماضية. وللأدب الحديث بكل عيوبه سيطرته علينا وله سحره وجماله انه أشبه ما يكون بالعلاقة التي ننحى عليها باللائمة وننال منها كل يوم ومع ذلك لا غنى لنا عنها ان لهذا الأدب صفة عزيزة في الكيان الذي نحن عليه ، في الكيان الذي اوجدناه ، في الكيان الذي نعيشه ونحياه ، ومهما كان عظيما وله جلاله ، فانه يصبح غريبا علينا لو أنه لم ينبع

Far Away and Long Ago (١)

Ulysses. (٢)

من نفوسنا ولم يكن هناك جيل أحوج في المحافظة على معاصرنا من جيلنا اننا قد سلخنا عن أسلافنا وبعدت الشقة بيننا وبينهم ان اختلالا في التوازن وانفصال جموع البشر عن ماضيهم ، قد هز التسلسل التاريخي من أساسه وجعل منا غرباء عن ماضيينا كما خلق فينا الاحساس المرهف والتعلق المستميت بحاضرنا اننا نجد أنفسنا كل يوم نعمل أشياء أو نقول قولاً أو نخاطر على أذهاننا أفكار كانت تبدو مستحيلة لأبائنا واننا نشعر بالاختلاف الذي لم يشر إليه أحد من قبل باحساس مرهف أكثر من التشابه الذي عبر عنه أصدق تعبير ان الكتب الجديدة تجذبنا الى قراءتها على أمل أن قراءتها ستعكس الوضع الجديد لاتجاهاتنا وهذه الأفكار وتلك الاختلافات والتجمعات العرضية والأشياء المتناقضة تفرض نفسها علينا وتجعلنا نحس بها وكأنها أمور جديدة - وكما يفعل الأدب فان هذا الاحساس يحفظ هذه التغيرات والمتناقضات ومن هنا يأتي تفاؤلنا فلم يكن هناك عصر أكثر غنى من عصرنا في كتاب عقدوا العزم على ابراز هذه الخلافات التي تفصل بيننا وبين ماضيينا وقد يكون في ذكر الأسماء ما يثير البغضاء ولكن القارئ العادي اذا انغمس في الشعر وفي القصة وفي السير فانه قلما لا يتأثر بشجاعة واخلاص - وفي كلمة واحدة - لا يتأثر بالجدة الشاملة التي عمت كل شيء في عصرنا ولكن نشاطنا مقصر قصورا عجيبيبا ان الكتاب تلو الكتاب يتركنا بنفس الاحساس بالوعد الذي لم يتحقق ، بالفقر العقلي ، بالنبوغ أو بالذكاء الذي أقتطف من الحياة ولكن لم يتحول الى أدب . ان الكثير من جيد العمل المعاصر يبدو عليه وكأنه قد أخرج تحت ضغط ووضع في اختصار بارد لا حياة فيه حفظ بمهارة خارقة حركات وتغيرات الأشخاص بينما هم يمرون عبر التاريخ . ولكن سرعان ماخبا الوميض وخلق فينا سخطا عميقا وبقدر ما كانت المتعة عظيمة كانت الحسرة حادة .

وبعد كل هذا نجد أنفسنا قد عدنا الى البداية ، نتذبذب من النقيض الى النقيض ، ففي لحظة نصبح متحمسين وفي التالية نعود كما كنا متشائمين ، عاجزين عن الوصول الى أية نتيجة حول معاصرنا لقد طلبنا من الناقد المعونة ولكنهم استعاذوا بالله من المهمة والان - لقد آن الأوان الذي علينا فيه أن نتقبل نصيحتهم نصحح هذه المتناقضات على ضوء روائع الماضي اننا نشعر بأننا منقادون اليهم مدفوعون لا بحكم هاديء وثيد بل بحاجة ملحة لنرسي عدم استقرارنا على قواعد أمانهم ولكن صدمة المقارنة بين الماضي والحاضر كانت -

بأمانة - مشوشة بادىء الأمر فمما لا شك فيه ان هناك بلادة فى الكتب العظيمة وهناك هدوء لا يتخرجون منه فى الصفحة تلو الصفحة من كتب وردزورث (١) وسكوت (٢) وجين أوستن (٣) هو فى الواقع مهديء للاعصاب الى حد السبات العميق فالفرص تسنح أمامهم ومع ذلك يهملونها وتتجمع الظلال واللمحات الذكية ولكنهم يتجاهلونها ويبدون كأنهم يرفضون - عن قصد - ارضاء هذه المشاعر التى حركها وأثارها المحدثون بعنف ذلك الاحساس بالرؤيا وبالسمع وباللمس وفوق هذا كله الاحساس بالآدمى بما فى أعماقه وبأدراكه المتباين وبتعقيده ، وبمتهاته ، وباختصار الاحساس بنفسه ويوجد القليل من هذا الادراك أو الاحساس فى أعمال ورد زورث وسكوت وجين أوستن فمن أين اذا نبع الاحساس بالأمان وبالتدرج كيف وصل الينا مشرقا ومتكاملا ؟ ان قوة ايمانهم واقتناعهم هى التى تفرض نفسها علينا ان ذلك واضح وضوحا كافيا فى أعمال ورد زورث ذلك الشاعر الفيلسوف ، وانه يصدق - بنفس الدرجة - على سكوت غير المكترث والذي يكتب بلا عناء روائع ليبنى قصورا (٤) قبل الافطار ، كما يصدق على جين أوستن المتواضعة التى تكتب سرا وبهدوء لتمنحنا السعادة فى كليهما نفس الاقتناع الطبيعى بأن للحياة صفة معينة - فليهما حكمهما على السلوك وهما يعرفان الروابط بين البشر بعضهم والبعض الآخر وبين البشر والعالم وقد لا يكون لأيهما كلمة قاطعة يقولها عن الحياة ، ومع ذلك فكل شئ يعتمد عليها واننا لنجد أنفسنا نقول ، انه الايمان أولا وبعد ذلك يأتى كل شئ من تلقاء نفسه انه الايمان وحده - ولنتخذ مثلا بسيطا جدا أورده على عقولنا نشر كتاب **آل واطسون** (٥) وهو أن فتاة رقيقة سوف تهديء بفطرتها من روع شاب قد صد عنه فى رقصة ، ثم اذا كنت تؤمن بصفة عامة وبغير مناقشة فانك لن تجعل الناس يشعرون بنفس الاحساس لمدة مائة عام فحسب، بل سوف تجعلهم يوقنون بأنه الأدب . فالايمان هو الشرط الذى يجعل الكتابة ممكنة ايمانك بأن انطباعتك تحمل الخير للآخرين انما هو التخلص من تقلص الشخصية أو انطوائها ويجب أن تكون طلقا ، كما كان سكوت

Wordsword. (١)

Scott. (٢)

Miss. Austin. (٣)

(٤) وتقصد المؤلفة بذلك انه كان يعيش فى الخيال (الترجمة)

The Watsons. (٥)

طليقا لتستكشف بنشاط - لا زال يسيطر علينا كالمشودوهين -
عالم المغامرات والخيال انه أيضا تلك الخطوة الأولى في تلك الطريقة
الغامضة التي كانت جين أوستن عظيمة في ابتكارها فهي تختار
الحبة الصغيرة من الخبرة ثم بعد أن تؤمن بها وتتبع من نفسها يمكن
أن تضعها بدقة في موضعها وهي بعد ذلك طليقة لتجعل منها - بطريقة
لم تكشف سرها مطلقا للمحلل - تقريراً متكاملًا هو الأدب

ومن هذا يصيبنا شيء من الغم من جانب معاصرنا لأنهم تنكروا
للإيمان إن أكثرهم إخلاصا سوف يسرد علينا ماذا حدث له وليس
غير ولكنهم لا يقدرّون على خلق عالم وذلك لأنهم لم يتحرروا من سائر
الآدميين ولا يمكنهم أن يقصوا علينا قصصا لأنهم لا يؤمنون بأن
أقاصيصهم صادقة وليسوا بقادرين على التعميم إنهم يعتمدون
على أحاسيسهم ومشاعرهم فشهادة تلك الأحاسيس والمشاعر أحق
بالتصديق من عقولهم التي بقيت أفكارها غامضة . ولقد أكرهوا على أن
ينكروا على أنفسهم شيئا من استعمال أقوى وأنفس أسلحة صنعتهم ومع
كل هذه الحصيلة من الإنجليزية من حصيلة السابقين التي تمدهم
بنفائسها فإنهم يتداولون بخجل من يد إلى يد ومن كتاب إلى كتاب
الرخيص من الأدب لقد سلكوا طريقهم من زاوية جديدة في مجالات
الأدب وذلك بتدوين يومياتهم فقط وبتسجيل ومضات عابرة بتركيز
يضائق وبماذا تضىء تلك الومضات ؟ وكذا بتسجيل روائع وقتية
زائلة ، قد لا تتضمن شيئا على الإطلاق . وهنا يتدخل النقاد وهم على
حق في ذلك .

قالوا إذا كانت هذه هي حالة الأدباء ، يتناولون الأمور التافهة
الزائلة ولا يقومون بما يجب عليهم أن يقوموا به مثلهم في ذلك كمثل
الذين التفوا حول مائدة الطعام فاهتموا بالأشياء الثانوية كآنية الزهور
وأوعية المخللات ، عندئذ تصبح مهمة نقد العمل العصري أشد خطرا
عن ذي قبل . ولهم كل العذر في ذلك إذا كان تقدمهم على مجال أوسع
ومن الأفضل عندئذ التقهقر - عملا بنصيحة ماثيو أرنولد عن أرض
الحاضر الملتهبة إلى هدوء الماضي فقد كتب ماثيو أرنولد - « إننا
ندخل أرضا ملتتهبة إذا ما اقتربنا من شعر خاص بوقت قريب منا
جدا ، مثل شعر بايرون (١) وشيلي (٢) وورد زورث وذلك لأن
التقديرات لن يكون طابعها شخصيا فحسب بل في كثير من الأحيان

Byron. (١)

Shelly. ١٢

تتحكم فيها الأهواء الشخصية متأثرة بالعاطفة « ويذكرنا النقاد بأن ذلك كتب عام ١٨٨٠ فقد حذرونا بالأنا نحكم على الموضوع كله بمجرد فحص جزء صغير منه مثلنا كمثلي من يقنع بخصائص مقدار بوصة تحت المجهر لكي يحكم على خصائص شريط طوله بضعة أميال فالأشياء تبلور نفسها إذا انتظرناها ، ولذا فانهم ينصحون بالاعتدال ودراسة الأدب التقليدي وذلك لأن الحياة قصيرة فمثلا لم يمض على بايرون أكثر من مائة سنة ومع ذلك فبدلا من دراسة أعماله العظيمة ، نتعلق بالتافه من الأمور والأحداث التي لا تؤثر في أعماله فلا زال السؤال الذي يلح حتى هذه اللحظة وهو هل تزوج بايرون من أخته حقا ، أم لم يتزوجها ؟ ويمكن تلخيص ذلك بأنه إذا كان عمل الكتاب يمكن تشبيهه بالثرثرة التي يطلقها جميع الزوار عندما يحين وقت الانصراف وهي أحاديث تافهة لا يمكن أن تأتي بنتيجة فانه يصبح من الواجب أن يقلع هؤلاء الكتاب عن التعلق بأهداب الأمل في خلق الروائع ان شعروهم ومسرحياتهم وسيرهم وقصصهم ليست كتبا وانما هي مجرد مذكرات (١) ، والزمن انما هو كناظر المدرسة الناجح الذي يجمع تلك المذكرات بين يديه ويشير الى عيوبهم والى أخطائهم والى مواضع الكشط ثم يمزقها ولكنه لن يلقى بها في سلة المهملات بل سوف يحتفظ بها لأن تلاميذ آخرين سوف يجدونها ذات فائدة كبيرة انه من مذكرات الحاضر تصنع رواائع المستقبل وكما يقول النقاد الآن - ان الأدب عماش زمنا طويلا ومرت عليه تطورات عديدة وقصر النظر وضيق التفكير هما اللذان يعالين في أهمية تلك النسمات التي تهب فتداعب الزوارق الصغيرة التي تمخر عباب البحر فالعواصف تثير الأمواج على سطح الأدب وفي الأعماق يستمر الهدوء ويستمر السير والتقدم

أما من ناحية النقاد فان عملهم هو إصدار أحكام على كتب العصر ، وهذا العمل - بصراحة - صعب خطر وغالبا ما يكون عديم المذاق فدعنا نسأل هؤلاء النقاد ليكونوا كرماء في تشجيعهم ليساندوا الكتاب الناشئين لأنهم كالبراعم الدقيقة والزهور المتفتحة والا فسوف يكونون عرضة للذبول وسرعان ما يصبحون في مدى ستة أشهر على الأكثر محلا للسخرية فعلى النقاد اذا أن يتخذوا نظرة أوسع مدى وأن يتخلصوا من الانفعالات الشخصية اذا ما تعرضوا للأدب الحديث ، وعليهم أن ينظروا الى الكتاب كما لو كانوا مكلفين، بالاشراف على

Note books. (١)

مبنى ضخيم شيد بمجهود جماعى حيث يظل الفعلة المختلفون مجهولين
لا ارتباط بينهم وليقفوا الباب بشدة على المجموعة الناعمة التى
تستمتع بالحياة الرغدة الوفيرة وليكفوا - ولو للحظة على الأقل -
عن الخوض فى هذا الموضوع المثير مثل هل تزوج بايرون من أخته ، ثم
ينسحبون بعيدا عن المنضدة التى نجلس من حولها نتجاذب اطراف
الحديث ونتناول الأدب نفسه بأسلوب نافع ولنضيق عليهم الخناق
وهم يرحلون ونعيد الى ذاكرتهم تلك السيدة الأرسقراطية الهزيلة
السيدة هيستر ستانهوب(١) التى احتفظت بجواد أشهب فى الاسطبل
الخاص بها انتظارا لعودة المسيح فتعلقت عينها بقمم الجبل فى صبر
نافذ تملؤها الثقة وهى فى انتظار علامات مقدمه وتدعو غيرها لى
يحدو حدوها فىأيها النقاد لماذا لا تكونون مثل تلك السيدة ثرتون
الى الأفق وتنظرون الى الماضى على أنه غير منفصل عن المستقبل ،
وبذلك تمهدون الطريق لروائع قادمة

Hester Stanhope. (١)

فهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة المترجم
٧	القارىء العادى
٩	أل باستون وسوسو (١)
٣١	عندما لا تعرف اليونانية
٤٩	حجرة عاديات فى عصر اليزابيث
٥٩	ملاحظات على المسرحية فى عصر اليزابيث
٧١	مونتينى
٨٣	دوقة نيوكاسل (١)
٩٣	جولة حول ايفيلين
١٠١	ديفو (١)
١٠٩	أديسون (١)
١٢١	حياة المغمورين
١٣٩	جين أوستن (١)
١٥١	الرواية الحديثة
١٥٩	جين ايز ومرتفعات ويذرنج
١٦٥	جورج اليوت
١٧٥	وجهة النظر الروسية
١٨٥	عموميات
٢٠٩	القيم وزهرة الكروكس
٢١٥	المقال الحديث
٢٢٩	جوزيف كونراد (١)
٢٣٧	تضارب آراء النقاد المعاصرين